# الأصولية الإسلاموية الجديدة

## تأملات في

## فكر وممارسات قوى الإسلام السياسي

# الأصولية الإسلاموية الجديدة

## تأملات في

## فكر وممارسات قوى الإسلام السياسي

**عبد الغني سلامة**

**الطبعة الأولى**

**2018م**

**المملكة الأردنية الهاشمية**
**رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية**
**(2018/1)**

سلامه ، عبد الغني

الأصولية الإسلاموية الجديدة تأملات في فكر وممارسات قوى الإسلام السياسي/ عبد الغني سلامه.- عمان.-.

(   ) ص

ر.إ:   /2018

**ردمك : ISBN:978-9957-99-**



*Copyright ©*

جميع الحقوق محفوظة

## قبل البدء، وباختصار شديد...

كل من يعتقد أن الإسلام والمسلمين هما شيء واحد، ومن يظن أن الجماعات الإسلامية تمثل الإسلام، ومن يعتبر نقد الخطاب الديني، أو نقد الجماعات الدينية هو نقد للإسلام نفسه..

وكل من نصّب نفسه حارسا على الإسلام، وناطقا باسم الله سبحانه، ومن يظن أنه يمتلك الحقيقة المطلقة، ومن يعطي نفسه حق تكفير الآخرين.. وكل من يخشى النقد، ومن استراح لمعتقداته، ومن يتجنب التفكير، وتستهويه اليقينيات والمسلّمات، ويرفض التشكيك، ويخشى طرح الأسئلة.. ومن يظن أن علماء المسلمين معصومون عن الخطأ، وقديسون، ومن يعتقد أن التراث والتاريخ الإسلامي مقدس، ولا تجوز مراجعته..

وكل من يتشنج عند قراءة أي نقد للتجربة الإسلامية، ومن يتعصب لفكره، ويتشدد في تمسكه بما ورثه عن مجتمعه من معتقدات، وينظر إلى ذاته وجماعته بنرجسية، ومن يرفض الآخر لمجرد الاختلاف معه.. وكل من يعتقد أن طائفته هي الفرقة الناجية، وأن حزبه يمثل صحيح الإسلام، وأن زعيمه قال الحقيقة النهائية..

وكل من اعتاد على القراءة الانتقائية والمجتزأة، واعتماد أنصاف الحقائق، وانتزاع النص من سياقه، وتحميل النص ما لا يحتمله، وتقويله ما لم يقله، أو تحريفه..

وكل من يتسرع بإطلاق الأحكام، وتستهويه عملية تصنيف الناس، ويقرأ ما هو مخزن في ذاكرته فقط، وبأحكام مسبقة، ونظرة أحادية مغلقة..

وكل من يرفض النقد الصريح والشجاع، ولا يراه الأسلوب الأمثل للتصويب والتقويم والمراجعة، ومن يعتبر أن كل من نقَدَ التجربة الإسلامية إما مستشرق، أو عميل، أو كافر، أو مُضَلل..

أولئك جميعا، أنصحهم بعدم قراءة هذا الكتاب.. لأنه لن يعجبهم، وربما سيحكمون عليه بالهرطقة، والخروج عن ثوابت الدين، والتهجم على الإسلام.. والتجرؤ على المقدس..

وإذا كانت الأعمال بالنيات، ولا يعلم سرائر الأنفس إلا خالقها؛ فإن كل قصدي من هذا الكتاب هو طرح الأسئلة المحيرة، والتفكير بعقلية نقدية، للوقوف عند ممارسات الجماعات الإسلامية، لتشخيص مكامن الخلل، وتصويب الأخطاء، والاستفادة من التجارب، وتنقية تراثنا مما علق عليه من شوائب، وكشف زيف الجماعات السياسية والمسلحة المتسربلة بالدين، والتي أول ما أساءت أساءت للإسلام نفسه.. وبالتالي، فإن في هذا العمل دفاعا عن الإسلام الصحيح، وإبراز لوجهه الحضاري الإنساني السمح..

أما الترهيب الذي اتبعه رجال الدين تاريخيا، والذي في ظاهره البراءة، والزعم أنه ترهيب من عقاب الله لمن يخرج عن طاعته، في جوهره الحقيقي هو ترهيب من رجال الدين أنفسهم؛ أي ترهيب من المؤسسة الدينية الحاكمة، التي تستخدم "سوط الله" لجلد من يخرج عن سلطتها، ومن يفكر بالاعتراض، ومن ينقب في التاريخ، ثم تستخدم من آمن بها واتبعها لترهيب بقية المجتمع، وإخضاعه لسلطانها. لذلك، فإن هؤلاء لا يقدمون الدين بصورته النقية، ولا يعرفون الله: الرحمن، الرحيم، الغفور، الودود،

السلام، المحب لعباده، بل يعرفون إلها آخر: المنتقم، الذي يعذب من استجاب لضعفه الإنساني، ويحرق من فكر خارج الإطار المحدد له..

هذا الكتاب، يتعامل مع التراث الإسلامي بوصفه تجربة تاريخية، صاغها آدميون من لحم ودم، وكل ممارساتهم كانت ممارسات بشرية، وأفكارهم وتصوراتهم عن الإسلام، وتأويلهم للقرآن، وفهمهم الخاص للدين.. إنما هي أيديولوجية بشرية.. بدليل تعدد نماذجها وتجلياتها، وبالتالي كل ما له صلة بهذا التراث يحتمل الصواب والخطأ، وقابل للأخذ والعطاء، ويحتمل النقاش.. وهذا المستوى الذي أناقشه يختلف كليا عن الإسلام (الدين والعقيدة والرسالة).. التي لم أتطرق إليها..

لذلك، كل ما أرجوه أن يُقرأ هذا الكتاب بعناية، دون أحكام مسبقة، وأن لا يتم تحميله ما لا يحتمل، أو تقويله ما لم يقل.. حتى لو شكّل صدمة، لمن يطلع لأول مرة على هذا النمط من القراءة النقدية..

مع التأكيد على أنه مجرد رأي واجتهاد شخصي، يحتمل الخطأ والصواب..

والله ولي التوفيق،

# الإهداء:

إلى روح الشهداء الذين سقطوا ضحايا الطائفية والتكفير والإرهاب.

إلى كل من تصدى لموجات الحقد الطائفي.

إلى كل من وقف في وجه غول التكفير.

إلى كل من نبذ العنف والإرهاب.

إلى كل من يؤمن بضرورة التغيير.

إلى الأجيال التي تتلمس النور في دياجير الظلمة.

التي تبحث عن ذاتها في صحارى الغربة.

إلى الذين نرى في بريق عيونهم بصيص أمل بغدٍ أفضل.

ونسمع في نبراتهم أناشيد العشق وأغاني الحب والأمل.

إلى كل المؤمنين بأن على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

ويسعون إليها بقلب العاشق وروح الإنسان ما استطاعوا إليها سبيلا.

إلى من يعزفون لحن الحياة لإسكات من يقرعون طبول الحرب.

إلى هؤلاء جميعا، أهدي جهدي المتواضع هذا...

عبد الغني سلامه

# كلمة شكر وامتنان

أتقدم بالشكر الجزيل، لكل من الصديقين العزيزين: د. أحمد جميل عزم، ود. خالد الحروب، على ما بذلاه معي من جهد كبير في مراجعة هذا الكتاب.. فقد قرأ كل منهما مخطوطة الكتاب، وأبدى العديد من الملاحظات والتصويبات والمقترحات، التي كان لها الفضل بإخراج هذا الكتاب على نحو أفضل، لهما أعبر عن شكري وامتناني.. رغم أن هذا الكتاب لا يمثل بالضرورة بكل ما ورد فيه عن رأيهما.. بل إني وحدي من يتحمل مسؤوليته..

والشكر الموصول والدائم لزوجتي الحبيبة خلود، والتي أدين لها دوماً بالفضل لما تقدمه لي من نُصح ونقد ومقترحات ملهمة، فالشكر لها ولأولادي الأعزاء يزن، وائل، ياسمين على صبرهم معي، وعلى تحملهم الوقت الذي كان من المفترض أن يكون مخصصا للعائلة..

والشكر أيضا لكل من سيقرأ هذا الكتاب بعقلية منفتحة..

# المحتويات


## مقدمة ........ 17

الإسلام السياسي تَسْيِيسُ الدّينْ، أَمْ أَدْلجَة السّيَاسَة ؟ ........ 33

محاولة في فهم الإسلام السياسي ........ 35

عوامل ظهور الإسلام السياسي ........ 48

## الفصل الأوّل

الطائفــية.. آفة العالم الإسلامي ........ 69

الطائفة والطائفية ........ 71

تقديم: ........ 71

مخاطر الطائفية ونتائجها ........ 75

الطائفية والوطنية والمجتمع المدني ........ 78

كيف تنشأ الطائفية ؟ ........ 83

طائفية الأحزاب السياسية ........ 87

هل الدولة الدينية طائفية بالضرورة ؟ ........ 92

العامل الخارجي في تأجيج الطائفية ........ 98

الطائفية في خدمة الصراعات السياسية في المنطقة ........ 101

الطائفية والصراع العربي الصهيوني ........ 114

نافذة على الحل ........ 117

## الفصل الثّاني

التكـفـير.. جمرٌ تحتَ رماد الفتنة ........ 121

التكفير ........ 123

تقديم: ........ 123

العقلية التكفيرية ........ 128

بدايات فقه التكفير ........ 130

منطلقات المنهج التكفيري ........ 134

الردة والتكفير..................142
التكفير وحرية التفكير..................147
التكفير في فكر الأصولية المعاصرة..................155
منهج التكفير عند السلفية والوهابية..................166
الولاء والبراء، والتترس..................172
محاولة لفهم التجربة الإسلامية..................182
الإسلام دين الاعتدال والوسطية..................186
خاتـمة أولية..................189

## الفصل الثالث

**الإرهاب والعنف،، دوامة الموت** : جذور العنف في التراث الأصولي الإسلامي والحرب على الإرهاب..................191
مفهوم العنف والإرهاب..................193
الكبت الجنسي، والعنف المقدس..................203
العنف، والحرب المزعومة على الإرهاب..................213
جذور العنف في التراث الأصولي الإسلامي..................218
العنف في فكر وممارسة الإخوان المسلمين..................221
الإخوان المسلمين، العباءة التي خرجت منها الجماعات الأصولية..................230
عوامل إضافية في إزكاء العنف..................232
ثقافة الموت..................238
الدولة الإسلامية في العراق والشام – داعش..................242
حقيقة داعش..................250
إدارة التوحش – البرنامج العملي لداعش..................254
تقييم وحصاد أولي لجماعات الإسلام السياسي..................263
نماذج لبعض الحركات الإسلامية..................275
الخلاصة..................286
خاتمة مفتوحة..................292
المراجع..................297

"دخل شيخٌ أحدَ المساجد ليخطب الجمعة في عهد بعض السلاطين الأتراك، فوجد المصلين جميعا رقودا يئنّون، فسألهم عن سر هذه المظاهرة الصامتة، فأجابوه: إن الباشا هاجم بيوتنا ومعه الجند والجندرمة، ونهبوا ما فيها من متاع وحبوب وقوت كنا ندخره للشتاء، زاعما أنه سيرسلها إلى جيش السلطان، فسألهم الشيخ: أليست جيوش السلطان تحارب الكفار؟ فأجابوه ببساطة: بلى، قال: إذاً - فادعوا للسلطان بالنصر..."[1]

"قيل أن أحد المشايخ دخل بلاط الملك، فاحتج عليه بأن دشداشته أطول مما سمح به الشرع، ونصحه بأن يقصرها، فأومأ الملك بالموافقة وأمر الحاجب أن يجلب له مقصاً، وسمح له أن يقص ما زاد عن الحد، والملك ما زال مرتديا ثوبه ويثني على الشيخ، ولكن عندما تحدث الشيخ في السياسة وتدخَّل في شؤون المُلْك ونصَحَهُ بأن يعدل بين الرعية، استشاط الملك غضباً، وبنفس المقص.. قصَّ له رقبته".[2]

[1] خالد محمد خالد، مواطنون لا رعايا، مكتبة المثنى، ط6،، 1958، ص 29.

[2] فهد القحطاني، الإسلام والوثنية السعودية، منظمة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية، ط1، 1985، ص 65، وهي قصة الملك عبد العزيز مع الشيخ فيصل الدويش.

# تنويه

الأصولية (fundamentalism)، وتعني العودة للأصول، وهو مصطلح غربي، وُلد ونشأ في أوساط الكُنس البروتستانية والكاثوليكية، وبحسب موسوعة "روبير" اللغوية، استخدم مصطلح "الأصولية" أول مرة بعد الحرب العالمية الأولى، للإشارة للتيار اللاهوتي البروتستانتي المحافظ، في الولايات المتحدة الأمريكية، المتمسك بحرفية النصوص الإنجيلية. ومعروف أن هذا التيار، الذي يمثل "الأصولية المسيحية"، رفض على مدى قرون كل مساعي التجديد والعصرنة والتطور، وحارب البحث العلمي، واضطهد العلماء والمفكرين.

وحسب قاموس "أوكسفورد"، تعني الأصولية "الحركة الأرثوذوكسية التقليدية، التي تقوم على مفهوم مضاد لليبرالية". ومع أنّ مصطلح "الأصولية" صار يستخدم للتعبير عن الحركات الإسلامية الحديثة، إلا أن المستشرق "جاك بيرك"، رفض ذلك، وفضّل وصف "الإسلاموية"، أما المستشرق "دكمجيان"، فقد اعتبر مصطلح "الأصولية" هو الأنسب لوصف الظاهرة الإسلامية، من حيث أنه يشير للعودة إلى البحث عن أصول العقيدة، وأسس الدولة الإسلامية، وقواعد الحكم الشرعي.[3]

مجددا ظهر مصطلح "الأصولية" منذ بداية الثمانينات من القرن الماضي، وأول من تداول هذا المصطلح الإعلاميون، ومن بعدهم الباحثون والمفكرون والسياسيون.. للإشارة إلى ما سمي بالصحوة الإسلامية. بيد أنّ هذا المصطلح أخذ يحمل دلالات سياسية وفكرية، لا تعبر تعبيرا دقيقا بما توحي به كلمة "الأصولية" بالمعنى اللغوي

[3] رضوان أحمد الشيبانى، الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، دراسة تحليلية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2006. ص 19.

والإصطلاحي، وصار يستخدم للإشارة تلميحا أو صراحة للرجعية المعادية لكل تقدم، أو للإشارة للإرهاب، أو التخلف، حتى أصبح النعت بالأصولية بمثابة شتيمة! بالرغم أن كلمة الأصولية بحد ذاتها، ليس إلا توصيفا للجماعات الدينية التي تتمسك بأصول العقيدة، وأصول الدين، بطريقة جذرية (Radically).

وحسب الشيخ القرضاوي، "إذا كان الغرب يقصد بالأصولية الذم للمسلمين، فالأصولية عندنا شيء مشرّف، ونحن أصوليون، لأن معناها إننا نعود إلى أصولنا، ونتمسك بها، ولا نقبل أن ننفصل عن جذورنا". [4]

وقد دأبت بعض الأوساط الإعلامية الغربية على تداول بعض المصطلحات التي يُراد منها التشكيك بالإسلام، أو ذم الإسلاميين، من مثل: التطرف الإسلامي، الإرهاب الإسلامي، الأصولية.. وهذا لاينفي وجود جماعات إسلامية متطرفة، وتمارس الإرهاب؛ ولكن التعميم مرفوض، ويجب الحذر عند استخدام هذه المصطلحات، حتى لا نقع في شرَك الإعلام المضلل.

استخدام كلمة "الأصولية" في عنوان الكتاب، إنما لوصف كل الحركات والأحزاب الإسلاموية في الوقت الراهن، سواء المعتدلة أم المتشددة، ولا يُقصد به ذم، أو توجيه أي إتهام لأحد.

---

[4] مفهوم الأصولية، مقابلة مع الشيخ يوسف القرضاوي، برنامج الشريعة والحياة، قناة الجزيرة، 19-10-1997.
http://cutt.us/ZM5Ay

# مُقَدِّمَة

قديماً، كان الثالوث المحرم (الدين، الجنس والسياسة) يمثل حجر الزاوية في فكر وممارسة القوى الإستبدادية؛ أي السلطة والقوى المتحالفة معها، وحديثا لم تنتفِ حاجة القوى المهيمنة على المجتمع لترويع الناس بأضلاع هذا المثلث؛ فالممنوع والمحرم ما زال ممنوعاً ومحرماً، إلا بالحَـيِّز الذي شقَّتْهُ لنفسها القوى التقدمية والديمقراطية، وفَرَضَتْهُ كإنجازٍ تعمّدَ بالدماء وتضحيات المعذبين والمقهورين.. فمع خَلْقِ واقعٍ جديد نتجَ عن التراكمات الكفاحية لقوى التغيير في العالم، ومع تزايد حالة الوعي الذي كان يصبُّ في سلّة الخبرة الإنسانية، وبفعل نضالات الشعوب وحركات التحرر تمكنت البشرية مع إنتهاء النصف الأول من القرن العشرين من صياغة الإطار النظري لنظام عالمي يحترم إنسانية الإنسان، ويصون حقوقه، لكن الحضارة الإنسانية ما زالت تخوض معركتها ضد النظام الدولي السياسي المتوحش، والذي تهيمن عليه الإمبريالية العالمية.

ونحن في العالم العربي والإسلامي، وإن كانت لنا في يومٍ من أيام مجدنا الغابرة، إسهامات مهمة في الحضارة الإنسانية، وكنا من بُناتها الأولين، إلا أننا أُبتلينا بحكمٍ مستبد، منذ أن صارت الخلافة الراشدة مُلْكاً عضوداً يورثه الآباء لأبنائهم، بالرغم من أن تلك الفترة مثلت عصرا ذهبيا للفكر التحرري والتقدمي والإبداعي على مختلف الصعد وفي شتى المجالات،[5] إلا أنها كانت من ناحية أخرى شكلا من أشكال الدولة

[5] يجمع الباحثون على أن العصر الذهبي للحضارة الإسلامية من 800 ~ 1100 م.

المستبدّة، التي لِحاكِمِها صلاحيّةُ مَنْحِ الذهب لشاعرٍ امتدحه فأحسن المديح، أو ضَرْبِ عنقِ مفكر إبتدع بدعة لم ترق له، وطبعا دون حسيب أو رقيب في كلتا الحالتين.

وطوال فترة الحكم الأموي، التي لم تتجاوز القرن، وخلال الحقبة العباسية الأولى كانت الدولة الإسلامية ما تزال فتية قوية، وفي أوج مجدها العسكري، وتعيش مرحلة من الإزدهار والنمو، وكانت الأمة تمر في مرحلة الصعود، بالرغم من أن تلك الفترة شهدت المظالم والمفاسد والثورات الداخلية والانتفاضات الشعبية التي كانت عادة ما تُواجَه بالقمع والتنكيل. وإذا كان للحقيقة وجهان، فإن الوجه الأول لها تَمَثَّلَ في تقدم ورقي الدولة، ومنَعَتها، بينما تمثّل الوجه الثاني في الصراع على السلطة، والمؤامرات الداخلية ومفاسد السلطان وتفكك مفاصل الدولة.. والتي تفاقمت وتأصلت أكثر في الحقبة الثانية من الحكم العباسي.

بعد سقوط بغداد في قبضة المغول، انهارت الهوية الثقافية السياسية للأمة، أو كادت، وصارت جموع المسلمين تلوذ بالهوية الدينية كبديل عن الهوية الحضارية، وكان لجوئها للدين بصورته الغيبية العاطفية كإجابة مباشرة على حيرتهم وضياعهم، وقد كان وللأسف هذا اللجوء وعلى هذا النحو تحديدا دافعا نحو مزيد من التراجع الثقافي والقيمي، وتحت تأثير العامل الخارجي، والذي استمر بعد ذلك من خلال حكم المماليك والأتراك.

إذن؛ فالإنهيار تسارع بعد أن سقطت الدولة العباسية في قبضة التتار، بعد أن كانت قد سقطت من قبل في قبضة سلاطين لم يكونوا يجيدون شيئا كما يجيدون التغني بالجواري والغلمان، وبإنهيارها دخلت الأمة في مرحلة جديدة ومختلفة، صار للفقهاء دور أكبر،

تمثل في تبرير مفاسد السلطة، وخلق ثقافة التقليد، وتقديس النص، والإهتمام بالشكل وإهمال المضمون، بحيث خلقوا ما يمكن تسميته بالدين البديل، الذي يركز على القشور وإقامة الشعائر والإحتفاء بالطقوس، بالشكل الذي يضمن الإبقاء على مسافة معينة من السلطة، بل ويمكنّها من تمرير سياساتها وتبرير ممارساتها، دون أن ننسى أن بعض الفقهاء قد دفعوا ثمنا باهظاً من جراء تصادمهم مع السلطة.

بعد أن وجّه المتوكل ضربته القاضية للمعتزلة وعلماء الكلام، وصاروا سُبّةً على المنابر يتوجب لعنتهم، وبعد أن إنتشر فكر ابن تيمية، وشن الغزالي حربه على علوم العقل، واكتسب الفقهاء قداسة النص الديني نفسه، وبعد أن انتصر النقل على العقل، والتقليد على التجديد، صار الإرهاب الفكري ومصادرة العقل هي سمة المرحلة، وصار تفويض الآخرين (الفقهاء) بالتفكير نيابة عن الناس هو الأساس، وأصبح الفقه والسلطة توأمين لا يفترقان،[6] وغدت شعارات الزندقة والهرطقة والخروج عن الإجماع هي معايير التعامل مع الآخر.

وهكذا، انتهى العصر الذهبي للحضارة الإسلامية سريعا؛ فمع حلول القرن الثاني عشر كانت تحولات كبيرة في بنية الدولة والمجتمع الإسلامي قد بدأت تأخذ مداها كما هو محتم لها؛ أي بناءً على المقدمات التي أخذت تتشكل في أكثر من مكان؛ في الأندلس أدت انتصارات المرابطين على ملوك الطوائف إلى إنهاء عصر التعددية والتسامح والتنوير.. في المشرق، مع استشراء الفساد وانهيار الدولة العباسية واحتدام الصراع بين الفاطميين والسلاجقة، أدى ذلك إلى تفشي العصبية الدينية والمذهبية، وزيادة التطرف.. ومع توالي

[6] محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، الأهالي للتوزيع، دمشق، ط1، 2000، ص 61.

حملات الفرنجة، وغزو التتار، بات المسرح مهيئاً للعسكر والمماليك والأتراك لتولي الحُكم، وهم الذين أدخلوا الأمة العربية فيما يشبه الغيبوبة التاريخية..

وهكذا، بعد عصر الإبداع والتنوير؛ الذي ظهر فيه المعتزلة والفلاسفة، وازدهرت فيه البحوث والترجمة والاختراعات والشعر والأدب.. بدأ عصر الفقهاء، والارتكاس العلمي والحضاري.. ومع أن تلك الردة الحضارية استغرقت وقتا طويلا، إلا أن الوزير السلجوقي "نظام الـمُلك"، كان له دور في هذا السياق؛ فقد دشّنَ المدارس النظامية، وهي مدارس فقهية تركز على الدروس الدينية على حساب البحث العلمي، وتستند إلى أسس مذهبية طائفية لمواجهة التيارات "غير السنية" التي كانت وقتها بصدد الانتشار، وتقوم فلسفتها على تأويل متشدد للفقه الإسلامي يركّز على النص، دون الجوهر، ويرفض المنهج المنطقي والعقلاني. وهو المنهج الذي سيدوم في الفترات اللاحقة.. وما كليات الشريعة الحالية إلا استمرارا لها.

أي أن العصر الذهبي للإسلام، وكل المنجزات الحضارية والعلمية تحققت قبل أن تتمكن المنظومة الفقهية من السيطرة على الحكم، والهيمنة على المجتمع؛ أي ما بين القرنين الثاني والرابع الهجري، بعد أن تمّ نقل التراث الإغريقي واللاتيني إلى العربية وهضمه بالتدريج، والتفاعل مع الحضارات الفارسية والهندية واليونانية.. وكل العلماء والشعراء الذين برزوا في تلك الفترة، كانوا متحررين من سطوة الفقهاء، بل أن الفقهاء ناصبوهم العداء، وكفروهم..

لا يعني هذا أن الدين كان سببا للتخلف؛ وكما يقول "سيد القمني": "الدين في حد ذاته ليس طرفا في الموضوع، وكما أنه لم يكن له دور في التخلف، لن يكون له دور في التقدم؛

فمتطلبات التقدم أو عوامل التخلف لا علاقة لها بأي دين.. الإسلام كدين في حد ذاته لم يكن عنصرا في إنجازات ابن سينا وابن رشد والرازي والفارابي وابن الهيثم وغيرهم، وليس سببا في اختفاء العلماء من بلادنا من بعد تلك الكوكبة اليتيمة من العلماء".[7]

ودليل على أن الدين ليس هو السبب، نرى دولا إسلامية مثل سنغافورة، وماليزيا، وتركيا تقدمت وتطورت، ولكن بآليات لا علاقة لها بالدين نفسه، بينما بقية الدول الإسلامية ما زالت قابعة في قاع التخلف، وفي مؤخرة الأمم، ولكن ليس بسبب الإسلام أيضا.. ما يؤكد أن المشكلة ليست في الدين. لكنها في كيفية فهم الدين والتعامل معه؛ فهناك من استثمره في التقدم، وهناك من استغله لتكريس التخلف.. هناك من وظف العناصر الإيجابية فيه، وهناك من جعله غطاءً لمقاصده السياسية..

وللإجابة على سؤال سبب تخلف العرب والمسلمين، قال المفكر المغربي "أحمد عصيد": "إن أول وأهم سبب لتخلف العرب هو تنحيتهم العقلَ جانبا، والنظر إليه باعتباره قاصرا، ونسبيا، وعاجزا.. ولأنه نسبي يجب أن يكون تابعا للنص المقدس الذي هو مطلق، ولأنه قاصر ومحدود فليس له من دور سوى تفسير النص، والعمل على تطبيقه، والتقيد به.. أي حبس العقل في حيز النص، وجعل النص متقدما على العقل ومرجعا له، وضابطا لحدوده.. وهكذا نصّب الفقهاء أنفسهم حراسا على النص، واحتكروا تفسيره وتأويله، وألغوا دور العقل النقدي والمعارض، ومنعوا أي تحليق له خارج فضاء النص.. الأمر الذي جعل العقل محدود القيمة ومحدود الجهد، وبالتالي لم يعد قادرا على

---

[7] سيد القني، هل الإسلام سبب تخلف المسلمين؟ الحوار المتمدن، العدد 4719، 13-2-2015.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=223936

المغامرة والاكتشاف والتفكير خارج الإطار الذي حدده رجال الدين.. وهكذا بدأت رحلة التخلف على المستويين العلمي والمعرفي". [8]

ومع هذا التغيير الكبير في شكل العلاقات الداخلية، واعتماد العقلية الأمنية والعسكرية فقط في بناء دفاعات السلطة ضد خصومها المحليين والخارجيين، سيولد واقعا فكريا جديدا، سيؤدي لانقلاب المشهد الثقافي الذي دام في القرنين السابقين، وسيبدأ تدريجيا بإلغاء إيجابيات تلك الفترة، وسيعمل على تفكيك أطروحاتها المعتدلة والعقلانية، تمهيدا للإطاحة بها، وسيبرز في هذه المرحلة الإشكالية والخطيرة الإمام الغزالي، ثم ابن تيمية وابن الجوزية.. بمعنى آخر، سيذهب وإلى غير رجعة عصر العلم والإبداع والفلسفة والتفكير النقدي ليحل محله عصر النقل والنصوص والحشو والعنعنة.. وسيبدأ الفقهاء بأخذ الدور الرئيس في المشهد الثقافي..

منذ ذلك الوقت، والفقهاء يساهمون في صياغة الوعي الجمعي، ويتحملون مسؤولية تقديم الإسلام بشكله الجديد والمختلف.. خاصة وأنهم وحدهم تقريبا، تفردوا بالساحة، وظلوا على صلة مباشرة بالناس..

لا شك أن الفقه كان ضروريا في بدايات الإسلام؛ لفهمه وشرحه وتقريبه من الناس، وليس كل الفقه جامدا؛ فلدينا فقه المصالح المرسلة للشاطبي مثلا (ت 1388م)، وهناك الاجتهاد والقياس.. إلا أن بعض الفقهاء جعلوا منه الوسيلة الأهم لبسط نفوذ السلطة، والأداة التي انشأت "طبقة" رجال الدين، ثم حاد عن هدفه من تبسيط الدين إلى تعقيده، وخرج من مجاله في الأحكام الفقهية، إلى تغلغله في كل شيء بما في ذلك مجال

[8] محاضرة مسجلة للاستاذ أحمد عصيد بعنوان: " لماذا تخلف المسلمون؟ https://www.youtube.com/watch?v=-xkwonKvdEA

السياسة والحكم.. وعندما وضع الأئمة الأربعة قواعد الفقه، كان ذلك منسجما مع ظروف عصرهم وأحوالهم.. لكن توقف عند ذلك الزمن، وبات يتحكم في كل الأزمان التي تلته.. وصار الفقهاء من بعدهم مجرد حافظين للنصوص وناقلين لها.. وحتى في القضايا المستحدثة، فإنهم في فتاويهم يرتكزون للأسس المتشددة التي وُضعت في زمن سابق وظرف مختلف..

مع أن الإسلام دين بسيط وسهل، لكن الفقهاء عقّدوه.. الدين بجوهره علاقة مباشرة بين الإنسان وربه؛ علاقة مناجاة ودعاء وصلاة وحُب.. لكن وعاظ السلاطين حولوه إلى عصبيات طائفية، وجعلوه أداة للسلطة والتحكم.. الإسلام لا يوجد فيه كهنوت ورجال دين.. لكن الفقهاء، ومن أجل خلق دور مهم لهم، أوّلوه بالطريقة التي تعطيهم هذا الدور، وتمنحهم تلك المكانة الاجتماعية.. [9]

في العصر الحديث مع صعود تيارات الإسلام السياسي ظل الثالوث المحرم صامدا بأضلاعه الثلاث، إلا أن ثمة مثلث جديد/ قديم أخذ بالبروز، وباحتلال موقع الصدارة في فكر وممارسة بعض القوى التي تنتمي للإسلام السياسي، وأضلاع هذا المثلث هي الطائفية والتكفير والإرهاب.

فالقوى التي تسعى للهيمنة على المجتمع أو الظفر بالسلطة، تسعى أولاً لفرض رؤاها عليه، حتى لو أضطرت أحيانا لاستخدام الإرهاب والترويع ومصادرة الرأي الآخر، وتحريم الخلاف معها، بحجة أنها صاحبة الحق، ومالكة الحقيقة، وممثلة الخير والسمو في الأرض، التي تستمد شرعيتها من السماء! والأساليب التي تتبعها قوى الإسلام السياسي في سبيل غايتها التي تقاتل ليل نهار لتحقيقها، وهي الوصول إلى سدة الحكم

---

[9] عبد الغني سلامه، الدور المتنامي للفقهاء، جريدة الأيام، 24-10-2016.

وفرض مشروعها على المنطقة، هي ذاتها التي اتبعتها قوى التكفير في زمن الإنحطاط، والتي تعتمد على إرهاب الناس فكريا وجسديا إذا لزم الأمر - وغالبا ما يلزم – ثم تكفير من يختلف معها حتى لو كانت قوى أخرى تنتمي لنفس التيار، وبالطبع ستعتمد في سبيل تحقيق أهدافها على قوة الطائفة.

وبروز هذه القوى وتعاظُم قوتها في الهزيع الأخير من القرن العشرين كان نتاجا حتميا لحالة التراجع الثقافي العام، ونتيجة إخفاق القوى التقدمية في تحقيق أهدافها، فقد أدى فشل النخب الثقافية والقوى الثورية وانكفائها على ذاتها إلى خلق المناخات المؤاتية لنمو الأصوليات. ولكن هذه الأصوليات لم تكن ناتجا عرضيا جاء في ظل ظروف سياسية معقدة، بقدر ما كانت أيضا نتاج جهد ذاتي لشرائح اجتماعية معينة، دأبت على التعبير عن نفسها، وعلى بث أفكارها، وتنشئة الأجيال الطالعة على مفاهيمها من خلال آليات متعددة ومختلفة، حسب المدرسة الفكرية التي تنتمي إليها كل قوة.

فبعض هذه القوى كانت تسعى إلى تمتين العلاقات بالميراث الفقهي على نحو متعصب لا يدع مجالاً للحوار، بدءًا من البيت إلى المدرسة إلى كافة مناحي الحياة اليومية على مستوى الثقافة والتعليم والسلوك والقيم وفرض أنماط معاشية معينة. بينما سعت قوى أخرى إلى أدلجة الدين على نحو تبسيطي تعليمي سطحي، يُلغي أبعاده الروحية والإنسانية والحضارية المنفتحة على العالم[10]، وتبقيه محصورا في دائرة الطقوس والفقه وبشكل معادي أو متناقض مع العالم الإنساني ومع الآخر. أما النوع الثالث من تلك القوى فهي التي قامت على فكرة الجهاد والشهادة والتضحية، أي التي فهمت الإسلام كنقيض للأديان والملل الأخرى، وصنفت العالم إلى دار حرب، ودار إسلام.

[10] أدونيس، الكتاب الخطاب الحجاب، دار الآداب، بيروت، ط.1 2009، ص 158.

وعند حديثنا عن أسباب وعوامل وحيثيات بروز تلك القوى يجب ألّا ننسى تأثير العوامل الخارجية، أو نقلل من شأنها؛ فالعربدة الأمريكية في كافة أرجاء الأرض، وبث ثقافة "الكاوبوي" والعنف وتعميم النموذج الأمريكي، والقمع والإستبداد السلطوي تعد من بين الأسباب التي ساهمت في إزدهار ثقافة العنف، والسياسة الأمريكية المنحازة وغير العادلة هي التي أدت إلى نشوء الحركات الأصولية كرد فعل لمواجهة الطغيان العالمي.. كما أن الصمت العالمي وأحيانا التواطؤ الدولي على الجرائم التي تقترفها الأنظمة القمعية والشمولية الغاصبة، وفي مقدمتها إسرائيل، أيضا تستدعي بالضرورة ردات الفعل الغاضبة والمتشددة.

والإرهاب المنظم الذي تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية (غوانتنامو، أبو غريب، الفلوجة...) إلى جانب الإرهاب المنظم التي تقترفه إسرائيل على مدار الساعة، يُعدّان أول وأهم الأسباب في إستشراء ثقافة العنف والتطرف، بل أن الحرب المزعومة التي تشنها أمريكا على الإرهاب هي نفسها التي تغذي الإرهاب على مستوى العالم، وما الإرهاب الديني إلا جزءًا منه.

وقبل أمريكا وإسرائيل، شكل الاستعمار حافزا لتطرف ردات الفعل العربية، فبسبب سلوكه الإستعلائي العنصري الدموي العنيف أدى ذلك إلى تطرف الحركات العربية، سواء الإسلامية أم الليبرالية أم الاشتراكية وحتى القومية، التي اتخذت أحيانا بعض الأشكال الشوفينية..

أما الإرهاب المنسوب للإسلام والمسلمين عامة، فهو توظيف سياسي غير بريء، فمثلما خرجت جماعات إرهابية ومتطرفة منسوبة للإسلام (قديما وحديثا)، بالمثل، خرجت

جماعات وأفكار إرهابية من الديانات المسيحية واليهودية، كالنازية والصهيونية والجماعات اليمينية المتطرفة، والتي مارست العنف والإرهاب بكل أشكاله، لذا من الخطأ نسب الإرهاب والهمجية إلى الدين نفسه، لأنها في النهاية ممارسات بشرية، مدفوعة برغبات وغرائز بشرية.

وعلينا أن نتذكر أن عدد المسلمين في العالم أكثر من مليار ونصف المليار إنسان، أي تقريبا خُمس سكان العالم، وبالتالي لا يعقل أن يكون كل هؤلاء إرهابيين، بل إنه من الخطأ إطلاق أي توصيف محدد على هذا العدد من الناس؛ ببساطة لأنهم من مختلف الأصول والأعراق والثقافات، وهم موزعون على كافة بقاع وأقاليم الأرض، ما يعني أنهم في الواقع عينة نموذجية تمثل الإنسان الذي يسكن كوكب الأرض، مثلهم مثل باقي البشر. ولكن، المسلمين، مثل أي أتباع دين آخر، وإن اجتمعت فيهم بعض الصفات المشتركة، إلا أن ما يظهر منهم للعالم ويبدو جليا للعيان، هو ممارسات الجماعات النشطة، وهي في الوقت الحاضر جماعات متشددة ومتطرفة، ولكنهم - كما كانوا في كل العصور - أقلية ضئيلة جدا من حيث العدد، ولكن بسبب الإعلام، ولأغراض سياسية معينة، باتت تلك الجماعات هي التي تمثل مجموع المسلمين، وتعكس صورتهم أمام الآخرين.. وما رسَّخ من هذه الصورة أن الأغلبية الساحقة من المسلمين صامتة تماما، أو أن صوتها غير مسموع.

فمثلا، وبحسب بيانات للشرطة الأوروبية، وتقرير خاص نشره موقع "فوكاتيف" الأمريكي؛ فإن نسبة المسلمين المتورطين في عمليات إرهابية مقارنة بعدد الجاليات الإسلامية في أوروبا تكاد لا تذكر، وأن نسبة العمليات الإرهابية من منطلقات دينية لا

تتجاوز ال3٪ مقارنة بالهجمات الإرهابية لدوافع أخرى، حيث وقعت عشرات العمليات الإرهابية نفذها شبان أوروبيون لدوافع عنصرية ويمينية متطرفة. ولكن، ومع ذلك نجح الإعلام بتسليط الضوء على الجماعات الإسلامية المتشددة، وتضخيم ظاهرة "الإسلام فوبيا"، وتكريس مفهوم "الإرهاب الإسلامي" في الخطاب الإعلامي.[11]

وبالعودة لأسباب صعود الإسلام السياسي بشكله العنيف، يضيف البعض عاملا آخرا، يتمثل في بروز اليمين المسيحي واليهودي والقوى العنصرية في الغرب، التي ما دأبت تحرض على الإسلام، وتجد فيه عدوا مفترضا. وحقيقةً، وحتى لو سلمنا بوجود هذه القوى؛ فإن تأثيراتها في تلك المرحلة كانت هامشية ولا تُذكر، وفي الحالات التي كانت تبدو فيها ضعيفة أو مستترة كان يتم إبرازها وتضخيمها من قبل بعض الإسلاميين، لأن ذلك يعتبر المحرض المثالي لاستقطاب المزيد من التأييد الشعبي.

وما دفعنا للبحث والدراسة في هذا المجال هو رؤية أجيالنا الطالعة وهي تتربى في ظل أجواء سياسية واقتصادية وثقافية معقدة وصعبة، تشكل معاً معالم حقبة تاريخية بالغة الأهمية، تفصل بين مرحلتي التخلف والحداثة، وبين التحرر الوطني ومحاولات الإنبعاث القومي، وهذه المرحلة شأنها شأن كل مراحل الإنتقال التي عاشتها الشعوب في مراحل تكوّنها وصيرورتها التاريخية، تتسم بظاهرتي العنف والفوضى، وبالتالي فإن الأجيال التي ستنشأ فيها ستتأثر بكل مكوناتها المعقدة والمتشابكة، وستعاني من حِدّية الصراع بين الأجيال، ومن التناقض والتخبط وفقدان البوصلة، وستكون فريسة سهلة للقوى السياسية الطامحة لفرض رؤاها على المجتمع، تلك القوى التي تستخدم الشباب

[11] تقرير أخبار العرب، موقع صدق الإخباري، https://www.sdeg.org/7041

والمراهقين وقودا لحروبها، ومطية لتحقيق أهدافها دون رحمة، وبأسلوب يفتقر لأبسط قيم الإنسانية.

بعض تلك القوى تعمل تحت جنح الليل، وفي الزوايا المظلمة، وتتفنن في صناعة الجهل وبث ثقافة الموت، وتستغل الدين وتتخبأ تحت عباءته، وقد ألحقت أفدح الخسائر بمشروع التحرر الوطني، وألحقت الكثير من التشويه بثقافة الأمة، وأفسدت روحها وفكرها، وأضرت بسمعتها، وبسمعة دينها الحنيف، وقد آن الأوان لكشفها وتعريتها ونزع قناعها الزائف، ومما لا شك فيه أن هذه المهمة صعبة ومحفوفة بالمخاطر.

في هذه الدراسة سنلقي الضوء على هذه القوى وآليات عملها وطرائق تفكيرها، وسنحاول التعرف على ظروف نشأتها وحيثيات تطوراتها التاريخية، لنكتشف تأثيراتها على المجتمع وثقافته ومستقبله، من خلال التركيز على فهم ثلاثة ظواهر تشكل معا أضلاعا لمثلث أيديولوجي ترتكز عليه الكثير من قوى الإسلام السياسي، وهذه الظواهر هي: الطائفية والتكفير والعنف، مع محاولة تقديم مقترحات للحل وتصورات للخروج من الأزمة، وعسى أن نكون قد وُفّقنا في ذلك..

ولكن أيديولوجية قوى الإسلام السياسي لا تقوم فقط على أضلاع هذا المثلث، وهذه الظواهر الثلاث ليست فقط وحدها ما يحدد قسماتها وسماتها، فكثير منها، إلى جانب هذا كله تتصف بالإنغلاق والجمود والتعصب والنصية الحرفية والإستعلائية وإقصاء الآخر ورفض الحوار، وهي إن مارست شكلا من الحوار فعادة ما يكون من طرف واحد؛ أي الطرف المرسل الذي يؤمن بكل ما يقوله، ويرفض ما يقوله الآخر، لأنه يظن أن حزبه وما يمثله من فكر قد أجاب على كل الأسئلة إجابة شافية مطلقة مؤيدة من السماء،

وعلى الآخرين أن يتبعوه ويطيعوه قبل أن يمحقهم الله بغضبه، وأن يثوبوا للرشد قبل فوات الأوان.

ونحن إذ نستنكر على تلك القوى رفضها للحوار، ليس لأنها تحاول احتكار الحقيقة وإسكات كل من لا يتبعها، بل لأننا نؤمن بأن الحوار هو الوسيلة الوحيدة والأساسية التي يقوم عليها المجتمع للتعبير عن نفسه وفي سعيه لبناء ذاته، وفي مواجهة مشاكله، ومن أجل تقدمه نحو المستقبل، ولأن البديل عن الحوار هو التعصب والإنغلاق والعنف والفوضى.

وكما أن الحوار ضرورة للمجتمع، هو أيضا ضرورة للإنسان حتى يفهم ذاته ويحقق هويته، ذلك لأن هوية الإنسان ليست مجرد صورته في المرآة، ولا مناجاته لذاته في غياهب الليل، أو مداعبته إياها في أحلام اليقظة، أو حواريته الصامتة مع النفس، أي أن الهوية ليست عملا فرديا ينجزها الإنسان بمفرده، بل يحتاج لإنجازها وتصورها إلى بيئة محيطة، وإلى بنية ثقافية حوارية، فلا هي صورة ذاتية نرجسية، ولا هي إقصاء للآخر، أو نبذاً، أو اتهاماً، أو طعنا في شرفه ووطنيته..[12]

فالهوية لا تكتمل إلا في بيئة من التفاعل والتكامل والتبادل على قاعدة القبول بالآخر واحترام وجوده وحقه في التعبير، ولا يشترط في هذا الآخر أن يكون شبيها، أو امتدادا للذات، بل يجب أن يكون ثمة اختلاف معه، ومن هنا تكون الهوية نشاط وإبداع وحركة بوصفها اختلافا وتمايزا مع الآخر، ولكنه اختلاف ائتلافي وتكاملي، يجعل من الذات شخصية متميزة عن الآخر ولا تعاديه، بل تحترمه وتتعاون معه.

---

[12] أدونيس، الكتاب الخطاب الحجاب، دار الآداب، بيروت، ط1، 2009.

في هذا الإطار الرحب والمرن لفهم الذات والآخر نتمكن من بناء حاضرنا ومن صياغة هويتنا الحضارية الوطنية، ومن خلال الفهم التقدمي للحوار والممارسة الصحيحة له – الذي هو القاعدة الأساسية للنظام الديمقراطي – نستطيع مواجهة القوى الرجعية والظلامية، وأن نمد جسورا نحو العالم، ونحو المستقبل.

وإذا كنا نؤمن حقا بالديمقراطية، وكانت دعواتنا للحوار جادة، فأول ما يتوجب علينا فعله هو الشروع فورا في حوار شامل مع قوى الإسلام السياسي بمختلف اتجاهاتها، على قاعدة الإيمان الصادق بحقهم في الوجود، وحقهم في الدفاع عن وجهة نظرهم بحرية كاملة، وأن نسعى لبناء نظام تعايش مشترك يتسع للكل على قاعدة الاحترام المتبادل، ولكن مثل هذا الحوار سيكون عبثا ومضيعة للوقت مع تلك القوى التي تنكر على الطرف الآخر حقه في الوجود، وتُكفِّره، وتصنفه في خانة الأعداء، لا بل تعتبر أن القضاء عليه هو واجب ديني! وما يؤخر حسمه هو فقط الوقت والظروف التكتيكية.

وعلينا أن نؤمن بأننا جزء من هذا العالم، وأنه علينا واجب الانخراط في الحضارة الإنسانية والمساهمة فيها دون تردد ودون خوف، لأنه لا يمكننا مواجهتها أو الوقوف ضدها، ولا تحقيق التقدم خارجها، فالإنسانية مترابطة ليست بفعل منظومة العولمة الحالية، بل لأنها كذلك منذ فجر التاريخ: مترابطة بثقافاتها وعلومها ومشاكلها وهمومها وبمستقبلها؛ فالثقافات الإنسانية متشابكة مع بعضها البعض، ومن الصعب القول أن هنالك ثقافة منفردة ونقية نقاء محض، بل كلها مهجنة ومولودة ومتخالطة[13]، وأن هذه الحضارة في إطار تفاعلاتها وتناقضاتها واختلافاتها إنما تمشي بخطى ثابتة نحو المستقبل،

---

[13] صلاح عبد العاطي، العلمانية والأصولية في المجتمع العربي، مركز رام الله لدراسات حقوق الإنسان، ط1، 2008، ص 38- 39.

وبحركة صاعدة على الدوام ودون توقف، ولولا هذه التناقضات والتباينات لما تقدمت البشرية، ولما حلت الحداثة محل التخلف.

وعلينا في سعينا نحو التغيير أن نؤمن بقيمة الإنسان بوصفه أهم كائن حي في الوجود، وأنه الغاية والهدف والوسيلة في آن معاً، وأن تحرره من المعيقات الداخلية والخارجية هو هدف أي عملية تغيير أو إصلاح أو ثورة، وأن نتعامل مع عقل الإنسان باعتباره القيمة الحقيقية له، ومصدر تفوقه وجوهر وجوده، ولكن إيماننا بالإنسان يجب أن يكون مبنيا على أساس أن الروابط الإنسانية وأواصر التعاون هي أساس البناء والرقي في المجتمعات، وهذه هي القيم التي تُمثل جوهر ومضمون رسالة الإسلام الخالدة، التي تَشَرَّفَ العربُ بحملها إلى كل البشر.

والأمة العربية التي قال عنها الباري عز وجل ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس﴾ لأنها أمّـة الوسطية والإعتدال ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، تستحق هذه الأمة، التي لها فضل المساهمة في إرساء دعائم الحضارية الإنسانية، تستحق أن تتبوأ مكانتها تحت شمس الحرية، وأن تنعم بالإستقرار والأمن، وأن تعيش بسلام وتتعايش مع الآخرين بمحبة واحترام، ولكن عليها أولاً أن تتخلص من أدران التطرف والتعصب والغلو، وأن تنبذ الإرهاب والتكفير، لأن جميع تلك التعابير والمسميات دخيلة على ثقافتها وغريبة عنها، ولا تنسجم مع روحها، ولا مع خطابها الذي يبدأ بالسلام وينتهي بالسلام، لأن السلام هو واحد من أسماء الله الحسنى.

والله من وراء القصد،

# الإسلام السياسي

# تَسْيِيسْ الدِّينْ، أمْ أدْلجَـة السِّياسَة ؟

# محاولة في فهم الإسلام السياسي

الإسلام السياسي ليس بالمصطلح الجديد، ولكنه برز مؤخرا بشكل متزايد وملحوظ، وهو ليس تُهمة لأحد، أو إنتقاصاً من شأنه، بل هو توصيف للجماعات والأحزاب الدينية التي تعمل في المجال السياسي، والتي هدفها المعلن أو الخفي هو الوثوب للسلطة، مستخدمةً في سبيل تحقيق أهدافها السياسية "الدينَ" كوسيلة وأداة، وأحيانا كغطاء، والهدف الثاني من نحت هذا المصطلح هو لتمييز الإسلام كدين عن الأحزاب التي تعمل تحت غطاء هذا الدين، بحيث ننأى بالدين عن الأغراض البشرية، ونحول دون تلويثه بأوحال السياسة.

فالأحزاب السياسية التي تُقحم الدين في شئون السياسة، وتزج بالسياسي في صُلب الدين، إنما تلحق الأذى والتشويه بالدين نفسه، بنفس القدر الذي تعجز فيه عن توظيف الدين لتطهير ذاتها وتبرئة ساحتها، ولهذا بات من الضروري التفريق بين الإسلام كدين حنيف يدعو للهداية والحق والعدالة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبين الأحزاب التي تتسربل بلبوس الدين وتسعى لتحقيق أهدافها بالتفجير والتكفير وتشويه الآخرين.

ولكن، حسب أدبيات "حزب التحرير" فإن عبارة (زج الدين في الصراع، وخلط ما هو ديني مع ما هو سياسي) عبارة مغلوطة، لأنها تعني (حسب حزب التحرير) فصل الدين عن الدولة والحياة، وهذا جوهر العلمانية، التي هي ليست من الإسلام، بل إن الإسلام يرفضها.. فالسياسة في الإسلام هي الدين؛ لأن السياسة هي رعاية شؤون الناس.[14]

---

[14] المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير، www.hizb-ut-tahrir.info/ar/

فإذا كانت السياسة بهذا المعنى؛ فإن انتقاد البلدية لعدم رصفها شارع تعد ممارسة سياسية، وانتقاد سياسات الدولة الخارجية أيضا سياسة، وطرح أي حلول للأزمة الاقتصادية أيضا سياسة، اقتراح مشاريع زراعية وبيئية سياسة، ومقاومة الاحتلال سياسة، ومكافحة الفساد سياسة، والاعتراض على شروط البنك الدولي سياسة، وتطبيق قانون الأحوال الشخصية ومناقشته سياسة.. وسن القوانين سياسة.. وهذه ممارسات لا تشترط على صاحبها أن يقوم بها بصفته إسلامي، بل بصفته مواطن..

وبداية، علينا أن نفرق أيضا بين الأحزاب الإسلامية نفسها، فليست كلها تؤمن بالعنف منهجاً، أو تلجأ للقتل وسيلةً، وللتكفير أسلوباً؛ بل هنالك أحزاباً إسلامية تؤمن بالحوار وتحترم الرأي الآخر، وتنبذ العنف وتمثل الإسلام بوجهه الحضاري المشرق المنفتح إلى حد ما.

كما أنه لا بد من التأكيد على أن خلافنا مع أحزاب الإسلام السياسي هو مع تلك التي تؤمن بالعنف، وليس مع تلك التي تؤمن بالحوار والتعددية، وجوهر الخلاف ليس في أهدافها في الوصول للسلطة، إذ أن ذلك هو هدف كل حزب سياسي، وهو هدف مشروع ولا خلاف عليه، بل خلافنا مع أسلوبها في التغطّي بالدين والإدعاء باحتكار الصواب، وعدم إحتمال أي خلاف مع الآخر، أي بمعنى آخر هو خلاف مع منطق الإستبداد والقمع والتكفير، وهو تعبيرٌ عن رفْضِنا للعنف والقتل ومصادرة حرية الإنسان، قبل مصادرة حياته نفسها.

وإذا اعتبر البعض أن ظاهرة الإسلام السياسي ظاهرة خطيرة، فإن الأخطر منها هو تجاهلها، أو فهمها بشكل متشنج، يخضع للأحكام المسبقة بأسلوب يدفع دارسيها بعيداً

عن الفهم العلمي لحقيقة الظاهرة، فيكتفون بانتقادها وتعداد مخاطرها ومساوئها.. وهو نهج مرفوض لأنه محكوم بهاجس الإقصاء، ومدفوع بالرغبة الجامحة في التفتيش عن أخطاء الآخرين وتضخيمها، وأحيانا اختلاقها، وهو نهج يخضع للرغبات الداخلية من خلال إسقاطها على الأحداث، وتفسيرها وفقا لرؤية مسبقة جاهزة لا تريد أن ترى في الآخر أي جانب إيجابي، وهو نهج يحاكم النوايا كمن يعلم بالغيب، ويشق على القلوب، وعادة ما يفترض الأسوأ ويفتش عن الجانب السلبي على الدوام.. وهو نفس النهج الذي تستخدمه الحركات الأصولية نفسها في مهاجمة خصومها.

إذن، ومن أجل فهم ظاهرة الإسـلام السياسي وفهم أسـبابها وتداعياتها، لابُدَّ من تسليط الضوء على خلفيات الظاهرة وأسبابها وتحليلها تاريخيا وسسيولوجيا بشكل موضوعي، بحيث نكون متحررين من الخلفيات الأيديولوجية والنـزعات التبريرية المسكونة بالعداء للقوى الإسلامية، لأن إلقاء تبعة العنف على عاتق الإسلاميين فقط وتحميلهم المسئولية لوحدهم، أمرٌ يفتقر للدقة وتعوزه الموضوعية[15]، فقد أنتج هذا النهج من الخطاب مصطلحات ومفاهيم مستعارة من قاموس الغرب لتوصيف القوى الإسلامية، مثل مصطلحات "التطرف والعنف الديني"، و"العنف الأصولي"، و"الإرهاب الإسلامي".. وصار الإعلام الغربي خاصة، يقرن ما بين الإسلام والجماعات الإسلامية، دون أن يفرق بين الجماعات التي تؤمن بالعنف وتمارسه، وبين الجماعات الإسلامية المعتدلة! وجرى في المقابل إغفال العوامل الخارجية التي ساهمت في ولادة هذا العنف وهذا الفكر المتطرف، وبشكل خاص الإرهاب الدولي الذي

[15] هالة مصطفى، «جماعات العنف السياسي في مصر» الحياة، الأعداد 10761، 10762.

تمارسه أمريكا وإسرائيل، وتتسامح إزائه دول الغرب عامة، كما تم تبرئة الدولة وأنظمة الحكم، والنخب السياسية (مدنية وعسكرية) من مسؤولية تصاعد العنف.

وفي هذا المجال يقول الكاتب "برير العبادي" في مقالته عن العنف السياسي بين الإسلاميين والدولة الحديثة، أنه يتوجب فهم البيئة الفكرية والمنطلقات العقائدية للجماعات الأصولية ودراسة العوامل الاقتصادية والاجتماعية المحفزة لتنامي قوة هذه الجماعات ومعرفة أهدافها النهائية، ومن الخطأ اللجوء لأسلوب التهجم والإنتقاد بحيث تختلط الحقائق مع الأوهام والوقائع مع الصور المتخيلة، وفي النهاية تضيع الحقيقة وسط دخان كثيف من الاستنتاجات المغلوطة والتبريرات المضللة التي سيطلقها الطرفان، فمن السهل القول بأن فلان إنتحاري وموتور ومضَلَّلْ.. ولكن مع ذلك لا بد أن نعرف ما الذي يدفعه لأن يقطع آلاف الأميال، ويتعرض للأهوال والمخاطر ليصل إلى سوق شعبي في بلد ليس بلده، وليخوض معركة ليست معركته ويفجر نفسه هناك!! فالموت ليس خيارا بسيطا يلجأ إليه الناس كل يوم، والقتل ليس قراراً سهلاً يمارسه الإنسان الطبيعي كما لو أنه يتناول وجبة طعامه! [16]

قد يكون بالفعل هؤلاء الناس من جماعات التكفير والتفجير متعصبون، ذوو عقول متحجرة وعقليات متخلفة، ويتبعون أيديولوجية فاشية، ولكن هنالك في الجانب المخفي، من يُصْدِر قرار العنف والمواجهة بتخطيط مسبق ومحكم، وعن يقين وقناعة

[16] برير العبادي، العنف السياسي بين الإسلاميين والدولة الحديثة، قراءة في الظاهرة، www.alwihda.com

راسخة، وهؤلاء من نمط مختلف ويتبعون بيئة مختلفة عن أولئك الذين يسوقونهم للموت، ومختلفين عنهم في الأهداف والمنطلقات، ويفوقونهم ذكاءً وقسوة. [17]

الفئة الأولى هم في أحسن الاحوال عقائديون متزمتون، أو مثاليون طوباويون ذوو مشروع خيالي في معالمه الأساسية والعامة، أو مغفلون ضلّلوا الطريق، وزاغت بهم الأبصار، أو فهموا النصوص الشرعية بطريقة غير صحيحة، أو متسرعون لتحقيق أهدافهم السياسية والاجتماعية، أو مندفعون للحد الأقصى بردود أفعالهم على عنف الدولة وعلى الظلم الموجه ضدهم، وهم في نفس الوقت مغامرون تراودهم أحلام النصر السريع، وقد يكونون عصابات و"زعران"، أو مرضى مصابون بداء الإغتراب، وعصابيون لا يستطيعون التعايش مع واقعهم والانسجام مع خط الحضارة المتصاعد، قد يكونون أي من هؤلاء أو كلهم.. ولكن قياداتهم شيء مختلف تماما، إنهم أناس مدركون لأهدافهم، ويعملون على تحقيقها بكل الأساليب وبشتى السبل، دون أدنى اعتبار للقيم التي يتغنون بها، ولا بالمثل التي يضللون بها أتباعهم، إنهم يحملون مشروعا يَعُونَهُ جيدا ويعملون عليه ليل نهار.

وسنتعرف في سياق هذه الدراسة على الحاضنة الفكرية لهذا المشروع وتفريخاتها واشتقاقاتها، وتنوع أساليبها ورؤاها بين المعتدلين والمتشددين والأكثر تشددا، وبين من يريدون دولة دينية ثيوقراطية، ومن يريدون دولة إسلامية سياسية، وبين يعملون من خلال البرلمانات والانتخابات، ومن يعملون من خلال التفجير والتكفير، لنصل في النهاية إلى خلاصة أولية مفادها أن الفرق بين معظم الحركات والجماعات الإسلاموية

---

[17] سمير نعيم أحمد، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الاولى 1990، ص 215 ~ 219.

هو في الكم والأسلوب واختيار التوقيت، أما الأهداف العامة فهي سيان، وتلتقي في محاربة مشروع الحداثة والديمقراطية والعلمانية، وإجهاض محاولات التحرر من سطوة النصوص وقداسة رجال الدين.

فأغلبية هذه القوى تسعى في النهاية إلى إقامة دولة إسلامية ثيوقراطية، يتمتع فيها "الخليفة" بمزايا لا يحوزها أي رئيس آخر في أي نظام دستوري ديمقراطي، فالمكانة التي يحظى بها رأس الدولة تعفيه من أي مساءلة؛ بل تحرّم الخروج عليه طالما أنه يطبق الشريعة، والتي قد يكون تطبيقها مجرد مراعاة لبعض الشكليات، ومحافظة على الطقوس الدينية. كما تسعى هذه القوى إلى أسلمة المجتمع من خلال فرض أنماط اجتماعية معينة عليه، هي في أغلبها شكلانية تمثل جوهراً للدين البديل الذي تعمل على خلقه بوعي وبدون وعي، أي الدين الموازي لجوهر الإسلام الحقيقي بمضامينه الحضارية التقدمية المرنة المتصالحة مع فطرة الإنسان، بحيث يكون هذا الدين البديل مجرد إطار شكلي يحقق للجماعات الأصولية أهدافها في الوصول للسلطة، ومن ثم تثبيتها بسطوة رجال الدين أنفسهم وقداسة النصوص التي يحتكرون تفسيرها.

ومن هنا، يمكن القول أن قوى الإسلام السياسي ليست على شاكلة واحدة، وهي تختلف عن بعضها وتتباين في الرؤى والأسلوب ودرجة الإعتدال أو التطرف، ويلعب الجانب الفكري دورا أساسيا في تحديد التمايزات بينها، إلى جانب معايير أخرى يمكن أن تفيدنا في تصنيف تلك القوى مثل الأصول الاجتماعية أو تصوراتها السياسية أو أساليبها الحركية[18]، فمنها ما يعتمد على تربية النشئ وفق المنهج الإسلامي وتهيئة

[18] صلاح عبد العاطي، العلمانية والأصولية في المجتمع العربي، مركز رام الله لدراسات حقوق الإنسان، ط1، 2008، ص 68.

المجتمع لتقبل فكرها، وتعتمد لتحقيق ذلك أسلوب العمل الاجتماعي والجمعيات الخيرية والمدارس ورياض الأطفال والمساجد، إلى جانب العمل الإعلامي والدعوي، بينما ترى جماعات أخرى أن الأولوية للجهاد (مقاومة الاحتلال، محاربة أمريكا أو روسيا، مقاومة الأنظمة السياسية) وهي ترى في هذا الترتيب الأسلوب الأنجع في تحقيق ما تريده الجماعات من النوع الأول، أي من خلال إستقطاب التأييد الشعبي لنهجها.

وهنالك الأحزاب التي تنتهج العمل السياسي وتشارك في الانتخابات وأحيانا في الحكومات، ولديها قدر معين من البراغماتية والمرونة، بينما على النقيض منها ستجد الجماعات التي حشرت نفسها في بوتقة ضيقة من الشعارات والأيديولوجيات المنغلقة التي تتسع لكل بلاغات الخطابة ولا تتسع لأية مناورة سياسية، وقد اقتصرت أعمالها على العنف بأشكاله المختلفة.

على كل حال، تتفق أغلبية أحزاب الإسلام السياسي على طرح منظومة فكرية دينية شمولية تعتقد أنها متكاملة ومطلقة وتصلح لحل كافة القضايا، ويتفرع منها نظريات اقتصادية واجتماعية وسياسية تؤدي في النهاية إلى أسلمة كل ما هو في طريقها، وتختصر هذه المنظومة الشاملة بشعارات عمومية مثل: "الإسلام هو الحل" و "وتطبيق الشريعة"، و "الحاكمية لله"، و "تنصيب الخليفة"، "القرآن دستورنا".

وهي شعارات دوغمائية لأنها عمومية وسطحية وضبابية، ولا تتضمن تفصيلات ولا آليات عمل، وهي ترتكز على فكرة غير دقيقة، مفادها أن المسلمين كانوا موحدين وأقوياء في ظل دولة الخلافة، وهو تصور لا تاريخي وغير علمي، وتُكَذِّبُهُ الإنقسامات

والإنشقاقات والحروب الداخلية والإغتيالات والمؤامرات للإستيلاء على السلطة، إلى جانب صراع الدويلات والطوائف والإمارات والممالك الإسلامية طوال الفترة التي يسميها الإسلامويون "فترة الخلافة"، وحتى احتلال أراض إسلامية من قبل الدول الاستعمارية، كما حدث في عهد الخلافة العثمانية..

ومن الناحية الفكرية سنجد أن موضوع "تطبيق الشريعة" ليس موضع إجماع بين الحركات الإسلامية خاصة من حيث الأسلوب، حيث أن كل حركة تسعى لتطبيق الشريعة وفق فهمها الخاص، وأبرز مثال على ذلك أن حزب التحرير الإسلامي يرفض منهج جميع النماذج الإسلامية الأخرى، وخاصة نموذج الإخوان، ويرى أن "تطبيق الشريعة وتحكيم الإسلام لا يصلح إلا في ظل دولة إسلامية، ويعني – حسب أدبياتها – أن تطبيق الشريعة معناه أن يكون للمسلمين جميعاً دولة واحدة وخليفة واحد، ويعني تطبيقها الانعتاق من التبعية الغربية ونبذ المؤسسات الدولية والإقليمية الاستعمارية كالأمم المتحدة والجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، كما يرفض الحزب أي تدرج في تطبيق الشريعة، ويصر على أنه يجب أن يتم دفعة واحدة، بغض النظر عن الظروف المحيطة"[19]. بينما يتخذ الإخوان موقفا مغايرا: التدرج في تطبيق الشريعة، الاعتراف بالشرعية الدولية والمنظمات الدولية والتعاون معها، التعايش مع الأنظمة غير الإسلامية..

والموقف السلبي والمعادي للمنظمات الدولية لا ينفرد به حزب التحرير، فكثير من الحركات الإسلامية تعتبر أن كل مؤسسة أو منظمة إقليمية أو دولية بغض النظر عن

[19] علاء أبو صالح/ عضو المكتب الإعلامي لحزب التحرير، تطبيق الشريعة، الموقع الرسمي لحزب التحرير.

مجال عملها، طالما أنها لا تتبع "نهج الإسلام" فهي إما كافرة أو متآمرة على الإسلام، وفي أحسن الأحوال تعتبرها هيئات علمانية يتوجب الحذر منها!

وفي بعض جوانب أيديولوجيا الإسلام السياسي بشكلها الحالي، سنجد أنها مناهضة للديمقراطية ومعرقلة للتطور، ليس لأنها ضبابية ودوغمائية وحسب، بل لأنها تعترف صراحة في كثير من أدبياتها بأنها ترفض فكرة الحداثة والدولة المدنية، ولا تقر بالديمقراطية وتعتبرها بضاعة غربية، أما مبدأ الشورى التي تدعي أنه البديل الإسلامي للديمقراطية فهو مختلف في كثير من أوجهه عن الديمقراطية لأنه مقيد بتحريم الإبداع، ومقيد بالنصوص، وهو لا يغدو عن كونه شكلا من الإستشارة التي وجدت في مجتمعات ما قبل الحداثة[20]، وأما شعار "القرآن دستورنا" فهو يعني استبدال الدستور الوضعي الذي صاغه البشر وتوافقوا عليه وضمّنوه التفصيلات اللازمة والشروحات والآليات المحددة التي تلائم بيئاتهم، بينما القرآن الكريم لا يتضمن تلك التفصيلات، وفيه الكثير من العموميات التي تجعل منه "حمّال أوجه"، كما قال عنه الإمام علي بن إبي طالب، وبالتالي لا توجد ضمانات أكيدة بأن الحاكم سيكون مطلق اليدين فيما يريد ويشتهي، خاصة إذا ضمن بطانة من وعاظ السلاطين تجيز له كل شيء، وتفتي له بما يريد.

والكثير من حركات الإسلام السياسي الأصولي أيضا لا تؤمن بالقومية العربية وتصفها بالمقيتة والنتنة، ولا تؤمن بالنـزعة الوطنية وتعتبرها غريزة حيوانية، وتحارب العلمانية بوصفها لها شكلا من الكفر والتعدي على الدين، ولا تنظر للمسيحيين وللطوائف

---

[20] نفس المصدر السابق.

الأخرى كمواطنين، بل كذميين يتوجب عليهم دفع الجزية، وتروح أحزابٌ أخرى إلى نهاية المدى فتُحَرِّم الحرية، بل وتحرم ترديد هذه المصطلحات أو حتى النطق بها! [21]

وبعض جوانب الأيديولوجيا التي يحملها هذا المشروع متزمتة ومنغلقة ومتأثرة بشكل كبير بالفكر السلفي النجدي (الوهابي)، وليس خافيا على أحد أن الأحزاب التي تعمل على نشر وبث هذا الفكر السلفي إنما تعمل بحماية وتشجيع بعض الدول النفطية، لتحقيق أهداف سياسية ودعائية معينة لها، في حين تتلقى قوى أخرى الدعم من إيران.

والهدف النهائي لمعظم أحزاب الإسلام السياسي هو الوصول للسلطة[22]، سواء تحت مسمى إقامة دولة إسلامية، أو تنصيب الخليفة، أو أسلمة المجتمع، وبغض النظر عن أسلوبها سواء كان يعتمد الإنقلاب، أو العمل الدعوي السلمي، أو كان بالعنف والتفجير، وهذه الأحزاب في حقيقتها تمثل مشاريع تفكيكية للدولة الوطنية المعاصرة؛ فهي في سعيها لتحقيق هذه الهدف من خلال أسلمة المجتمع وإنشاء أي كيان سياسي طائفي خاص بها، حتى لو كان دويلة أو إمارة لن تبالي بالوحدة الوطنية ولن تأبه للدولة الوطنية الواحدة، وهي لن تتورع عن البطش بخصومها والإستقواء بالقوى الخارجية التي توفر لها الدعم والتمويل والمساندة السياسية، من أجل مساعدتها على الإنفراد بالسلطة مقابل استمرار مصالح تلك القوى في المنطقة، والأمثلة على ذلك واضحة وكثيرة، وأبرزها إمارة حماس في غزة، وحزب الله في الضاحية الجنوبية، والحوثيين في اليمن، والمحاكم الإسلامية في الصومال، ودويلة العراق الإسلامية في الأنبار (داعش

[21] أنظر أدبيات حزب التحرير، كتاب الحرية، الديموقراطية. www.hizb-ut-tahrir.info/ar

[22] د. سعادة الخطيب، الإسلام السياسي بين الأيديولوجيا والبراغماتية، أوراق فلسطينية العدد 2، صيف 2008، ص 60.

فيما بعد)، والطالبان في أفغانستان، والجماعات الدينية في الجزائر وليبيا والباكستان الساعية لتكوين دويلات دينية.[23]

والسلطة التي يسعون لها ستكون في النهاية حكما ثيوقراطيا استبداديا ليس فيه مكانة لحرية الرأي، ولا حق الاختلاف، ولا للتعددية وتداول السلطة.. وإن أظهرت بعض التسامح مع القوى والشرائح الاجتماعية الأخرى، فهو التسامح الذي يبادر إليه الأعلى للأدنى كممارسة إحسانية أكثر منها إنسانية، أي أنها تستند في تسامحها على كونها الأكثر معرفة ممن تتسامح معه[24]، وهذا الشكل من التسامح هو بديل عن المساواة التي في ظلها لا يدعي أحد احتكار الحقيقة. وسيكون لرجالات الدولة ووعاظها قداسة وسطوة تعيد للأذهان حقبة غابرة من الزمن تولى خلالها رجال الكنيسة مقاليد الحكم في أوروبا، واعتبروا أنفسهم آنذاك مفوضين إلهيا بالحكم، وكان لهم دورا كبيرا في نشر الإقطاع والتخلف والعبودية، وجر شعوبهم إلى الضياع والجهالة لقرون طويلة (هيئة الأمر بالمعروف السعودية مثالا واضحا على ذلك)، ومنطق التاريخ يؤكد على أن فساد رجال الدين أخطر بكثير من فساد رجال السياسة على مسيرة تطور الشعوب، ذلك لأن رجال الدين لهم سطوة وهيبة وقداسة وتأثير أكبر وأشد من تأثير رجال السياسة على عقول الناس وتحديد ميولهم واتجاهاتهم.[25]

والمنهج الذي تتبعه أحزاب بعض قوى الإسلام السياسي في فهم التاريخ وتعاطيها مع الحاضر، يتناقض مع منطق الطبيعة ونواميس الكون، ويتنافى مع قوانين التطور

---

[23] عبد الحميد الأنصاري، الحركات الإسلامية وتفكيك الدول، جريدة الأيام الفلسطينية العدد 4618، 23-11-2008، نقلا عن صحيفة الإتحاد.

[24] أدونيس، الكتاب الخطاب الحجاب، دار الآداب، بيروت، ط1، 2008، ص 20.

[25] مأمون سويدان، الانقلاب العسكري في غزة بين الدين والسياسة، أوراق فلسطينية، العدد 2، صيف 2008، ص 95.

الطبيعي، ويفتقر للبُعد الاجتماعي السسيولوجي، فهي قامت بتطويع قراءة انتقائية للنصوص وبفهم مثالي لأحداث التاريخ، ثم أقامت لنفسها بنيانا خاصا للفقه واعتبرته رافعة أيديولوجية لنشر دعوتها[26]، والمطب المعرفي الذي وقعت فيه، هو لأنها لم تقرأ مراحل التاريخ كسياق متصل ومتراكم وصاعد دوما نحو الأعلى، ويسير بحركة دائمة للأمام، فحركة التاريخ التي لا تخلو من المنعطفات الكبرى والمفاصل الهامة، لا يوجد فيها حالة جامدة متوقفة عند مرحلة معينة، بحيث تكون منعزلة عن بيئتها، وغير متواصلة مع مراحل سابقة أو تالية لها، كما هو الحال في فهم أحزاب اليوم لمرحلة صدر الإسلام، كما لو أنها فترة معلقة في فضاء الزمن، وثابتة ومطلقة، ويمكن نسخها وتكرارها في أي وقت وأي مكان، دون الأخذ بعين الاعتبار المتغيرات الهائلة للتي حصلت خلال كل تلك السنين، أو فهم خصوصية تلك المرحلة.

وبتحليل منهجية أحزاب الإسلام السياسي، نجد أنها تُقلص العالم إلى ثنائية قاطعة بين ما هو حق وباطل، وبين من هو مؤمن وكافر، وتنظر للقضايا السياسية والمدنية بمعيار الحلال والحرام، لا بمعيار الصح والخطأ، أو الجمال والقبح، أو اختيار التوقيت والمكان، أو بأي معيار نسبي بشري آخر.. فمعيار الحلال والحرام والحق والباطل هو معيار مطلق لا يصلح للسياسة، ولهذا فإن إقحام الدين معترك السياسة سيضر بالأمرين معاً، والتعامل بالسياسة بأدوات الدين يضعف المساحة السياسية لأصغر حد، إذ أن السياسة هي فن الممكن وفن خلق البدائل، بينما الأدوات الدينية مطلقة ربانية لا تحتمل الخطأ ولا يوجد لها بدائل.

---

[26] د. سعادة الخطيب، الإسلام السياسي بين الأيديولوجيا والبراغماتية، أوراق فلسطينية العدد 2، صيف 2008، ص 65.

ولا يكفي أن ننتقد هذا المشروع، ولا يجوز أن نكتفي بفهم أسبابه وملابساته، ثم نتوقف عند الإطار النظري للقضية، بحيث نظل معلقين في فضاء المثاليات، دون أن نتقدم خطوة للأمام، فالمعركة إبتدأتها تلك الجماعات، وهي تمارسها فعلا بلا رحمة ولا شفقة، وتداعياتها ستكون وبالاً على الكل ما لم يستفق ويصحو وينطلق، ولكن دون أن نقع في خطأ تلك الجماعات ونمارس أساليبها الفاشية والعنفية، بل ينبغي أن نخوض المعركة بالحوار، بروحنا الإنسانية وعقليتنا المرنة، وبأدواتنا الحضارية، وأساليبنا السلمية، لنعيش جميعا في أجواء منفتحة وأكثر إنسانية.

ما سبق يتعلق بحركات الإسلام السياسي؛ أما الإسلام، فقد كان دائماً ملاذ الأُمّة حينما يشتد عليها الكرب، وتتعقد الأزمة.. كما هو الدين ملاذٌ للإنسان في حالات الفزع والضيق، ولكن الإسلام الذي تلجأ إليه الأمة هو الإسلام بالمعنى السياسي الاجتماعي، قبل أن يكون بالمعنى الفقهي والشعائري، الإسلام الذي يجد فيه الناس الملجأ والأمان والأمل حتى لو كان بتمنيات حالمة وبأفكار غيبية بسيطة، لكن هذا الإسلام صار على يد الجماعات الأصولية السيف الذي ترفعه في وجه الانظمة المستبدة تارةً، ثم في وجه الجماهير تارةً أخرى، وذلك حسب ما تقتضيه مصلحتها.

# عوامل ظهور الإسلام السياسي

ظاهرة الإسلام السياسي من الظواهر الهامة والمؤثرة التي برزت بشكل واضح في أواخر القرن العشرين، وتحديدا مع انتصار ثورة الخميني في إيران، حيث لعبت صورة سقوط الشاه المدوية بكل جبروته "وسافاكه"[27] تحت أقدام إرادة الجماهير الشعبية، التي كانت تحمل إلى جانب سخطها على فساد النظام مشاعرَ دينية مكبوتة، جاء الإمامُ ليطلق ماردَها من قمقمٍ ظلّتْ مختبئةً فيه لزمنٍ طويل، بعد أن إبتدع "ولاية الفقيه"[28] بدلا من إنتظار المهدي، وهكذا انتقل الإسلام السياسي (بطبعتيه السنية والشيعية) دفعة واحدة من الهامش إلى المتن ليتصدر الصورة، وبذلك تم تدشين عصر جديد يحلو لمنظّري الإسلام السياسي تسميته بعصر الصحوة الإسلامية، سيكون لإيران والسعودية في هذا العهد الجديد دورا بارزا، ما زال يؤثر على واقعنا السياسي حتى اللحظة.

في نفس عام الثورة إندلعت أعمال العنف في أفغانستان، البعض سمّاها ثورة إسلامية والبعض وصفها بالحرب الأهلية، وأياً كانت التسمية فإن تأثيرها على الشباب المسلم من جاكارتا حتى الرباط كان تأثيرا بالغ الأهمية، إذ لعبت دور المهيّج لعواطفهم، والمداعب لأحلامهم في النصر والشهادة والإنتقام من "الكفار"، وكانت عنصرا إضافيا لإطلاق المشاعر الدينية لدى الجماهير العربية، ترافقت مع أحداث سياسية وقعت في المنطقة، كانت في معظمها تشكل زخما إضافيا يزكي العواطف الدينية، ويمهد لتأسيس ما سيعرف لاحقا بالجماعات الأصولية، أو بالإسلام السياسي.

---

[27] السافاك هو جهاز المخابرات الإيراني في زمن الشاه الذي اتسم بالعنف والقسوة والدموية.

[28] ولاية الفقيه هي الفلسفة التي أطلقها الخميني والتي على أساسها قامت الثورة الإيرانية عام 1979.

يمكن القول أن قوى الإسلام السياسي كانت منذ بداياتها حركات سياسية اجتماعية تعاني القهر، وتكابد الظلم، وتبحث عن فرصتها في التعبير عن ذاتها، ولكن مع إضطهادها، وخنق صوتها وإضعافه لدرجة أنّه أصبح غير مسموع، ومع إغلاق أبواب الأمل وانعدام فرص التغيير بالطرق السلمية، ومع تفشي العنف والإستبداد والقمع السلطوي، ومع توالي الهزائم والإنكسارات وسقوط النماذج الكبرى، تولّدَ العنف المضاد، واكتملت دورة العنف السياسي لتهيمن على الحياة العامة، ولتأتي النتائج المدمرة على أكثر من صعيد.

ومع أن عنف الجماعات الإصولية ظهر كتصادم عنيف بين السلطة الحاكمة والقوى المعارضة، وأن أسباب الصراع كانت بداية اجتماعية وسياسية محلية، إلا أن هذا الصراع تسرب إلى خارج الحدود الإقليمية والدولية، وصارت له مرجعياته السياسية والدينية الخاصة، وصار يغذيه خطاب أيديولوجي عقائدي، وتتحكم في مجرياته مراكز القرار البعيدة عن مواطن الصراع، وصارت حيثياته وسياقاته بعيدة عما بدأت به، ومختلفة في رؤية ما ستصل إليه، وصارت ولاءات تلك الجماعات عابرة للحدود ومتناقضة مع القواسم الوطنية الجامعة، فإذا كانت الجماعات الأصولية لها برامج وأجندات إقليمية وعالمية، فإنه في الجهة المقابلة أدت العولمة من ضمن ما أدت إليه إلى عولمة الأصولية ذاتها، من خلال عولمة الحرب على الإرهاب، وفي النتيجة صارت الأصولية ظاهرة محلية ذات تأثيرات عالمية، تفرض حضورها على الخارطة السياسية الدولية.

ففي البداية لعبت مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية دورا هاما في خلق البيئات الملائمة لتكوّن الجماعات الأصولية بخطابها المتشدد، ومنها استبداد النظم

السياسية وغياب المشاركة الشعبية، التي أدت إلى حرمان القوى السياسية (ومن ضمنها الإسلامية) من حرية العمل والتعبير، سيما أنه لا توجد مؤسسات موثوقة من قبل الجماعات السياسية لتوصل صوتها إلى السلطة، ومع اعتماد الدولة أساليب قهرية في تعاملها مع المواطنين كالتعذيب والاغتيالات والسجون، وبسبب انسداد آفاق التغيير وسيادة الإحباط واليأس من إمكانية تغيير السلطة أو تداولها بطريقة سلمية، كنتيجة لغياب الحوار الوطني، وعدم وجود إجماع وطني حول القضايا الأساسية والمصيرية.

وهذه الأسباب لم تتكون صدفة، بل هي نتاج طبيعي لسياسة النظم الاستبدادية التي ليس لها أي مصلحة بالديمقراطية، ولا تؤمن بالمشاركة الشعبية، وبالتالي فهي أسباب مرتبطة عضويا بطبيعة النظم العربية وتركيبتها ودورها الوظيفي المنوط بها، ناهيك عن غياب العدالة الاجتماعية وتزايد التفاوت الطبقي، وعجز الدولة عن تلبية الحاجات الأساسية للمواطن، كالعمل والتعليم والإسكان والعلاج، وإخفاق خطط التنمية، وتفشي الفساد، واحتكار السلطة ومقربيها للثروة والفعاليات الاقتصادية.

في ظل الأوضاع التي أشرنا إليها ستظهر القوى المهمشة التي تعيش الاغتراب والإهمال، وتشعر بعدم اكتراث السلطة لمصيرها ومستقبلها، وسيستشري الفساد الأخلاقي والقيمي، ومع عجز الدولة عن استيعاب واحتواء القوى الاجتماعية الجديدة، وعجز وإخفاق المشروع الوطني، أو القومي، أو الإسلامي الحضاري الذي يحظى بالشرعية والاجماع ويحقق الطموحات ويزرع الأمل في النفوس، ستكون كل الظروف قد تهيأت، والمسرح قد أُعد لاستقبال اللاعب الجديد.

وليس مصادفة بأن تركز جماعات الإسلام السياسي في استقطابها على الشباب الساخط والمحطم والمهمش في رفع رايتها تحت راية الإسلام ومختبئة في ظله؛ فالشباب هم الوقود الحيوي لهذه الجماعات الذين يسهل قيادتهم وتوجيههم، خاصة بعد أن وصلوا إلى مرحلة تستوي فيها الحياة والموت في نظرهم.

ومن هنا نستطيع القول بأن بذرة العنف بدأت في أحضان النظم الاستبدادية والقمعية – وأحيانا بتشجيع منها – ونَمَتْ مع الخيبات والهزائم التي منيت بها الأمة، وكبرت مع الأزمات السياسية والاجتماعية، وقد رعتها دول وجماعات وقيادات تحمل مشروعا أمميا صار يعرف باسم مشروع الإسلام السياسي، الذي له أهدافا وغايات تختلف كليا عن المضمون الذي يحمله مشروع النهضة والحداثة القومي الوطني التقدمي.

ومن شبه المؤكد أنه لولا التراجعات، والأخطاء الكبرى، والإخفاقات، والسياسات غير المدروسة، والتكتيكات المتسرعة، والمغامرات غير المحسوبة، والاستراتيجيات التي ليس لها أفق، التي وقعت بها ومارستها قيادات ورموز المشروع القومي، ربما لنجح مشروعها التقدمي، وبالتالي كنا سنتناول الإسلام السياسي الآن كجزء من التاريخ، وليس كمحرك أساسي له كما هو الحال اليوم.

هذا المشروع القومي/ الوطني، الذي بدأ أواخر القرن التاسع عشر على يد رواد النهضة العربية، والذي تواصل على امتداد الأرض العربية، وخاض خلال أكثر من قرن المعارك والثورات في مواجهة الاستعمار وأدواته، وتعمّدَ بدماء الشهداء وتضحيات الجماهير الشعبية، يحْمِلُ في طياته مشروع الحداثة والتنوير (أو على الأقل نأمل ذلك)، ويسعى لترسيخ أسس الدولة الديمقراطية المدنية الحديثة، بمحتواها التقدمي والتحرري

التعددي، الذي يضمن حقوق الإنسان واحترام إنسانيته، ويناضل لإرساء دعائم مجتمع حضاري تتعايش فيه الطوائف دون تعصب ودون كراهية، وتتعايش فيه الطبقات دون استغلال لبعضها البعض، وتتحقق فيه العدالة الاجتماعية في توزيع الثروة وتقاسمها، وتداول السلطة السلمي، ويسعى هذا المشروع لبناء المستقبل بعقلية منفتحة على العالم، ومنسجمة مع الحضارة الإنسانية، ومتصالحة مع إرثه الثقافي والفكري.

هذا المشروع يقف اليوم على النقيض المباشر في مواجهة مشروع آخر تمثله قوى رجعية ترتبط بالماضي أكثر من إرتباطها بالحاضر (أو على الأقل نخشى أن تكون كذلك)، وتسعى لإرساء دعائم مشروع أممي يتجاوز حدود الجغرافيا والقارات، ويقوم فكر هذا المشروع على مبدأ الولاء والبراء ومعاداة كل ما لا يشبهها، والتصادم مع كل من يختلف معها. والمقصود بتلك القوى الرجعية التنظيمات المتشددة، وفي مقدمتها "القاعدة"، وتفريخاتها..

هذا المشروع بدأت إرهاصاته الفكرية منذ أيام الشيخ إبن تيمية (1263 ~ 1328 م) وإبن قيم الجوزية (1292 ~ 1349 م) وتبلور على يد الشيخ النجدي محمد إبن عبد الوهاب (1703 ~ 1791 م) ومن بعده بنيه، ثم على يـد أبو الأعـلى المودودي (1903 ~ 1979 م)، وسيد قطب (1906 ~ 1966 م)، حتى تلقّفه شكري مصطفى وصالح سرية، ثم أمراء الجماعات الجهادية في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، وأخيرا الطالبان والظواهري وتنظيم القاعدة، وجماعات داعش والنصرة.

وهنالك رأي آخر، مفاده أن أركان الأصولية في المجتمع العربي ظهرت مع تفكك الدولة العثمانية ومع تصاعد حركة التحدي الأوروبي[29]، وأنها جاءت كردة فعل، ولملء الفراغ الذي خلّفه أفول الدولة التركية ومؤسسة الخلافة، وقد جاءت ردة الفعل هذه تحديدا من الحركات السنية السلفية، وكان أبرزها وأهمها الحركة الوهابية في السعودية، وهي التي تركت أثرا مهما ما يزال لاعبا محركا حتى اليوم، في حين أن حركة الأمير عبد القادر الجزائري (1832 ~ 1847 م) وكذلك الحركة المهدية في السودان (1881 ~ 1898 م) والحركة السنوسية في ليبيا (1912 ~ 1925 م) كانت جميعها ذات تأثير أضعف وأقل، ولم تترك أثرا فكريا يُذكر.

وللوصول لفهم أعمق للإسلام السياسي، يتوجب بدايةً قراءة التحوّلات الاجتماعية والثقافية التي طرأت على المنطقة خلال الفترة التي سبقت ورافقت ظهوره، وتحليل نوعيات الناس التي شكلت الظاهرة وكانت وقودها؛ فإذا كان من الصعب العثور على أطباء ومحامين ومهندسين ومثقفين من بين أعضاء الجماعات المتطرفة، وإذا وُجدوا فهم أقلية وُجدت بشكل عارض ضمن سياقات أخرى مختلفة، فإنه في المقابل يسهل العثور على شبان عاطلين عن العمل، ويفتقدون الأمل، ويواجهون أفقا مسدوداً في مدن تعج بالظلم والقهر الاجتماعي، وهؤلاء قبل أن ينتموا لتلك الجماعات، هم أساسا من يمكن وصفهم حسب الأدبيات الماركسية، بالبروليتاريا الرثة، بالرغم من أن هذا المصطلح نفسه بات بحاجة إلى مراجعة وإعادة تعريف، فالتكوين الطبقي للمدن والبلدات

[29] صلاح عبد العاطي، العلمانية والأصولية في المجتمع العربي، مركز رام الله لدراسات حقوق الإنسان، ط1، 2008، ص 54.

العربية في الزمن الذهبي للماركسية يختلف عمّا هو عليه الحال اليوم، وهو بالأساس مختلف مع طبيعة المدن الأوروبية في زمن نحت المصطلح نفسه.[30]

وكأمثلة على هذه التحولات: تآكل الطبقة الوسطى وهبوط شرائح كبيرة منها إلى أسفل خط الفقر، وتضخم بيروقراطية الدولة، وتوّسع اقتصاد الخدمات، وظهور اقتصادات طفيلية موازية، وتلاشي الفلاّحين كطبقة ذات خصائص اقتصادية واجتماعية وثقافية ثابتة، إضافة إلى الانفجار السكاني الهائل، هذه كله أدى إلى خلق وتكوين شرائح اجتماعية جديدة، سماتها الواضحة أنها فقيرة ومهمشة، وتفتقر إلى ملامح أو تقاليد طبقية ثابتة، لكنها تمثل الغالبية العظمى من سكّان المدن. [31]

وهؤلاء، بالتحديد، هم أقل الفئات الاجتماعية استفادةً من خدمات الدولة، وهم الأقل حظاً، فإمكانية تحسين ظروفهم المعاشية تكاد تكون معدومة، ولا توجد لديهم فرصة حقيقية للخروج من مهانة الفقر ومخاطر الجهل والمرض، وليس في جعبتهم ما يكفي من المؤهلات لمجابهة النخب السائدة، وكسر احتكارها للسلطة والثروة، لذلك سيكونون هم القاعد الشعبية التي ستمد الحركات المتطرفة بحاجتها من البشر.[32]

وما يدل على خطورة هذه التحولات التي أنتجت ما يُسمى بالحركات الأصولية أو الإسلام السياسي، هو أنها مكنتها من التكاثر بشكل بات خارج عن السيطرة، فقد كانت الحركات الدينية الميالة للعنف قبل عام 1980 لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، وخلال عقد الثمانينات تضاعف العدد ثلاثة مرات، ومع أواسط التسعينات

[30] حسن خضر، نقطة ضوء، جريدة الأيام الفلسطينية، 24-11-2009.

[31] حسن خضر، المصدر نفسه.

[32] حسن خضر، المصدر نفسه.

نما العدد ليربو إلى نحو ستة وعشرون منظمة وحركة جهادية تؤمن بالعنف وتمارسه فعليا.[33]

وفي نفس السياق، وحسب وجهة النظر التي تحدد نهاية السبعينيات من القرن الماضي نقطة تحول مفصلية أفضت لظهور الإسلام السياسي بقوة، وتحديدا في السعودية، حدد الكاتب والروائي "تركي الحمد" العام 1979 عاما مفصليا في تاريخ السعودية، موعزا ذلك لتزامن ثلاثة أحداث وقعت ذلك العام، أثرت على المنطقة سياسيا واجتماعيا؛ أولها الثورة الإيرانية، وثانيها الغزو السوفييتي لأفغانستان، وثالثها اقتحام "جهيمان العتيبي" للحرم المكي. معتبرا أن هذه العوامل حفّزت انطلاقة ما عُرف بالصحوة الدينية..[34] حيث أدت الثورة الإيرانية إلى تأجيج الصراع السعودي/الإيراني؛ الدولتان اللتان تعتمدان الدين أساسا لنظاميهما، ما دفعهما لتشجيع الخطاب السياسي الديني والإتكاء عليه؛ السعودية دعمت المؤسسات الدعوية في الخارج، ودعمت الإسلاميين في الداخل، أما إيران، فأعلنت تصدير الثورة. في حين دفع الغزو السوفييتي لأفغانستان آلاف الشبان العرب (ومنهم سعوديون) للإلتحاق بِ"الجهاد الأفغاني".. ولكن، ماذا بشأن اقتحام جهيمان للحرم المكي، ومدى تأثيره في المجتمع السعودي؟!

يرى "الحمد" أن المجتمع السعودي قبل ظهور جهيمان، كان منفتحا متسامحاً، ولم يكن بهذا الشكل من التعصب والانغلاق، ولم يكن حادًّا في قضية المرأة والاختلاط والفصل بين الجنسين، كما كان متقبلا لحرية الآخر الدينية والتنوع الطائفي، وكان الناس يمارسون

[33] فالح عبد الجبار، استشراء العنف الأصولي، جريدة الحياة، 24-7-2005، ص 14.

[34] تركي الحمد، المجتمع السعودي يتخلص من آثار جهيمان، مجلة المجلة، 21-11-2009، http://cutt.us/2V0bt

حياتهم وفق تعاليم الإسلام السمحة، دون أيديولوجيا إسلاموية تُحمّل الدين ما لا يحتمل.. وليس "الحمد" وحه من يحمل هذه الفكرة؛ كتّاب كثيرون روجوا لها..

فإلى أي مدى كان المجتمع السعودي منفتحا؟ ومن هو جهيمان؟ وهل فعلا أثر في المجتمع إلى هذه الدرجة؟

إذا كانت التغيرات الاجتماعية والسياسية التي أسموها "الصحوة الدينية" قد بدأت تظهر بوضوح أشد في السعودية ابتداءً من الثمانينات؛ فإنه من السطحية إرجاعها إلى حادثة جهيمان (1979)، وإغفال بقية العوامل.. فمن جهة، لم تكن ظاهرة جهيمان قطعا تاريخيا عما سبق، ولم تنبثق فجأة من العدم، وكل ما تحمله من معتقدات وقيم وأفكار هي أصلا موجودة، بدرجة أو بأخرى، بل وتضرب جذورها عميقا في الموروث الثقافي والاجتماعي السعودي. كما أن الصحوة الدينية كانت أكبر إقليمياً من حدود السعودية ومن جهيمان، وأقدم زمنيا من ذلك، فالقرن العشرين شهد صحوات دينية عديدة، بدأت أقل خفوتا، ثم تصاعدت فيما بعد. ومن جهة ثانية؛ فإن مقتل جهيمان وأنصاره لم يؤدي إلى اجتثاث أفكاره وما كان يدعو إليه، بل بالعكس، أخذت تنمو وتكبر، وتهيمن على المجتمع.. وهذا يدعونا لتذكّر من هو جهيمان؟

في أول يوم من القرن الخامس عشر الهجري، قاد "جهيمان العتيبي" مائتي رجل من أتباعه، واقتحموا الحرم المكي بأسلحتهم، وبعد الانتهاء من صلاة الفجر، وقف أمام المصلين وأعلن أن الواقف بين يديه (وهو صهره: محمد عبدالله القحطاني) هو المهدي المنتظر، وأنه خرج ليملأ الدنيا عدلا بعدما مُلئت جورا... اعتصم جهيمان ورفاقه مدة

أسبوعين، إلى أن اقتحم الأمن الحرم، وقتل معظمهم (ومنهم القحطاني)، وفيما بعد أعدمت السلطات من بقي منهم (وأبرزهم جهيمان).[35]

كان جهيمان مغموسا بأحاديث آخر الزمان، ومهووسا بفكرة المهدي، وهو ذو ثقافة بسيطة، تلقاها على يد ابن باز، ولضحالة فكره، كان يظن أن الدنيا والزمن بأسره مختزلان في نجد، ولشدة تطرفه كان يعتبر كل ما تقوم به الدولة من تحديث وتنمية إنما هو فسق ومنكر يجب محاربته، بما في ذلك التلفزيون والمجلات والإذاعة والفنون، وحتى الجامعات، والاستعانة بالنصارى في الصناعات...

يغلب على المجتمع السعودي طابع البداوة، لكن مدنه وحواضره تطورت بصور مختلفة ومتسارعة بعد إنشاء المملكة، وبمسارات متباينة، أحدها، مسار التطور المديني.. فنقرأ في مقال لفهد البياري، أنه "كان في مكة وجدة ومدن أخرى مغنياتٍ سعودياتٍ، وعازفات في فرق موسيقية. ربما يحتفظ أرشيف التلفزيون السعودي بأغنياتٍ لهن، وهن حاسرات. وكان التلفزيون السعودي يبث أغاني نجاة الصغيرة وفايزة أحمد وسميرة توفيق وغيرهن. وكان الملك فيصل يدفع باتجاه نهوضٍ في السينما والمسرح والغناء".[36]

لكن هذا المسار تعرض لضربات متوالية، على يد النظام والمؤسسة الدينية، إلى أن تلاشى تقريبا، أو كاد. فبعد إعدام جهيمان صدر أمر ملكي يمنع النساء من الظهور في التلفزيون في شهر رمضان، ثم قصر المنع على المغنيات.

بيد أن مظاهر المسار المديني لم تكن مقتصرة على الغناء والفنون وأحواش السينما في جدة؛ بل إن أهم وأخطر تمظهراته تمثل في صعود تيارات شعبية لا تخضع للمنظومة

---

[35] عبد الرحمن أبو الفتوح، أسرار احتلال الحرم المكي، ساسة بوست، 26-4-2015، http://cutt.us/2V0bt

[36] فهد البياري، هل هزمت أم كلثوم جهيمان، العربي الجديد، 5-10-2017. http://cutt.us/66UvL

الأيديولوجية للنظام: ليبراليون، ناصريون، شيوعيون، بعثيون، اشتراكيون، إضرابات، واحتجاجات شعبية، ومشروع نقابات عمالية في آرامكو.. أما ردة فعل الحكومة، فلم تقتصر على قرار حجب المغنيات.. بل تمثلت في إستراتيجية منظمة ومتصاعدة، شملت سلسلة من التحريمات والتضييق على الحريات العامة، وإعطاء مزيد من الصلاحيات لهيئة الأمر بالمعروف.. وهذه الإستراتيجية بدأت فعليا منذ تحالف الملك المؤسس مع الشيخ ابن عبد الوهاب، وأخذت بعدا تنظيميا في مطلع الخمسينيات، بتكوين مجموعة من المعاهد الشرعية في أرجاء المملكة، والتي توجت بإنشاء هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر 1976، التي كان يتم تضخيمها وتدعيمها باستمرار.

هذا كله قاد إلى محاصرة تيار التطور المديني، وصولا إلى خنقه، وهيمنة تيار البداوة المحافظ (التدين المتزمت)، وما فعله جهيمان (بمقتله)، أنه سرع من نمو هذا التيار، لكن التأثيرات الأخرى كانت تفعل فعلها في المجتمع والدولة بما يفوق تأثير جهيمان..

ولكن، لماذا تراجع النظام عن توجهاته الإصلاحية؟ على ما يبدو أن حكّام السعودية فهموا أحداث العام 1979 من منظورهم الخاص: الغزو السوفييتي فرصة لبث الأفكار الوهابية تحت مسمى الجهاد.. استيلاء الخمينيى على الحكم يعني إطلاق مارد الصراع السني الشيعي، خاصة وأن إيران أعلنت مبدا تصدير الثورة، وبالتالي على السعودية اللجوء إلى المؤسسة الدينية لتعزيز حكمها.. أما اقتحام "جهيمان" للكعبة، فقد ربطوه بما حصل في الثورة الإيرانية التي أسقطت الشاه، فأدركوا أن استعداء رجال الدين، والمؤسسة الدينية، كانت أسبابا رئيسة أسهمت في الإطاحة بالشاه، وهذا يعني أن على النظام السعودي إيقاف عجلة التحديث (رغم هشاشتها)، وتقريب رجال

الدين والاحتماء بها يمثلونه من شرعية دينية، في مواجهة أي تطورات محتملة.. أي احتواء المؤسسة الدينية.. وهذه كانت أسباب بدء ما أسمته السعودية الصحوة الدينية..

وبالعودة إلى عقد الستينات، سنجد أن حدة التوتر بين السعودية ومصر قد زادت، إلى أن وصلت حد الصدام العسكري في اليمن، وخشية من وصول المد الناصري واليساري والقومي، تبنت المملكة الخطاب الديني المعادي لكل ما سبق، ودشنت العديد من المؤسسات الدينية الداخلية والخارجية، وجعلت الوهابية مرجعا للمناهج الدراسية.. كما استقبلت كافة الإسلاميين المطاردين في العراق والشام ومصر، وبالذات الإخوان المسلمين.

ولما أتت النكسة، أتت هزيمة للأنظمة، وهزيمة لليسار العربي أيضا، وهزيمة للناصرية، وللقومية العربية، الأمر الذي يعني بصورة أو بأخرى نصرا للقوى المحافظة الدينية. وربما كانت هذه نقطة البداية الفعلية للصحوة الدينية الجديدة.

في هذه الحقبة، كما أشار الكاتب "سلطان العامر" في مدونته، كانت السعودية تطرح نفسها منافسا للدول العربية التي تدعي "التقدمية"، من خلال خطط التنمية التي دشنها الملك فيصل مطلع الستينات، وفي نفس الوقت تسعى لاحتكار "الشرعية الدينية" في منافسة الجماعات والتيارات السلفية التي أخذت تنشط في عموم المملكة.. هذا المساران انطلقا بقوة أكبر بعد الطفرة النفطية (1970~1985)، بفضل المداخيل النفطية الهائلة. [37]

[37] سلطان العامر، هل كانت حادثة جهيمان نقطة فاصلة في تاريخ المملكة، مفازة، 19-5-2012. http://cutt.us/RLEjR

ويضيف العامر: "على الرغم من أن عقد السبعينات كان عقد التنمية، إلا أنه أيضا كان عقد قمع وتنظيف كافة الجيوب القومية والاشتراكية في السعودية، وعقد نشوء وتشكل الجماعات الإسلامية السعودية"..

وحسب "العامر"؛ أدى تصاعد التنمية، وزيادة مدخولات النفط، وقدوم ملايين العمال والمهنيين، وارتفاع أعداد سكان المدن، إلى تعقيد تركيبة المجتمع السعودي، ونشوء طبقة وسطى جديدة، مرفهة، تعتمد بشكل رئيسي على الوظائف الحكومية، وتعليم الجيل الجديد من السعوديين في المدارس النظامية ذات التعليم الديني المتشدد، والمسيطر عليها من قبل الجماعات الإسلامية.. كل هذا في بيئة شبه معزولة عن العالم الخارجي من حيث وسائل الاتصال وتوفر المعلومات.

في ظل هذه التطورات، نشأت في أطراف المدن حركة هامشية ستعرف لاحقا بِ"الجماعة السلفية المحتسبة"، بدعم من ابن باز، أفرادها لم ينالوا حظا من التعليم، بل تأثروا ببعض الأفكار الدينية المتشددة كأحد النتائج غير المتوقعة من اتخاذ الدولة للخطاب الإسلاموي وسيلةً لمجابهة المد القومي الناصري. هذه الجماعة كانت مأخوذة بفكرة المهدي، لذلك أتى اقتحامها الحرم المكي بقيادة جهيمان نتيجة متوقعة.

ولكن، هل صحيح ما يُقال بأن السلطة في المملكة رضخت لمطالب جهيمان، بعد أن أعدمته؟ الكاتبة "إيمان القويفلي"، تجيب على هذا السؤال بالنفي، وتضيف في مقالتها على العربي الجديد، بأنه "لا مبرّر لسلطةٍ هزمت جماعةً رَفضيّة معزولة مكونة من 200 شخص، وأعدمت كل أفرادها وسجنتهم، أن ترضخ لمطالبهم، خصوصاً أنها لم تكن ذات امتدادٍ شعبيّ".[38]

[38] إيمان القويفلي، أساطير جهيمان في السعودية، العربي الجديد، 5-5-2017. http://cutt.us/Kltln

ولكن "القويفلي" تؤيد مقولة أن السلطة اتّجهت إلى تشديد قبضتها على المجتمع بحجة الدين، لأنها تحمي شرعيّتها مستندة إلى الدين، ولأنها أرادت من خلال تشددها الرد على مزايدة الحركات الدينية عليها ومنافستها لها.

فما حصل فعليا بعد حادثة جهيمان، هو انتصار للتيار الديني المتشدد، وتراجع مظاهر الحداثة والتطور المديني، بسبب ضعف تجذّر الأشكال الفنية الحديثة في المجتمع السعودي، وعداء التيارات الدينية المحلية على أنواعها للفنون، واستقوائها بالدولة.. أو بعبارة أخرى، ازداد التشدد، ورُفضت الفنون وقيم الحداثة بسبب غلبة الثقافة البدوية على تركيبة وذهنية المجتمع، وحداثة عهدهم بالمدينية، وهذه ردود فعل متوقعة للانتقال بخطى متسارعة من الحياة البدوية البسيطة إلى الحياة المدنية المعقدة. وما ساهم في ذلك أن "الجماعة السلفية المحتسبة" كانت تعيش السلفية بكل تفاصيلها التعبدية والتقشفية والزهدية تماما كما عاشها ومارسها السلف في القرون الغابرة.

ما يعني أن ما كان سائدا قبل جهيمان (حسب القويفلي): "عبارة عن مجتمعات ذات ثقافة ريفية أو رعوية، لا تقيم شأنا للفنون، ولا تتمتع المرأة فيها بمكانةٍ مهمة، على الرغم من أنها لم تكن مُكرهةً على هذه المعايير الصارمة في اللباس، والعزل الاجتماعي. وهذا، على الأرجح، لأنها كانت تعتبر يداً عاملة في الحقل والمرعى، ثم تدفق ريع النفط، وانتفت الحاجة إلى عملها، ثم جاء التنظير الديني لضرورة بقاء المرأة في المنزل، واستجاب المجتمع".

هذا في السعودية، أما ما حصل في مصر، وتقريبا في نفس الفترة، فكان مكملا بطريقة أو بأخرى؛ وبالرجوع قليلا للوراء، لرصد الإرهاصات التي أفضت لتطور مسارات

الإسلام السياسي، سنجد أنه في منتصف الستينات، قد طرأ تغير جوهري في بنية وأفكار الإسلام السياسي، وسيبدأ هذا التغير في مصر أولا، إذ ستبدأ الحركات الإسلاموية بالنزوع أكثر فأكثر نحو العنف والتشدد.

ويمكن القول أن التطور الأبرز والأكثر أهمية في فكر الجماعات الأصولية - حسب رأي "محمد محفوظ" في كتابه "الذين ظُلموا" - تمثّل في فكر الراحل "سيد قطب"، من خلال كتابيه الشهيرين: معالم في الطريق وجاهلية القرن العشرين، اللذين سيغيّران من البنية الفكرية للحركة الإسلامية برمتها، فقد صاغ "قطب" هذين الكتابين وهو على فراش مرضه في سجن "ليمان طره" وقد تقمصته عقلية الشهيد الذي ينتظر نهايته، ولا يملك تغييرها، فأصبح يستعجل إنجاز مهمته قبل أن تنقضي أيامه ويفوت الأوان، فنادى بضرورة إسقاط النظام، وإقامة يوتوبيا الخلافة على أنقاضها، ووصف المجتمع بالجاهلي، ورفَضَ كل أشكال الحكم الأرضية، لأن الحاكمية لله فقط.[39]

ويضيف "محفوظ": "تتسلل كتبه خارج الزنزانة ويلتقطها شباب طحنتهم ظروف بالغة القسوة وأرهقهم البحث عن أجوبة سهلة لأسئلة صعبة ما فتئت تحثهم وتدفعهم للخروج على الوضع الراهن بأسرع ما يمكن، شبان خبروا العشوائيات والأزمات الخانقة والقمع السلطوي والفقر والبطالة والقهر الاجتماعي وما إلى ذلك من بيئة مجافية لا تورث إلا العنف والحدة، ومن تربة لا تنبت إلا التطرف والحقد على كل شيء". تلك الأفكار التي صاغها "قطب" ستؤدي إلى إنفجار المَرْجَلْ في مصـر.

لم ينفجر المرجل فجأة، فقد سبق انفجاره مقدمات موضوعية، وهيأت له إرهاصات فكرية، أدت في نهاية المطاف إلى حرف بوصلة مصر الفكرية والثقافية باتجاه صاعق

[39] محمد محفوظ، الذين ظُلموا، رياض الريس للكتب، ص 46.

الانفجار، بدأت هذه الإرهاصات تتشكل في النصف الأول من القرن العشرين، واستمرت وتراكمت حتى نهاية القرن، وفي هذا الصدد يقول المفكر المصري "طارق حجي": "عندما كانت قِبلة مصر المعرفية والثقافية باتجاه الشمال والغرب، كان أعلامها وروّادها من نوعية أحمد لطفي السيد، وعبدالعزيز فهمي، وطه حسين، وعباس العقاد، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وسلامة موسى، وتوفيق الحكيم، وحسين فوزي، ونجيب محفوظ، ويوسف إدريس.. وعندما تحولت قبلتها المعرفية والثقافية وأصبحت صوب الشرق، أي باتجاه السعودية وما تمثله من فكر وهّابي منغلق، صار أعلامها ومنظّريها من أمثال حسن البنا، محمد عمارة، وسليم العوا، والشيخ حسان، والشيخ كشك، وعمر عبد الرحمن. وهو "تطور" عكسي، كانت نتائجه تأثر الثقافة المصرية التقدمية والليبرالية المنفتحة على آفاق الأنسنة بثقافة رجعية متزمتة تؤمن بالعنف، لها مفرداتها وخطابها المختلف كليا".[40]

وفي نفس السياق، يعلق "محفوظ" قائلا: "وفي ذروة التحولات الاجتماعية السياسية يأتي الرئيس المؤمن "أنور السادات" (1970~1981) كبهلوان يتوهم أنه قادر على الإمساك بكل الخيوط، فيطلق العنان للإسلاميين، ويحررهم من السجون، ويدعمهم، بل ويفتح لهم معسكرات التدريب ظنا منه أنه سيلعب بهم داخل الجامعات، وسيكنس بهم مخلفات العهد الناصري وبقايا الماركسيين".[41]

وفي النهاية انقلب السحر على الساحر، وانتهى المشهد المأساوي بحادثة المنصة.

---

[40] طارق حجي، دانات رمضانية، الحوار المتمدن، العدد 3466، 24-8-2011.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=272658

[41] محمد محفوظ، الذين ظُلموا، رياض الريس للكتب، ص 83.

وطوال عهد "السادات" الذي تجاوز العقد بعام واحد، ترعرعت الحركات الإسلاموية، وفقصت من بيوض الإخوان تنظيمات وتشكيلات عدة، وتخرّج مشايخ وخطباء، أجادوا تماما صناعة الكلمة وتسويق الأشرطة بملايين النسخ، وامتلأت الأرصفة بكتب "سيد قطب" و"أبو الأعلى المودودي" وخطب "الشيخ كشك" و"عمر عبد الرحمن" و"القرضاوي" وغيرهم، ممن دخلوا سباقا محموما في الاستحواذ على عقول وأفئدة الشبان، ثم تمكنت الجماعات الإسلامية من السيطرة على الجامعات، وخرجت الأمور عن سيطرة النظام ودخلت البلاد مرحلة اللاعودة.

وفي هذا الإطار، كتب "حسن خضر" ما يدعم وجهة النظر باتجاه دور مصر في عهد السادات في تصاعد قوة الإسلام السياسي، ويشير في مقالته على "الأيام" لدور كل من الشيخ متولي الشعراوي، ود. مصطفى محمود، خاصة من خلال الظهور الإعلامي لهما على التلفزيون، في فترة كان التلفزيون فيها مركزيا في الحياة الاجتماعية، ولدورهما مع غيرهما، في إنشاء مؤسسات اقتصادية واجتماعية، فكتب: "للمرّة الأولى، ربما في تاريخ الدولة المصرية يمنح وزير للشؤون الدينية رخصة لإنشاء بنك في مصر، متجاوزاً سلطة وزيري الاقتصاد والمالية". والمقصود الشيخ الشعراوي.

ويضيف: "على الأرجح، لم يكن من قبيل الصدفة أن يُفتتح المصرف المُسمى "بنك فيصل الإسلامي المصري" ليكون أوّل بنك "إسلامي" في مصر في العام 1979 وأن يكون في قائمة مؤسسيه زغلول النجّار، الداعية وصاحب نظريات الإعجاز العلمي (وهو شخصية تلفزيونية، أيضاً) وتوفيق الشاوي، من قادة الرعيل الأوّل للإخوان المسلمين في مصر، وأن يكون صاحب المشروع، ورئيس مجلس الإدارة من أبناء الملك

فيصل في السعودية. وطالما الشيء بالشيء يُذكر، في العام 1971، أي قبل هذا التاريخ بثماني سنوات، كان الملك فيصل قد تعهّد لرئيس جامعة الأزهر مساعدة مالية قدرها مِئة مليون دولار للإسهام في كفاح الإسلام الفكري ضد الشيوعية".[42]

المراد من هذا الكلام القول: إن مشروع الأسلمة وُلد في مصر، والسعودية بصلات وثيقة مع السوق، وبحماية سلطة الدولة وقوانينها، مع غطاء أيديولوجي يمثل مصدراً للشرعية، وخطاب يسوّقه ويعبّر عنه.

ويضيف "خضر": "الواقع أن ثمة صلات نشأت على مدار العقود الأربعة الماضية، بين أغلب حرّاس الأسلمة، ومنتجي خطابها، الذين احتلوا شاشات التلفزيون، وما لا يحصى من البنوك، والشركات، والجمعيات الخيرية، في مصر في العالم العربي وخارجه. فأغلب هؤلاء اشتغل في مجالس الإدارة، وفي لجان الفتوى، والهيئات الإدارية والاستشارية. وأبرزهم في الوقت الحاضر القرضاوي، الذي أشرف على، وأسهم في إنشاء أكثر من بنك وجمعية عابرة للحدود، وله نصيب في الأسهم والأرباح. على خلفية كهذه يتموضع كل كلام محتمل عن الشيخ الشعراوي، الذي كان الأب الروحي لظاهرة الدعاة التي غزت شاشات التلفزيون في العالم العربي، إلى جانب الدكتور مصطفى محمود، وكان كلاهما تجسيداً لضلع من أضلاع دولة "العلم والإيمان". الأوّل يمثل العلم، ويتكلّم لغته، والثاني يمثّل الإيمان ويتكلّم لغته. ولم يكن في صعود الاثنين، في عقد السبعينيات، كمنتجين لخطاب الأسلمة مجرّد صدفة، إذ كان كلاهما مُقرباً، بالمعنى الشخصي، من الرئيس السادات، وكانت لكليهما صلات بعالم المال والأعمال".[43]

---

[42] حسن خضر، 1979 مرة سابعة، جريدة الأيام، 19-12-2017.

[43] حسن خضر، 1979 مرة سابعة، جريدة الأيام، 19-12-2017.

وبالعودة لما كتبه "محفوظ": "بعض المتدينين الذين عجنهم الفقر في ما اعتبروه "المجتمع الجاهلي" أرادوا أن ينبذوا هذا المجتمع في ضمائرهم ويمارسوا التقية انتظارا للفرج، ولكن آخرين رفضوا هذا المبدأ السلبي، وشرعوا بممارسة المفاصلة الكاملة مع المجتمع، فهجروا مجتمع الكفر - أسوة بالرسول الذي هجر مكة - ولكنهم أقامو يثربهم على تخوم المجتمع وناصبوه العداء.. كان "شكري مصطفى" مؤسس جماعة التكفير والهجرة هو نتاج مجتمع قريته في الصعيد التي أدمنت الخروج على القانون وامتهنت التهريب، وكانت أفكاره استمرارا لنهج المطاريد المعشعش في رأسه، ولكن هذه المرة بثوب إسلامي".

ويضيف "محفوظ" في موقع آخر قائلاً: "عاد الإسلاميون للسجون والمعتقلات مرة ثانية، حيث هناك يطفو الرعب البدائي من السجان، وحيث ظروف القهر والتنكيل تجعل السجين يحس نفسه كفأر في مصيدة، وأحياناً يتأجج الكُرْه في دواخل البعض حتى يصبح الهواء مشبعا به وينقل عدواه للآخرين، وقد يفقد السجين هنا إنسانيته إذا ما فقد اتزانه فتبدأ غرائزه بتحريكه.. في هذه السجون وُلدت أفكار التعصب والحقد على المجتمع، ونشأت مفاهيم التكفير، ووُلدت التنظيمات التي لا تؤمن إلا بالعنف كتنظيم الجهاد الإسلامي والجماعة الإسلامية وغيرها".[44]

في هذه الفترة المفصلية من تاريخ مصر والحركات الإسلامية شهدت البلاد أحداثا جسام وتغيرات جذرية ليس في مصر وحدها، بل في المنطقة ككل، كان لها أثرا هاما على تطور الفكر الجهادي للحركات الإسلامية، حيث دخلت مصطلحات ومفاهيم جديدة من نوع: الولاء والبراء، التتريس، الخروج على الحاكم، قتل المرتد، إلزام أهل الذمة

---

[44] محمد محفوظ، الذين ظُلموا، رياض الريس للكتب، ص 88.

"المسيحيين" بدفع الجزية، تحريم السياحة، نبذ المجتمع الجاهلي، إلزام النساء بارتداء النقاب، تطبيق الشريعة، الحاكمية لله، دار الإسلام ودار الكفر.. هذه المفاهيم باتت عماد الأيديولوجيا الجديدة ومحور خطابها الإعلامي وبرنامجها العملي، وهي وإن كانت موجودة أصلاً في التراث الإصولي الإسلامي؛ إلا أن إعادة إحيائها على يد فقهاء الحركات الجهادية مسألة تندرج في إطار تسييس الدين، وتوظيفه لأهداف سياسية حزبية.

في مصر، أدت سياسة الانفتاح التي رسخها "السادات" إلى اتساع الهوة بين طبقات الشعب وتعميق الظلم الاجتماعي، وانتشار الفساد في مؤسسات الحكم، وتحول المساجد إلى بؤر توتر ومراكز تصدير لأفكار التعصب والغلو، مع هبوط مستوى العديد من الجامعات وتراجع دورها الحضاري. ويشرح "محفوظ" حيثيات هذا الوضع قائلاً: "فمدرجات الطلبة التي تتسع إلى بضعة مئات على أكثر تقدير صارت تُحشر فيها الآلاف من الطلبة الذين بالكاد يرون أستاذهم أو يسمعون ما يقوله، والمختبرات تكدست فوق طاقتها الإستيعابية، وهاجر الكثير من الأساتذة المميزون، وأصبحت الجامعات مكانا مكتظا لا يختلف عن وسط البلد، يتجمع فيه الشباب ومعهم شقاءهم ورعبهم من المستقبل، بينما أعداد الخريجين تفوق كثيرا حاجة البلد ضمن توزيع غير متوازن، وكانت النتيجة مزيدا من الشبان ينخرطون في التنظيمات الجهادية وهجرة الكفاءات للخارج، حيث أن الدولة لجأت للحل الأسهل وهو المزيد من البطالة المقنعة".[45]

[45] محمد محفوظ، الذين ظُلموا، رياض الريس للكتب، ص 171~172.

على المستوى الإقليمي، كانت نهاية حقبة السبعينيات مفصلا هاما في تاريخ تطور الحركات الأصولية، وبدءَ ما سُمي بالصحوة الإسلامية التي تأثرت إلى جانب العوامل الداخلية السابقة بحدثين هامين: إنتصار الثورة الخمينية في إيران، وبدء الحرب الأفغانية بدعوى الجهاد ضد الشيوعية والكفر.. ومما لا شك فيه أن هذين الحدثين كان لهما صدى واسع في كل البلاد العربية، وقد أرادت الجماهير العربية من إيران أن تسد الفراغ السياسي الذي تركته مصر الخارجة عن الصف العربي بعد توقيعها كامب ديفيد، وأن تشكل البديل الإسلامي لفشل الخيار القومي ووصوله حائط التجزئة[46]، أما الحرب الأفغانية فقد رأى فيها الشباب العربي النموذج الجهادي الذي يحلم به كل من يتوق للجنّة، أو من أراد صب جام غضبه على معسكر الكفر.

في الجزائر أدت خيبة أمل الجماهير العريضة في أداء جبهة التحرير الوطني التي تفردت بحكم البلاد ثلاثة عقود متتالية، وما لمسوه منها من فساد وقمع للحريات طوال فترة حكمها، وهي التي تُوجت بأزمة اقتصادية خانقة، أدى ذلك كله إلى بروز تيار ديني يبشر الناس بالحل ويطرح نفسه بديلا إقصائيا لكل ما هو موجود، وتتشابه نفس العوامل والنتائج إلى حد كبير في كل من تونس والمغرب.

في حقبة التسعينات هُزم العراق، وانقسمت البلاد العربية على نفسها وتفكك الاتحاد السوفياتي، وأطلت الفتنة برأسها في الجزائر، وانتهت الحرب الأفغانية، وبرز الطالبان وتنظيم القاعدة، وعاد الأفغان العرب إلى بلدانهم، ودخلت البلاد والعباد في المرحلة الأمريكية، ومعها دخل العالم ما عُرف بحقبة الحرب على الإرهاب.

---

[46] صلاح خلف، محاضرة في كلية الآداب جامعة بغداد، كانون أول 1988.

# الفصل الأول

# الطائفـــية..
# آفـة العالم الإسلامي [47]

[47] عبد الغني سلامه، نشر هذا الفصل في مجلة تسامح، مركز رام الله لدراسات حقوق الإنسان، العدد 23، ديسمبر 2008، رام الله – فلسطين، ص 91-104.

# الطائفة والطائفية

## تقديم:

بالرغم من أن الطائفية موجودة في مجتمعاتنا العربية منذ أن نشأت الطوائف، إلا أنها ظلت كامنة لفترات طويلة، كما لو أنها تنتظر الفرصة السانحة للخروج من أوكارها. اليوم تزداد هذه الظاهرة بشكل لافت، وقد صارت واحدة من أخطر الظواهر الاجتماعية التي تؤثر على حياة الفرد كما لم تفعل أي ظاهرة أخرى، والطائفية ظاهرة اجتماعية مخيفة وخطيرة، ليس لأنها تفتّت نسيج المجتمع وتقوض أركان وحدته الوطنية وحسب، بل لأنها ظاهرة بلا ملامح محددة، وذات أشكال متعددة ومتغيرة على الدوام، لا يظهر وجهها الحقيقي إلا في مرآة الآخر، وبقدر ما هي واضحة للعيان فهي غامضة كامنة ما بين السطور ووراء الأكمة، وتختفي خلف ستائر عديدة بعدد الأديان والمذاهب.

ويمكننا تعريف الطائفية بأنها مبدأ سياسي تعتمده القوة الحاكمة للتمييز بين طائفتها والطوائف الأخرى المحكومة من قبلها، ويقوم هذا التمييز على أساس الانتماء الطائفي. علما بأن الانتماء إلى مذهب معين أو ممارسة شعائره وطقوسه لا تعتبر ممارسة طائفية بحد ذاتها، وإنما الطائفية هي المبدأ الذي يقوم على أساسه التمييز بين الطوائف والتفضيل فيما بينها.[48]

أي أن الطائفية هي ممارسة عنصرية، هي تفريق أو تمييز أو تفضيل بين المواطنين على أساس الدين أو المذهب أو المعتقد، بهدف إلغاء أو إضعاف الاعتراف بالحقوق المدنية

---

[48] الشيخ علي البغدادي، الطائفة بين مفهومي الانتماء والتمييز، جريدة الصباح، 17-5-2003

والسياسية والفكرية للمواطنين، وعدم معاملتهم على قدم المساواة، بحيث تُمنح جهة ما مزايا ومكتسبات تخل بمبدأ العدالة والمساواة[49]، ومن هنا ستكون الطائفية بديلا عن المواطنة، ويصبح الولاء للطائفة مقدما على الولاء للوطن، الأمر الذي يعني تشكيل الميليشيات الطائفية وبث روح الفرقة والكراهية، وإتاحة المجال للقوى الخارجية للتدخل في شئون البلد الداخلية.

ويمكن أيضا إضافة تعريفات أخرى للطائفية، وذلك حسب الزوايا المختلفة التي نرى منها الموضوع: مثلا يرى "فؤاد خليل" أن الطائفة هي عبارة عن انتظام مؤسسي للجماعة الدينية على الصعيدين السياسي والأيديولوجي، والذي يجعل منها على ذينك الصعيدين موقعاً تمثيلياً مخصوصاً ومتبايناً عن موقع تمثيلي آخر يعود لانتظام جماعة دينية مغايرة، بينما يعتبر الطائفية أنها الولاء العصبي للطائفة المُمارَسْ بأشكال ومظاهر متعددة تصورها ذات لُحمة عامة[50]. أما الطائفية السياسية، فهي نظام تمثيل الطوائف في تركيبة النظام السياسي وفي مؤسسات الدولة. بمعنى أن الطوائف كانتظامات مؤسسية لا تقوم إلا بقيام نظام طائفي، أو بدولة طائفية.

ولمزيد من التوضيح لا بد من التمييز بين الطائفة والمذهب والأقلية، نظرا لما قد تتعرض له أي من هذه الفئات من ظلم واضطهاد، فالمذهب عُرِّف بأنه: مجموعة الآراء والأفكار التي يراها أو يعتقدها إنسان ما، حول عدد من القضايا العلمية والسلوكية، وقد جاء في المعجم الوسيط تعريف المذاهب بأنها الآراء والنظريات العلمية والفلسفية التي ارتبط

---

[49] عبد القادر قدوري، الطائفية وتفتيت الوحدة الوطنية، جريدة طريق الشعب، العدد 99، 8-1-2008، ص 10.

[50] فؤاد خليل، الطائفة انتظام مؤسسي لا كيان مستقل، جريدة الأخبار، 24-11-2006.

بعضها ببعض ارتباطاً يجعلها وحده متسقة[51]، أما الأقليات فقد عُرّفت على أنها تجمع أناس في دولة يشتركون في خاصية مشتركة، وتكون عادة إما جنسية أو دين أو عرق أو لغة أو أي صفة متماثلة، وقد عرفت اللجنة الفرعية لمنع التمييز وحماية الأقليات عام 1954 كلمة أقلية بأنها: تلك المجموعات غير الغالبة بين سكان لديهم تقاليد وخصائص عرقية أو دينية أو لغوية، أو خصائص تختلف كليا، أو جزئيا عن تلك التي لدى بقية السكان، ويرغبون في المحافظة عليها.[52]

والغريب، أن الطائفي، ومهما كان متعصبا فإنه لا يقر بطائفيته، بل وينكرها ويردها لخصومه، وكثير من الطائفيين لا يرفعون شعارات دينية واضحة، بل يرفعون شعارات تدعو للمساواة وحقوق الإنسان! وهنا سنجد "الطائفية" موجودة فقط على شكل اتهام أو رداً على اتهام وبشكل متناوب[53]، فهي لأنها بغيضة يتبرأ منها الجميع، وهذا التشكل الزئبقي للطائفية يمنحها القدرة على التخفي والتمويه ويحول دون فهمها بشكل موضوعي، ويمنح الطائفيين المقدرة على استغلال أبناء الطائفة للقضاء على الطائفة الأخرى ثم تبرير ذلك بدم بارد، فيتواروا خلف ستار الجهاد والإدعاء بامتلاك العلاقة الحصرية مع الله، وحصولهم على التفويض المباشر من لدنه للقضاء على أعدائه (الذين هم بالطبع أعداء الطائفة)، مستغلين إلى جانب ذلك كله الضعف الإثني للطائفة، والخوف غير المنطقي والمبالغ فيه على كيان الطائفة ومستقبلها.

---

[51] الموسوعة الميسرة ( 1142/2)، والموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص 10.

[52] معجم قانون حقوق الإنسان، ص 178.

[53] وليد رجا الكردي، الطائفية، مدونات أمين، شبكة الإنترنت للإعلام العربي، 11-11-2010. http://www.amin.org/articles.php?t=opinion&id=12372

ويقول "برهان غليون" إن أحد أسباب عدم فهم الطائفية وتجنب آثارها السلبية هو اختلاط مفهوم الطائفية نفسه وعدم تعريفه، فقد مال معظم الذين أثاروا مسألتها إلى الخلط بين التعددية الدينية؛ أي انطواء المجتمع على تنوع ديني كبير، يتسم بنوع من التعايش أو بقدر من الصراع، وبين سيطرة إحدى هذه الفرق أو الجماعات الدينية على مقاليد الأمور في السلطة في سبيل تأمين منافع استثنائية وخاصة لا يسمح بها القانون، أي أنهم يخلطون بين الطائفية في المجتمع والطائفية في الدولة، وهما من طبيعتين مختلفتين تماما وليس لهما نفس النتائج.

ويفسر "غليون" مصدر هذا الخلط بأنه نابع من كون أن الفكرة القومية التي انتقلت إلى الثقافة العربية من الأدبيات الغربية ذات الصبغة الأحادية، ارتبطت بقوة بفكرة التجانس الاجتماعي، وبالتالي فقد نظر القوميون العرب إلى التعددية الدينية والإثنية في المجتمع كعقبة أمام نشوء وعي قومي يتجاوز الطوائف والانتماءات الدينية الفرعية، بل اعتقدوا أن استمرار وجود عصبيات، أو انتماءات جماعية فرعية لا بد أن يغذي ولاءات غير وطنية، من داخل الدولة وخارجها، وهذا يضعف سيطرة الدولة على إقليمها وسكانها ويعرضها لتدخل القوى الأجنبية.[54]

[54] برهان غليون، نقد مفهوم الطائفية، مجلة الآداب البيروتية، 1- 2007.

## مخاطر الطائفية ونتائجها

تظل الطائفية مغتربة عن الوطن الذي تعيش فيه؛ لأن موطنها الفعلي هو الطائفة، والوطن الحقيقي يأتي في الدرجة الثانية، وهو لا يغدو عن كونه المكان المأمول لبناء دولتها الخاصة، والأمة في نظرها هي مجموعة الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الطائفة ويمارسون طقوسها، وقوانين الطائفة تخضع إلى ميزان المصلحة الذاتية وعلى مقاسها، الشيء البارز في هويتها هو الدين بصورته الغيبية، وهو حاضر في كل التفاصيل المكونة لها.

وبعد النتائج الوخيمة التي جرتها الطائفية على المنطقة العربية، فإن أي فكر وطني تقدمي لا بد وأن يدين وينبذ الطائفية، وحتى أولئك المتورطون بها لا يملكون إلا إدانتها، حتى لو كان ذلك لفظيا، ليس لأن الطائفية ذميمة وحسب، بل لأنها كالسرطان، وكالنار الخفية التي تتسلل عبر الهشيم لتكون سعيراً يحرق الحرث والنسل، ولأنها تعدّي على الوطن وعلى مفهوم المواطنة، ولأنها عملية إعدام للمستقبل، وجهل بمفهوم الدولة الحديثة، وارتكاس نحو الماضي، وغرق في العيش في التاريخ القديم، ولأنها نقيض المجتمع المدني والحداثة والمواطنة والقيم الإنسانية.[55]

والطائفية لا تؤمن بالهوية الوطنية ولا بالتعددية ولا بالشراكة السياسية إلا بالقدر الذي يخدمها، أو حينما تضطر للقبول بها، ولكنها تظل كامنة متحفزة تظهر عند الحاجة وفي الأزمات لتوقظ شيطانها من سبات الاستقرار إلى درجة الانتقام والتفجير مستخدمة

[55] وليد رجا الكردي، الطائفية، مصدر سبق ذكره.

جميع الأسلحة المحرمة، وأول ما تبدأ بنكران الآخرين الذين طالما أحاطوها بالدفء في فترات السلم، رامية بنفسها في أحضان الغير حتى لو كان العدو نفسه.

والطائفية عبارة عن فكر وفعل انفصالي مهما ادعت غير ذلك، فهي من أجل تبرير الإنفصال تدّعي العودة إلى أصول العقيدة الصحيحة، ولكنها في حقيقة الأمر تعمل على تشويه وتحريف الدين عن جوهره وأهدافه السامية لخدمة الانفصال[56]، وتتجلى الطائفية بأبشع أشكالها من خلال فِرق الموت والقتل على الهوية، والآباء الروحيين الذين بيدهم مفاتيح الجنة. والقانون الذي يحكم الطائفية لا يستند إلى أي معيار أخلاقي، لأن ديدنه الوحيد هو البقاء وإقصاء الغير، وعندما تغيب الأخلاق عن الجماعة تصبح قطيع من الحيوانات المهم عندها هو البقاء أولا وثانيا وأخيرا.

لكن مخاطر الطائفية لا تقتصر في الواقع على تدمير قانون الدولة وتحويل أجهزتها إلى أدوات خاصة بها، وقواتها الرسمية إلى ميلشيات لخدمة الطائفة، ولكنها تذهب أبعد من ذلك لتدمر المجتمع المدني نفسه، فتقوم بتعطيل القانون العام، ثم تبدأ معارك إخضاع الجماعات الأخرى وقمعها، وهكذا تتحول الدولة إلى أداة جبارة في يد العصبية الحاكمة، من هنا لا تقضي الطائفية على الرابطة الوطنية أكثر من أي مرض آخر، ولكنها تدمر أيضا قاعدة المجتمعات الأهلية، وتحول مؤسسات المجتمع المدني إلى خرائب خاوية، وبهذا فهي لا ترد المجتمع ثانية إلى مرحلة ما قبل الدولة، وإنما تحكم عليه بالخراب والفساد الشامل، فهي تقضي على الطبقة الوسطى وتفرغ الرابطة الوطنية من مضامينها التحررية والتقدمية، لأن الطائفية في جوهرها أداة لتحقيق مصالح خاصة

---

[56] وليد رجا الكردي، الطائفية، مصدر سبق ذكره.

وجزئية تتم عبر اختطاف السلطة السياسية، وأخطر ما تمثله هو القضاء على الوحدة السياسية والهوية الوطنية للأمة وتحويلها إلى قبائل وطوائف متصارعة.

# الطائفية والوطنية والمجتمع المدني

يمكننا فهم الطائفية بصورة أوضح، أو إدراك مخاطرها من خلال فهم نقيضها: "المجتمع المدني"؛ فالطائفية تقوم على وجود التشكيلات الاجتماعية الإرثية التي لا يملك فيها الفرد بصورة عامة إمكانية الإختيار، وتكون عضويته للطائفة إجبارية، أو تلقائية وراثية، في حين أن المجتمع المدني يقوم على التنظيمات غير الحكومية كالأحزاب والنقابات والاتحادات وغيرها التي تكون العضوية فيها اختيارية بناء على قناعات فكرية أو حاجة اقتصادية، وتحمل هذه التشكيلات السياسية في طياتها قيم الاختلاف وقبول الآخر، أي استعداد الأفراد لتحمل وجهات نظر سياسية متباينة، وهي تشكل قنوات وشرايين الديمقراطية، خلافا للطائفية القائمة على نفي الآخر وإقصائه أو تهميشه في أحسن الأحوال.[57]

الطائفة أو القبيلة حتى لو كانت سابقة زمنيا وتاريخيا لوجود الدولة، إلا أن الطائفية كتعبير عنها وكنقيض للمجتمع المدني قد نمت على هامش ضعف المشروع الوطني/ القومي وبسبب تراجعه، أي في مرحلة تالية لمروره في أزمة حقيقية، بمعنى أن الطائفية أتت بديلا لفشل النخب السياسية التقدمية في التعبير عن مشروعها التاريخي لأسباب موضوعية عديدة، وبالذات بعد أن فشلت في تكوين طبقة اجتماعية متماسكة، وفي حياكة نسيج وطني يؤدي في النهاية إلى بلورة دولة قومية بمضمون وطني وبشكل حداثي يعكس آمال وطموحات الجماهير، وبدلا من ذلك فقد أضطرت في سبيل سيطرتها الاجتماعية ولإنجاح مشروعها السياسي إلى الاعتماد بشكل مباشر أو غير

---

[57] زياد أبو عمرو، المجتمع المدني في فلسطين، المؤسسة الفلسطينية لدراسات الديموقراطية، ص 9-12.

مباشر على عوامل خارجية، وفي النهاية تفككت هذه النخب وتبعثرت أمام ضراوة الهجمة المعادية وشراستها، في ظل غياب فادح لشروط نجاحها المادية والجيوسياسية.

وأخيرا وبسبب هذا الضعف البنيوي لتلك النخب الذي نجم عن تعثر عملية التحديث، فقد وجدت العديد من النخب الاجتماعية الصاعدة والمعزولة والإنتهازية فرصا أكثر لتوفير الموارد البشرية والسياسية والأيديولوجية التي تحتاجها لتعزز موقفها في التنافس على السلطة والظفر بها، وذلك عبر الالتصاق بالجماعات الفرعية المنتمية لها، وهي فرص لها حظوظ أكبر في النجاح مما كانت ستجده من تماهيها مع الجماعة الوطنية العامة التي لم تكن قد تكونت بعد - وربما أنها لم تتكون حتى الآن - وهذه البيئة هي التي أوجدت المناخات الملائمة لبروز تلك القوى الطائفية وللتعبير عن ذاتها من حيث أنها جماعات واعية لوحدتها السياسية ومدركة لمصالحها. [58]

وحقيقة الأمر أن الطائفية مثلما كانت نتيجة لفشل الدولة المدنية والمشروع الحداثي؛ فإنها كانت في نفس الوقت من أبرز الأسباب لهذا الفشل، ومن هذا المنطلق تحديدا يعتبر "غليون" بأن الطائفية تنتمي إلى ميدان السياسة لا إلى مجال الدين والعقيدة، وأنها تشكل سوقا موازية، أي سوق سوداء للسياسة، أكثر مما تعكس إرادة تعميم قيم أو مباديء أو مذاهب دينية لجماعة خاصة.

وليس شرطا دائما أن ينتج عن تعدد الطوائف طائفية، فمن الممكن أن يضم المجتمع طوائف دينية أو إثنية عديدة من دون أن يؤدي ذلك إلى نشوء دولة طائفية، أو هيمنة الطائفية على الحياة السياسية للمجتمع.

---

[58] برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.

وهي، أي الطائفية، وإن كان وجودها عاديا ومتوقعا في المجتمعات ما قبل الحديثة التقليدية، التي لم تنضج فيها بعد فكرة السياسة الوطنية والدولة الحديثة، ولم تتكون فيها مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني، فإنه بعد مرحلة الدولة الحديثة يصبح استخدام الولاءات القبلية والطائفية داخل هذه الدولة خروجا عن القاعدة وخرقا للقانون، بمعنى أن الطائفية تعتمد على سيطرة عصبية قبلية أو دينية على مقاليد السلطة، بحيث تشكل الطائفية قاعدة السلطة المركزية وضمان وحدتها واستمرارها، وبالعكس فإن الدولة الحديثة تقوم على مبدأ العقد الاجتماعي بين أفراد أحرار ومستقلين (المواطنين) تجمعهم مبادئ مشتركة، ولا يحقق وحدتهم السياسية والوطنية إلا التزامهم الطوعي جميعا بها، ووضعها فوق انتماءاتهم الخاصة، وبالتالي فإن القانون العام هو الذي يحدد وينظم علاقتهم مع الدولة ومع أفراد الجماعات الأخرى.

في المجتمع المدني الحديث تتحدد العلاقات بين المواطنين والجماعات والدولة على أساس القانون والمساواة وتكافؤ الفرص، لا على علاقات الدم والقرابة والدين، وهنا فإن سياسات الدولة الداخلية والخارجية تكون مرتبطة باختيار عام، وليست مفروضة بقوة الاستيلاء والقمع السلطوي، كما كان عليه الحال في الدولة القديمة؛ فالسياسة الوطنية تدور من حول الرأي العام، أي الرأي الذي يشكل خلاصة رأي الأفراد وليس الجماعات الإثنية، وهذا الرأي العام يكون حصيلة التنافس بين النخب السياسية، وتعبيرا عن برامج سياسية معلنة متباينة بل ومتناقضة أحيانا. [59]

وكل تكتل داخل النظام السياسي الوطني، أو داخل الدولة ومؤسساتها بشكل خاص يكون مبنيا على أساس الولاءات العصبية (الدينية أو الإثنية)، سيكون بالضرورة على

[59] برهان غليون، نقد مفهوم الطائفية، مجلة الآداب البيروتية، 1-2007.

حساب الولاء الوطني العام القائم على الاختيار بين سياسات تعنى جميعها بالشأن العام وليس بالمصالح الخاصة، وبالتالي فإن هذه التكتلات ستنخر عظم النظام العام وستقوضه حتما ولو بعد حين، ومن هنا لا بد من اعتبار أي تضامن طائفي أو إثني داخل الدولة خروجا عن قانون الوطنية، لأنه سيشكل مصدرا لفساد السياسة الوطنية، حيث أن أي كتل سياسية منبثقة عن انتخابات عامة تخترقها تكتلات غير سياسية وولاءات دينية وإثنية لا يمكن أن تعبر عن أغلبية اجتماعية ولا عن مصلحة وطنية، ولا يمكن أن تضع نفسها والسلطة التي بحوزتها في خدمة الوطن، إلا بالقدر الذي يخدم الطائفة أولا، وهذه العملية التخريبية تعطل إمكانية تداول السلطة بشكل سلمي.

ويؤكد "غليون" الطبيعة السياسية للطائفية، ويقلل من شأن البعد الديني لها، فيقول "إن مشاعر التضامن الطبيعي بين البشر المنتمين إلى عقيدة واحدة أو طائفة واحدة ليست حتمية، وأنها لا تنبع مباشرة وبشكل تلقائي من مجرد الاعتقاد والانتماء لهذه الطائفة"، ويعتبرها عبارة عن استراتيجية سياسية بامتياز، أي أنها خطة للاستفادة من التضامن الآلي المفترض الذي تنشؤه علاقات القرابة المادية أو العقيدية بين أفراد الطائفة، من أجل تحقيق أهداف ليس لها علاقة بأسباب القرابة ولا بغاياتها ولا تخدم مصالحها بالضرورة.

فالطائفية، هي الأنموذج الأوضح لاستغلال الدين والعصبية في السياسة، والنظر إلى الجماعة الدينية من حيث هي جماعة مصالح خاصة، لا من حيث هي أفراد يبحثون عن نشر رسالتهم الدينية[60]، وبهذا المعنى ستؤدي الطائفية إلى إفشال البرامج السياسية ونزع طابعها المدني الشامل الذي من الممكن أن يخدم جميع أصحاب العقائد الدينية، كما تقود

---

[60] برهان غليون، نفس المصدر السابق.

إلى إفساد الدين نفسه؛ حيث تحول جموع المؤمنين بالله إلى مجموعات محاربة متقاتلة من أجل مصالح دنيوية، وتضطر إلى إعادة تفسير العقيدة نفسها بما يبرر السيطرة والعدوان والسطو على مصالح الجماعات الأخرى.

## كيف تنشأ الطائفية ؟

يقول "علي الوردي" في كتابه الشهير "مهزلة العقل البشري": "إن طبيعة البشر واحدة في كل زمان ومكان، والاختلاف فيما بينهم يرجع في الغالب إلى اختلاف في تكوين المجتمع الذي ينشأون فيه، وأن الصدفة وحدها هي من يحدد للفرد ذويه أو طائفته، ومن النادر جدا أن تجد شخصا لا يعتبر طائفته أنها الأفضل وأنها تمثل الخيار الصحيح، ولهذا فمن البديهي أن ينحاز كل فرد لطائفته"، وهذه الحقيقة تشكل اللبنة الأساسية التي يقيم بها الطائفيون بنيانهم. ويؤكد "الوردي" أن "الدين لا يردع الإنسان عن عمل يشتهي أن يقوم به إلا بمقدار ضئيل؛ فتعاليم الدين يفسرها الإنسان حسب ما تشتهي نفسه، وقد رأينا كيف كان القرآن أو الحديث مرجعاً وحجة لكثير من الأعمال المتناقضة، خاصة حينما تنازع المسلمون في صدر الإسلام، فلقد وجدناهم يقتل بعضهم بعضا ويكفر بعضهم بعضاً ثم يستندون في ذلك على نفس الآية والحديث". [61]

ويرى العديد من المفكرين أن وجود المشاعر الدينية القائمة على الإيمان، وكذلك مشاعر الانتماء والقربى التي تجمع أبناء الطائفة أو القبيلة لا تؤدي حتما إلى نشوء الطائفية بصورتها السلبية، ولا يعني تعدد الطوائف في مجتمع ما أن هذه الطوائف ستتصارع بالضرورة، وأنها لن تجد الأسلوب الأمثل للتعايش السلمي فيما بينها، ولا يعني أيضا وجود مزاج ديني في أي مجتمع يُعبَّر عنه من خلال تضامن ديني قوي داخل أبناء المجتمع أن ذلك سيوفر البيئة الخصبة لإنتاج الفكر الطائفي.

[61] د. علي الوردي، مهزلة العقل البشري، ط1، داركونان للنشر، لندن.

وفي هذا السياق، يرى "غليون" أن مشاعر الإيمان الديني وأواصر القربى هي تعبير عن وضع سليم وطبيعي في كل المجتمعات؛ فالمجتمع مكون من أفراد موزعين بين جماعات عديدة، ومن الطبيعي أن يشعر كل فرد بتعاطف أكبر مع الأفراد الذين يشاركونه المصلحة أو العقيدة أو الثقافة أو حتى المستوى الاجتماعي، ومن دون هذا التضامن وتلك الألفة الخاصة اللذان يجمعان بين أفراد الجماعة الواحدة لن يكون هناك أي معنى ولا مضمون للحياة الاجتماعية، بل أن تعزيز التكافل والتضامن داخل الجماعات التي تنتمي للمذهب أو القبيلة أو للمؤسسة الاقتصادية أو للحزب وجميع هياكل المجتمع المدني هو في الحقيقة غاية هذه الجماعات وهدفها[62]، كما أن الغاية من وجود الأحزاب هو تلمّس مصالح الطبقات والفئات الاجتماعية، وهذا أمرٌ طبيعي ومشروع، فمن حق كل إنسان أن تُحترم خصوصيته الثقافية والمذهبية، ولكن ليس من أجل العزلة والإنكفاء والتقوقع ضمن إطار أضيق، وإنما من أجل أن تتوافر كل الظروف والاشتراطات التي تسمح لكل الخصوصيات الثقافية والطائفية كي تمارس دورها في إغناء مفهوم المواطنة وتعزيز الوحدة الوطنية.[63]

أما تقوقع الطوائف وإنكفائها الداخلي فيؤدي إلى بروز مشاعر الطائفية، أي أن الطائفية تنشأ عندما تجعل إحدى هذه الجماعات هذا التضامن والتكافل وسيلة لتستأثر به على حساب الآخرين، وعندما يبدأ أصحاب المصالح بتحويل هذه المشاعر إلى وسيلة لتحقيق أهدافهم والدفاع عن إمتيازاتهم الجديدة، ونقطة استقطاب لتكتل قوامه الفكر الطائفي المغلق والمصلحة الذاتية الأنانية، فتصبح مشاعر القربى محفزا لكره الآخرين،

---

[62] برهان غليون، نفس المصدر السابق.

[63] محمد محفوظ، العبور نحو المختلف، مجلة تسامح، العدد 23، ديسمبر 2008، ص 108.

وتكتسب المشاعر الدينية صفات سلبية بحيث تضع نفسها فوق الآخرين، وقد يتعدى الأمر ذلك فتبدأ بتكفيرهم ومن ثم محاربتهم. وبتعبير آخر فإن الطائفية تحتاج إلى شرطين: قيادات شعبية انتهازية تضع مصلحتها الخاصة فوق المصلحة العامة، وجمهور من الغوغاء والمتعصبين.

ويعتبر "أدونيس" أن مشكلة الطوائف تتمثل بأن كل طائفة تؤمن بأن نبيها أو مرجعها الأعلى قد قال الحقيقة الأخيرة النهائية، وهذا يتطلب بالضرورة نبذ الحقيقة الأخرى التي تدعيها الطوائف الأخرى، مما يؤدي إلى التمركز حول الذات والإدعاء بأن الله يخصها وحدها ويفضلها على غيرها، وهذه النظرة قد تصل إلى حـد الإعتقاد بملكية الله - تعالى شأنه - والتماهي معه.[64]

والمجتمع العربي شأنه شأن الكثير من المجتمعات الإنسانية ينطوي على تباينات واختلافات عديدة في إنتماءات الناس وولاءاتهم الدينية واللغوية والإثنية والمذهبية، وهناك دائما من يسعى لاستغلال هذه التباينات لتمرير مخططاته وتحقيق أهدافه الخاصة، من خلال إيقاظ الغول الطائفي وإثارة القلاقل والفتن، ونستطيع تحديد الخيط الذي يجمع بين أحداث كثيرة وقعت في العراق وسورية ولبنان والبحرين ومصر، وحتى في الكويت، وبين المحاولات الدؤوبة والمستمرة لتعميق وإشعال الطائفية علي المستوى العربي؛ ففي العراق عكف البعض على استهداف المساجد والحسينيات الشيعية والكنائس، خاصة بعد الإحتلال الأمريكي، بل وفي ظله وبتشجيع منه، أملاً في إثارة وتهييج المشاعر الدينية، عن طريق التفجيرات والإغتيالات والمذابح، ودفع الجموع لرد فعل متسرع وغاضب يقود إلى إشعال غريزة الانتقام والثأر والانتقام المضاد، حتى لا

[64] أدونيس، الكتاب الخطاب الحجاب، مصدر سبق ذكره، ص 25.

يصبح بوسع أحد السيطرة على الموقف ومنع الانفلات، ووقف سلسلة العنف المتبادلة التي لا تنتهي.[65]

وإذا اعتبرنا أن إثارة الفتن الطائفية في المنطقة هي مؤامرة تستهدف إحكام السيطرة عليها؛ فإن أهم عناصر النجاح في أي مؤامرة كبيرة من هذا النوع هو العمل على انفلات المشاعر والغرائز الدينية، واستدراج ردود الفعل الجماعية الغاضبة التي تتجاوز التفكير والمنطق السليم والعقل الراشد، بحيث يُنفَّذْ الجانب الرئيسي من المخطط الشيطاني بأيدي عناصر وتنظيمات متشددة من العرب أنفسهم وعلى الجانبين، ومن المهم أيضا أن تكون الشعارات جاهزة والمخاوف مشتعلة ومفصحا عنها، وأن يأخذ السلوك السياسي طريقا يضاعف تلك المخاوف حتى تنعدم الثقة بين كل الأطراف.

---

[65] د. محمد السيد سعيد، تعريف الطائفية، جريدة الأهرام، 21-2-2005 العدد 43176.

# طائفية الأحزاب السياسية

الحزب، من الناحية الموضوعية هو تعبير عن مصالح وتطلعات طبقة، أو فئة أو طائفة، والأحزاب الإسلامية لا تشذ كثيرا عن هذه القاعدة، فهي حتى لو رفعت شعارات أممية عابرة للحدود والقوميات والطوائف، إلا أنه وبالتجربة العملية نلحظ أنها بعد فترة ينتهي بها المطاف في النزوع نحو الوطنية والمحلية، والتوغل في تفاصيل الواقع أكثر فأكثر، وستجد نفسها مجبرة على التعاطي مع الوقائع من حيث أنها تنتمي فكريا وأيديولوجيا إلى طائفة معينة، وبالتالي فإن أي شعار يترفع عن العنصرية والطائفية سيرفعه هذا الحزب أو ذاك، سيكون عبارة عن غطاء لإخفاء تلك الطائفية الكامنة، وهذا ما يفسر حصر عضوية أي حزب في الأفراد الذين ينتمون لنفس الطائفة، أو نفس الفئة.

وإذا سلمنا بأن المشاعر الدينية والقومية، وكذلك الأفكار والأيديولوجيا ليست سببا أكيدا في نشوء الطائفية، فإنها بلا شك عاجزة تماما عن منع ولادتها، ولو تأملنا في خطاب ونهج وممارسة الكثير من الأحزاب السياسية لوجدنا نزعتها الطائفية ظاهرة، (أو كامنة) بكل قوة، مهما ادعت غير ذلك؛ فإسلاميّة بعض الأحزاب وعروبة البعض الآخر لم تكونا إلا تكريساً لنزعة طائفية أو شوفينية. وفي هذا الصدد يتسائل الكاتب العراقي "أحمد عبد الحسين" عما أضافته كلمةُ الإسلام في اسم (حزب الدعوة الاسلاميّ، أو المجلس الأعلى للثورة الإسلاميّة الشيعيين، أو الحزب لإسلامي، أو هيئة علماء المسلمين السنية) إلى هوّية الحزب، وإلى أيّ حدٍّ كان اسمُ الإسلام مخفِّفاً من نزعة الحزب الطائفية؟ هل استطاع هذا الاسم (الإسلام) أن يوحد خطاب الأحزاب

الإسلاموية على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها؟ أم لعب دور الغطاء للتحريض على الطائفية؟! وهل تسمية "حزب الله" بهذا الاسم ألغت البعد الطائفي له؟! وهل إسلام تنظيم القاعدة هو نفس إسلام جيش المهدي؟ وهل هنالك حزب إسلامي يقبل في صفوفه من هم من خارج الطائفة؟[66]

هل انتسب لجماعة الإخوان المسلمين أحد من الشيعة؟ أو من أي طائفة أخرى غير السنة؟ وهل يقبل أي حزب إسلامي بوجود مسيحيين في صفوفه؟ وإذا وجدت حالات نادرة جدا من هذا النوع، فإلى أي مدى يمكن تعميم ذلك؟ وكم ستستمر؟ وما هو حجم تأثيرها؟؟

والبرامج السياسية التي تتحول بالممارسة العملية إلى طائفية بشكل أو بآخر، هي بهذا المعنى يمكن اعتبارها صراعاً على المصالح، وبالتالي هي ظاهرة دنيوية/ علمانية، أكثر منها ظاهرة دينية/ أخروية، فهي صراع على الدنيا باستخدام أدوات الدين.

والطائفية ليست حكرا على الأحزاب الإسلامية؛ إذ يعتقد البعض أنه بمجرد اعتناق الماركسية أو الدعوة إلى العلمانية أو التبشير بالحداثة أو رفع راية الإسلام أو المسيحية أو التنويه بالعروبة يعني ذلك أنهم سيحوزون على شهادة براءة من الطائفية، والحقيقة أن كثير من الأيديولوجيات والأحزاب (حتى التي تدعي العلمانية) تمارس الطائفية المقنعة، ثم تموه على الجماهير بهذا النوع من التحرر الزائف منها، وإذا كانت بعض الحركات والأحزاب تولد عقائدية (إسلامية أو مسيحية أو أممية)، سواء على مستوى الشعار أم

---

66 أحمد عبد الحسين، من هو الطائفي وما هي الطائفية، شبكة العراق الثقافية، 20-11-2004.
http://www.iraqcenter.net/vb/showthread.php?t=10129

بطهر ثوري لدى البعض؛ فإنها سرعان ما تتحول إلى طائفية، أو بعبارة أدق يتكشف وجهها الطائفي؛ فهي لن تحتمل كتمان حملها الطائفي طويلا.

ففي العصر الراهن، عصر ازدهار النزعات الانفصالية (طائفية، عرقية، قومية) الذي باتت فيه كل مجموعة ترى في نفسها تمايزا من أي نوع تسعى للاستقلال، أو على الأقل تسعى لحفظ وصيانة موروثها الثقافي وخصائصها المميزة، وبالتالي فإنه من الصعب إيجاد أي حزب سياسي قادر على تجاوز هذه النزعة، أو التخلص منها، هذا إذا لم يكن أساسا قام من أجلها. وعند الحديث عن أي حزب إسلامي، سنجد في خطابه شعارات أممية تتجاوز النزعات الانفصالية، ولكنّ هذا أبداً لم يلغِ ولم يقلل من السمات المحلية للحزب، الموغلة في التفاصيل الدنيوية، والتي تتنافى مع الشعار نفسه. بمعنى عجزها عن إنشاء هويات فوق دولانية وفوق قومية وفوق طائفية.

فتحت اسم الاسلاميُّ (والقوميُّ أيضاً) تحاول الأحزاب التكتم على الفوارق الطائفية (والعرقية أيضا) لكنها لا تطمسها نهائياً، تظلّ تحتفظ بها مركونةً تحت الطلب لأنها سلاحها الأمضى، وستبدأ بتصنيف الآخر على مسطرتها الطائفية العنصرية، ولأن معيارها هو درجة الإيمان سيكون هنالك في نظرها من هم مؤمنين، ومن هم اقل إيمانا، ومن هم عروبيون ومن هم أقلّ عروبة من سواهم، ومن هم وطنيون ومن هم عملاء، كما كان على الدوام من هم أكثر إسلاماً من سواهم.

مع أن الإسلام بجوهره ومضمونه هو الإيمان بالله وعمل الخير وحسب، وهذا كافٍ ليحفظ على المسلم نفسه وماله وعرضه، أما تصنيف المراتب والدرجات فهو تبعٌ للإيمان لا للإسلام، وهو من اختصاص الله سبحانه، بمعنى آخر فإن الجانب العقائدي

التطهري في تكوين الحزب أو في برنامجه لن يصمد طويلا أمام نزعات الأفراد والقيادات وميولهم ومصالحهم والتي تنتهي عادة بجر الحزب إلى مستنقع الطائفية، وإنزاله من عليائه في فضاء الفكرة المثالية إلى الواقع الدنيوي بتفاصيله الدقيقة.

فالطائفية موجودة فعلا، ونكرانها أو التنصل منها أو التنـزه عن التلفظ بها، والتبرؤ منها لا يعني أبداً أنها قد اختفت، أو أنها لم توجد أصلا، ففي خطاب المثقفين مثلا نجد تقديس الكلمات "كالوطنية والإسلامية" تقديساً مانعاً من رؤية الخصوصيات المذهبية أو العرقيّة التي تفعل فعلها بعيداً عن ساحة عمل المثقف وضدّ توقعاته أو أمانيه[67]، وهذه القداسة لم تمنع جميعَ الأطراف المتناحرة أن ترددها معاً في الآن ذاته، دون أن تكون قادرةً على إطفاء نار كراهيتهم، ذلك لأن توصيفات الطائفيين وتصنيفاتهم تُدخل من تشاء في رحمة الله، وتُخرج من تشاء منها بنفس السهولة، فالشعار هنا إسكاتيّ بامتياز، بمعنى أن كل ما يردده الطائفيون وهم يتناحرون لا يغدو عن كونه مجرد شعارات دوغمائية يتم توظيفها لتعبئة أبناء الطائفة وشحذ هممهم على القتل وزيادة منسوب الكراهية، وتأجيج مشاعر الحقد، لتسهيل مهمتها في القضاء على الآخر، وتبرير ذلك بمسوغات دينية وبنصوص مقدسة.

ومجرد رؤية مشاهد القتل العشوائي في المناطق لتي أُبتليت بالطائفية تؤكد دون شكّ أن جميع هذه الشعارات (المقاوَمة والانتماء الوطني والاسلاميّ) ما هي إلا عناصر مشتركة يتم تبادلها بين القاتل والقتيل، وكل العناوين الكبيرة التي يختفي خلفها الطائفيون كالإسلامية والقومية لم تشكل في أي يوم حاجزا أمام تفشي النعرات العنصرية، ولم تكن كافية للجم شهوة القتل، هذا إذا لم تكن حافزا لمزيد من القتل مدفوعة بشعارات الجهاد

[67] أحمد عبد الحسين، من هو الطائفي، مصدر سبق ذكره.

وقتل الكفار والمارقين، الأمر الذي جعل من الطائفية هياجاً مقدساً باسم إسلام يدعي أنه صحيح، أو حديث مدسوس يبشّر فرقة ناجية دون غيرها بالجنة، ويتوعّد كل ما سواها بالويل والثبور وعظائم الأمور.

ولو ألقينا نظرة سريعة على أدبيات العديد من حركات الإسلام السياسي لوجدنا الأساس الطائفي الذي تقوم عليه كل منها، ولو استمعنا لما يقوله قياداتها ورموزها ومرجعياتها، لوجدنا التأجيج الطائفي على أشد ما يكون وضوحا، وهذا التحريض يأخذ شكل الإدعاء بامتلاك الصواب والحقيقة، وأن الآخر كافر، أو مضلل في أحسن تقدير، ثم ينتقل لبثّ مشاعر الكراهية ضد الآخر، والدعوة لألغائه، أو للقتل والعنف في بعض الأحيان.

وهذا التحريض يبدأ من على منابر المساجد والحسينيات والكنائس، وينتهي بالقنوات الفضائية التي أصبحت بوقا لبث الفُرقة الطائفية، مرورا بأدبيات الأحزاب وبياناتها وتصريحات قادتها ورموزها. ويكاد لا يخلو خطاب لأي حزب ديني من التحريض الطائفي. ولا مجال لذكر أمثلة هنا لأن الجميع متورطون بهذا، ومن يريد البحث عليه فقط متابعة الدروس الدينية أو خطب الجمعة، أو القنوات الفضائية الدينية، أو متابعة قناة اليوتيوب على الشبكة العنكبوتية.

# هل الدولة الدينية طائفية بالضرورة ؟

تدعو أغلبية حركات الإسلام السياسي إلى إقامة دولة إسلامية، أو استعادة نظام الخلافة، أو تطبيق الشريعة وجعلها أساس نظام الدولة، بمعنى أدق، تسعى هذه الحركات للحكم والسلطة، وإقامة نظام سياسي على أساس أيديولوجيتها الحزبية، وأيٍ كان اسم وشكل هذه الدولة، فهي دولة دينية، يحكمها رجال الدين، على أساس ديني.

والمعنى اللغوي والاصطلاحي للدولة الدينية يعني الدولة التي يكون دين الأمة (الشعب) هو المحرك والمهيمن على كل أنشطتها، وهو المعيار الأساسي والمعين الوحيد لقوانينها وأنظمتها. وقد شُحن هذا المصطلح بمعانٍ أخرى وأضيفت له هوامش وشروحات مما جعل استخدامه محفوفا بكثير من الإشكاليات، ولو فتشنا في الكتب الإسلامية القديمة لن نجد لمصطلحات "الدولة الدينية" أو "الدولة المدنية" أي أثر، ما يدل على أنها مفردات وفدت من خارج البيئة الإسلامية. في حين تسمي الأدبيات العلمانية هذه الدولة بالدولة "الثيوقراطية". والسؤال هنا: هل تؤدي الدولة الدينية إلى بروز الطائفية بالضرورة؟!

إن إقامة دولة إسلامية تعني باختصار تنصيب خليفة للمسلمين، والخليفة حسب المفهوم الإسلامي صاحب سلطتين زمنية وروحية؛ وبالتالي فإن طاعته واجبة وملزمة على جميع رعايا الدولة على حد سواء. والسلطتان الزمنية والروحية، عابرتان للحدود والقوميات، فهما فوق القومية، وفوق الطائفة، وفوق الدولة بالمعنى السياسي والجغرافي المألوف في الأزمنة الحديثة. وهذا الأمر ينطوي على إشكالية معقدة تحتاج إلى حلول مبتكرة وجذرية، سيما وأنها لم تكن مألوفة في عهد الخلافة السابقة، أي في مرحلة ما قبل

القومية والدولة الحديثة. وهذه الإشكالية تتلخص في إخضاع المسلمين ممن هم من غير طائفة الخليفة، والذي بالضرورة سيكون سنيا إذا استلم الحكم حزب سني، وشيعيا إذا استلم الحكم حزب شيعي، وتجارب الدول الإسلامية في الوقت الراهن تعطينا فكرة واضحة عن صعوبة ذلك (بل واستحالته)، خاصة في ظل أجواء الشحن الطائفي، فضلا عن إشكالية إخضاع غير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى.

ومن ناحية ثانية فإن أدبيات حركات الإسلام السياسي قد تقبل التعايش مع المسيحيين واليهود باعتبارهم أهل كتاب، ولكن هذه النظرة تختلف مع طوائف أخرى تسكن البلدان العربية والإسلامية، مثل البهائيين، الدروز، العلويين، اليزيديين... إلخ، حيث نلاحظ أن الخطاب السياسي لعدد كبير من الأحزاب الإسلامية تتعامل مع هذه الطوائف على أنهم كفرة، خارجين عن الدين، روافض. فضلا عن الخلاف القائم بين السنة والشيعة.

وعندما تكون الدولة دينية، فإن العلاقات الاجتماعية بين الناس ستنتظم على أساس ديني، أي سينشأ عنها مجتمع ديني (إسلامي)؛ وهذا المجتمع سيعتمد أساسا على وجود التشكيلات الاجتماعية الإرثية التي لا يملك فيها الفرد بصورة عامة إمكانية الإختيار، حيث يكون انتماؤه للدين، أو عضويته للطائفة إجبارية (وراثية)، فمن الناحية الموضوعية لا يوجد مؤمن لا ينتمي لطائفة، وفي الحالة الإسلامية فإن أي مسلم لا بد أن يكون تابعا لإحدى الطوائف (سنة، شيعة، غير ذلك)، حتى لو لم يكن ذو فكر طائفي.

وكما سبق وأوضحنا، بأن وجود المشاعر الدينية ومشاعر القربى التي تجمع أبناء الطائفة لا تؤدي حتما إلى نشوء الطائفية بصورتها السلبية، بل ربما تجد تلك الطوائف أسلوبا ما

للتعايش السلمي فيما بينها، لكن سيادة النزعة الدينية في أي مجتمع قد توفر البيئة الخصبة لإنتاج الفكر الطائفي؛ وبالتالي فإن التعايش السلمي الإيجابي بين الطوائف والأعراق لا تضمنه إلا دولة ديمقراطية تعددية.

حيث في ظروف معينة يطغى فيها الجو الديني المتعصب يضعف هذا التعايش، وتنشأ بدلا منه الطائفية؛ كما يحدث عندما تنكفيء طائفة على ذاتها بسبب شعورها بالتهديد، أو عندما تستأثر إحدى الطوائف القوية على مقدر الدولة، أو عندما يبدأ أصحاب المصالح باستثارة المشاعر الطائفية، في مثل هذه الحالات تبرز المشاعر الطائفية.[68]

المستوى الآخر الذي يوفر بيئة خصبة لنشوء الطائفية، هو المستوى الذي توفره الدولة نفسها، أو النظام السياسي الحاكم، خاصة عندما تحكم طائفة مسيطرة ترفض الطوائف الأخرى علنا (السعودية مثلا)، أو عندما يكون دستورها قائما على صيغة طائفية (لبنان مثلا)، أو عن عندما تحتكر السلطة طائفة معينة (إيران مثلا)، أو عندما تمارس الطائفية تحت شعارات قومية ومدنية (سوريا مثلا)، أو عندما تهيمن على مقدراتها طائفة قوية في ظل سعار طائفي (العراق مثلا)، أو عندما تصادر الدولة حقوق طائفة ضعيفة (البحرين مثلا) أي في ظل الدولة الطائفية التي لا تساوي بين مواطنيها على أساس القانون والمواطنة.

وفيما يتعلق بالدولة الإسلامية، سنجد في دستورها، وحسب أدبيات جماعات الإسلام السياسي؛ أن الدولة الإسلامية لا تعترف بالمجتمع المدني، ولا بمفهوم المواطَنة (المستخدم حاليا)، ولا تنظر لرعاياها على قدم المساواة من حيث الحقوق والواجبات، فالمسيحي واليهودي في نظرهم هم أهل كتاب، أو ذميين، عليهم دفع الجزية (وكذلك

---

[68] محمد محفوظ، العبور نحو المختلف، مجلة تسامح، العدد 23، ديسمبر 2008، ص 108.

أتباع الطوائف الدينية الأخرى)، وليس مطلوبا منهم الانخراط في جيش الدولة، ولا يحق لأحدهم تولي منصب الخليفة، أو القضاء، أو أي منصب قيادي هام في مؤسسات الدولة مثل إمارة الولايات، ولا يحق لهم إنشاء أحزاب أو جمعيات أو نقابات تمثل طوائفهم ومذاهبهم. وهذا مختلف عن منع الدولة المدنية الحديثة تشكيل الأحزاب والنقابات على أسس دينية ومذهبية.

لكن دستور الدولة الإسلامية (كما اقترحه حزب التحرير مثلا) ضَمِنَ حق الجميع في العبادة، وممارسة طقوسهم بحرية (مقيدة)، وضَمِنَ حقوقهم المدنية، ومعاملتهم أمام القضاء بعدل ودون تمييز. ويمكن القول أن هذه النظرة تنطبق أيضا على بقية الطوائف والأقليات، فمثلا جاء في مشروع دستور الدولة الإسلامية حسب حزب التحرير في المادة 6: لا يجوز للدولة أن يكون لديها أي تمييز بين أفراد الرعية في ناحية الحكم أو القضاء أو رعاية الشؤون أو ما شاكل ذلك، بل يجب أن تنظر للجميع نظرة واحدة بغض النظر عن العنصر أو الدين أو اللون أو غير ذلك.

ولكن، حتى لو ضَمنت الدولة أمنهم وممتلكاتهم إلا أنها لا تعطيهم نفس الحقوق الممنوحة لعموم المسلمين، وللتوضيح نورد بعض المواد من دستور الدولة الإسلامية،[69] الذي يؤكد على عدم المساواة بين المسلمين وبقية الطوائف في بعض القضايا، مثلا لا يحق لغير المسلمين الترشح لمنصب الخليفة، ولا حتى الحق في انتخابه. المادة 26 : "لكل مسلم بالغ عاقل رجلاً كان أو امرأة الحق في انتخاب الخليفة (رئيس الدولة) وفي بيعته،

---

[69] المكتب الإعلامي لحزب التحرير، الموقع الرسمي، http://www.tahrir-syria.info/index.php/dostor/126-mashro3dostor.html

ولا حق لغير المسلمين في ذلك". ولا يحق لغير المسلمين تولي القضاء؛ المادة 76: "يعين الخليفة قاضياً للقضاة من الرجال البالغين الأحرار المسلمين العـقـلاء العدول من أهـل الفقه". وأيضا، المادة 78 : "يشترط فيمن يتولى القضاء أن يكون مسلماً، حراً، بالغاً، عاقلاً، عدلاً، فقيهاً." ومع أنه سمح لغير المسلمين الترشح لمجلس الأمة، إلا أنه قيد صلاحياتهم وواجباتهم خلافا للمسلمين؛ المادة 107 : "لكل من يحمل التابعية إذا كان بالغاً عاقلاً الحق في أن يكون عضواً في مجلس الأمة وفي مجلس الولاية، رجلاً كان أو امرأة مسلماً كان أو غير مسلم، إلا أن عضوية غير المسلم قاصرة على إظهار الشكوى من ظلم الحكام، أو من إساءة تطبيق الإسلام".

كما فرض الدستور دفع الجزية على مواطني الدولة من أهل الكتاب؛ المادة 144: "تُجبى الجزية من الذميين، وتؤخذ على الرجال البالغين بقدر ما يحتملونها، ولا تؤخذ على النساء ولا على الأولاد".

كما ميز الدستور بين المسلمين وسواهم في مجال دفع الضريبة؛ فألزمها على المسلمين، وأعفى غيرهم منها، المادة 146: "تستوفى من المسلمين الضريبة التي أجاز الشرع استيفاءها لسد نفقات بيت المال". وكذلك في دفع الزكاة والانتفاع منها؛ المادة 143: "تجبى الزكاة من المسلمين، ولا تصرف إلا لواحد أو أكثر من الأصناف الثمانية الذين ذكرهم القرآن الكريم."

فضلا عن بعض الآراء الفقهية التي لا تساوي المسلم بالذمي، كما هو الحال في مسائل الدية، والعقوبات، وأنه لا يجوز قتل مسلم بدم ذمي (أي المسلم الذي يقتل مسيحيا لا يعاقب بنفس العقوبة فيما لو أنه قتل مسلما آخر)..

هذه النظرة غير المتساوية تجاه رعايا الدولة (المواطنين والمقيمين) لا نجدها في الدولة المدنية مثلا، وإن وجدت فتكون حالات شاذة ضمن سياقات الفساد والتجاوزات. والسبب أن طبيعة الدولة المدنية ووظيفتها وتركيبتها والسياقات التاريخية التي أنجبتها تختلف في كليا عن الدولة الدينية.

فالدولة المدنية نتاج لعملية الانتقال من مرحلة ما قبل الحداثة والدولة التقليدية القائمة على القبيلة والطائفة، إلى مرحلة الحداثة، والدولة الحديثة، أي بعد نضوج فكرة السياسة الوطنية، وتكوّن مؤسسات الدولة ومؤسسات المجتمع المدني.

## العامل الخارجي في تأجيج الطائفية

العامل الخارجي في تحفيز الطائفية لا يقل أهمية عن العوامل الداخلية؛ حيث يكمل كل منهما الآخر، وطالما لعب العامل الخارجي دورا حاسما في معارك السيطرة الاستعمارية وتفتيت الأمة، فحتى يكتمل المشروع الاستعماري ويضمن لنفسه النجاح والاستمرار، كان لا بد له أن يقيم ركائز موضوعية تمده بأسباب البقاء، وتقلل من خسائره وأعبائه اليومية، وتعيق الجماهير من ممارسة المقاومة، أو تحرفها عن مسارها وأهدافها الكبرى، وتشغلها في حروب جانبية وقضايا هامشية.. وركائز هذا المشروع هي ركائز القوى المضادة للثورة، أو ما يطلق عليها الثورة المضادة، وهي في الأساس موجودة في بنية المجتمع، إلا أن القوى الاستعمارية دعمتها ومن ثم استقوت بها، وتأتي الطائفية كركيزة هامة في هذا المضمار، لتلعب دورا خطيرا من خلال إشعال الحروب الأهلية وصرف الأنظار عن القضايا المركزية، لذلك فإن القوى الطائفية لن تتورع عن التحالف مع الأعداء ضد أبناء الوطن في سبيل تحقيق أغراضها الطائفية.

وقد رأينا كيف لعبت الطائفية دورا خطيرا في إشعال حرب أهلية في الهند إبان استقلالها، أدت إلى أكبر موجة نزوح جماعي في التاريخ، تخللتها موجات من القتل الجماعي أودت بحياة الآلاف من الأبرياء من الهندوس والمسلمين، وانتهت بتقسيم الهند وانسلاخ باكستان عنها، ولو استعرضنا دور الفتنة الطائفية في خدمة القوى الخارجية على مر التاريخ لوجدنا العديد من الأمثلة الأخرى، والتي كانت في كل مرة تبرهن على مدى خطورة هذا العامل وكيف كان يشكل أداة اختراق للقوى الخارجية تنفذ من خلالها إلى قلعة الوطن.

وعندما برزت المسألة الشرقية أواخر القرن التاسع عشر وأرادت القوى الكبرى إيجاد موطئ قدم لها في المنطقة، لم تجد مدخلا أفضل من الطائفية، فتَحْتَ حجة حماية الكاثوليك دخلت فرنسا، وبحجة حماية الأرثوذكس حاولت روسيا التدخل، أما بريطانيا فلم تجد رعايا بروتستانت في المنطقة فتذرعت بحماية الدروز، الأمر الذي تسبب بمذابح الجبل عام 1860،[70] واليوم تحاول أمريكا التدخل في شؤون الدول والضغط على الحكومات واحتلال البلدان بذريعة حماية الأقليات الدينية.

وقد ركز المخطط الصهيوني ومنذ مرحلة مبكرة على تفتيت مجتمعات الأمة العربية وتجزئتها، بالإعتماد على القوى الطائفية، إلا أن خطورة وأهمية هذا العامل قد إزدادت كثيرا بدخول الولايات المتحدة في هذه الحلبة كلاعب مباشر يستعمل كل مكونات الطائفية في لعبة الهيمنة على ثروات وشعوب المنطقة العربية.

في خمسينيات القرن الماضي أشار "بن غوريون"[71] إلى ضرورة ضرب وتفتيت المجتمع العربي من خلال خلق الفوضى البناءة في الحلقة الأضعف منه، والتي كانت من وجهة نظره متمثلة في لبنان، وقد أختير لبنان كبداية نظرا لهشاشة تركيبته الطائفية[72]، وكانت المارونية السياسية (يقابلها الإسلام السياسي) هي بداية الحلقة، من خلال إيجاد دولة مسيحية داخل لبنان نفسه، ومع أنهم ليسوا أكثرية في لبنان وبالرغم من أن إرهاصات القومية العربية تدين لمفكرين مسيحيين لبنانيين أكثر من غيرهم، إلا أن الاختراق الأمني الإسرائيلي قد نجح في التحالف مع البرجوازية المسيحية من خلال بعض

---

[70] خالد الحسن، أمريكا وإسرائيل-إسرائيل مشروع استعماري، منشورات دار الكرمل، عمان، 1985.

[71] أول رئيس وزراء لإسرائيل. (1948 ~ 1954)، (1955 ~ 1963).

[72] وليد رجا الكردي، الطائفية، مصدر سبق ذكره.

القيادات المغامرة، وكان من الواضح أن هذه الدويلة لن ترى النور دون العون الإسرائيلي، ودون إغراق لبنان كله في حرب طائفية.

وقد أعد المستشرق الإنكليزي اليهودي "برنارد لويس" دراسة في عام 1979 لتقسيم المنطقة الإسلامية الممتدة من باكستان إلى المغرب العربي إلى دويلات طائفية ومذهبية [73]، والتصور العام كان تقسيم مصر بين المسلمين والأقباط، والعراق بين السنة والشيعة والأكراد، ودول المغرب العربي بين الأمازيغ والعرب، وسورية بين السنة والعلويين، والسعودية إلى دولتين، ولبنان إلى عدة دويلات والسودان إلى أربعة وهكذا.. ومن نافل القول أن وجود هذا المخطط لا يعني نجاحه بالضرورة، ولكن محاولة تنفيذه هو ما يجري الآن، ولكي يتم تدعيم وبناء هذا المشروع الطائفي ينبغي استخدام كافة الوسائل دون النظر إلى المستوى الأخلاقي المنحط، بتنفيذ القتل الجماعي بالتفجيرات، أو فرق الموت، كما يحدث في العراق وسوريا، والاغتيالات كما في لبنان والإبادة الجماعية كما في دارفور، والمذابح الفظيعة التي جرت بحق المسلمين في البوسنة والهرسك أوائل التسعينات.

[73] وليد رجا الكردي، الطائفية، مصدر سبق ذكره.

## الطائفية في خدمة الصراعات السياسية في المنطقة

منذ أن قامت الثورة الإسلامية في إيران في شتاء عام 1979 لم تخفي نواياها في تصدير الثورة، الأمر الذي فسره بعض المراقبين على أنه محاولات لإعادة أمجاد "الفرس" الغابرة، وإحياء الدور "الصفوي" في المنطقة، ولكن هذه المرة بوجه إسلامي جديد؛ فطوال قرون من القمع والتنكيل ظل الحلم الشيعي خلالها مختبئا متواريا في ثوب التقية، يتناقلة الملالي من جيل إلى جيل، حتى أحياه "الخميني" عندما أعلن عن ولاية الفقيه.

وبعد حرب ضروس مع العراق استمرت ثماني سنوات، سُعِّرَتْ خلالها نيران الطائفية كوقود للهجمات المليونية التي كان يشنها الجيش الإيراني على جيرانه "البعثيين" الذين لم تعترف ملالي إيران بإسلامهم، واعتبرت أن قتلهم هو مفتاح الدخول إلى الجنة، وبعد أن هُزم العراق في حربين مدمرتين مع تحالف دولي تقوده أمريكا، صار بإمكان إيران أن تعلن عن نفسها من جديد كشرطي للمنطقة.

وفي الجهة المقابلة من المشهد، سنجد أن أمريكا ومنذ اعتلاء المحافظين الجدد سدة الحكم (حقبة الرئيس الأسبق بوش) قد دشنوا مرحلة جديدة من الكولونيالية، قوامها احتلال الدول والسيطرة على المواقع الحيوية من العالم، والتحكم في النفط، تحت ذريعة الحرب على الإرهاب ونشر الديمقراطية وحماية الأقليات..

ولا يجب أن يُفهم التنافس الإيراني الأمريكي في السيطرة على المنطقة على أنه صِدام حضارات، أو صراع بين الخير والشر، فأمريكا لا تتورع عن دعم أعتى الأنظمة الشمولية وأكثرها ظلامية، أو عن معاداة أي تحولات ديمقراطية في أي بلد في العالم، وديدنها الوحيد مصالحها، وبوصلتها أطماعها، وملالي قُـم وطهران على استعداد لتكرار

"إيران غيت" في أي وقت، والتحالف مع الأمريكي في أي مكان طالما أن ذلك يخدم مصالحهم، وليس أدل على ذلك من التحالف الخفي بين البعض من شيعة العراق – المؤتمرين بأمر مرجعياتهم الإيرانية – مع المحتل الأمريكي، وعدم حدوث أية أعمال مقاومة في المناطق الشيعية، والتفاهمات بين الطرفين على ترتيب البيت العراقي من خلال تنصيب حكومة إيرانية تتكلم اللهجة العراقية.

أمريكا تريد بناء شرق أوسط جديد بترتيبات أمنية دائمة تؤمّن حماية مصالحها وسيطرتها على النفط والممرات المائية وتضمن تفوق إسرائيل، أما إيران فتريد أن تكون لاعبا أساسيا في المنطقة يُحسب لها ألف حساب، ولكن الأمر لن يقتصر على العراق وحده؛ فالشرق الأوسط الأمريكي يمتد من أفغانستان إلى المغرب، والقوس الشيعي الإيراني يمتد من أصفهان إلى صور، ومن أجل هذا تلعب إيران في المنطقة وتحرك حلفائها لتحقيق هذه الرؤية: في العراق حكومة المالكي وميليشيا المهدي، وفي لبنان حزب الله، وفي فلسطين حماس والجهاد، وفي اليمن الحوثيين.

والخلاصة أن المنطقة برمتها – اليوم في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين واليمن وليبيا وغدا في مناطق أخرى – تعتمل فوق فوهة بركان يوشك أن ينفجر في وجه الكل، واللاعبين المخفيين الذين يضرموا النار في المنطقة ويؤججوا الصراع هم كل من أمريكا وإسرائيل، وإيران، والتاريخ يخبرنا أن الأطراف الخارجية عندما تلعب في منطقة ما فإنها لا تتورع عن فعل أي شيء، لأنها بلا ضمير وبلا رحمة، وتختبئ خلف شعارات ديماغوجية مضللة كنشر الديمقراطية، أو نشر الإسلام، وتستعمل البُعد الطائفي حطبا

لحروبها، وإذا لم ننتبه لهذا اللاعب الخفي فإن الجميع سيخسرون.. ولكن بعد فوات الأوان.

والدول التي تكون عُرضةً أكثر من غيرها لغول الطائفية هي التي لا يتحقق في تركيبتها الإثنية التجانس الكافي، أي التي تنطوي على تعدد طائفي أو تعدد مذهبي، وهذا هو الشرط الأول، ولكنه ليس كافيا، فمصر - على سبيل المثال – في أغلبيتها الساحقة مسلمين سُنّة، ولكنها تضم نسبة من المسيحيين الأقباط، وهؤلاء تعايشوا معا سلميا وبنوا دولتهم بشراكة وتعاون دون أي منغصات لقرون طويلة (باستثناء حالات معينة جرت في العقود الأخيرة)، أما الكويت والبحرين كمثال آخر فهي دول جُلّ سكانها مسلمين، ولكنهم ينتمون إلى مذاهب دينية مختلفة (سنّة وشيعة)، وهؤلاء أيضا تعايشوا معا سلميا وبنوا مجتمعاتهم بشراكة وتعاون دون أي منغصات لقرون طويلة (وأيضا باستثناء ما يحصل حاليا)، وإذا سألت أي مواطن من هذه الدول سيجيب بعفوية أن لديه أصدقاء من الطائفة الأخرى، وربما أكد وجود نَسب أو تزاوج أو جيرة أو زمالة في العمل... ورغم هذا وذاك؛ فإن الفتنة الطائفية تهدد أمن واستقرار تلك الدول وتنذر بتفتيت نسيجها الاجتماعي الذي ظل متماسكا منذ أمد طويل!! ما يعني أن هنالك أيدي خفية تلعب في الزوايا المعتمة، وتحيك مؤامراتها تحت جنح الليل، وهي تلك القوى المشبوهة التي تعمل على توفير بقية العوامل اللازمة لإيقاظ الفتنة وإشعال فتيل الطائفية.

في بعض المحافظات المصرية مثل أسوان والمنيا والإسكندرية والقاهرة، حيث تتواجد أحياء وقرى مسيحية في مناطق تشهد نفوذاً قوياً لجماعات أصولية، كانت تجري في هذه

المناطق مناوشات ونزاعات واقتتال طائفي، وكانت تصل الأمور في كثير من الأحيان إلى حد القتل والخطف وتبادل الاتهامات وتحميل كل طرف المسئولية للآخر، الطوائف المسيحية كان هاجسها الخوف على وجودها ومستقبلها، بينما الجماعات الأصولية كان دافعها فتاوى منفلتة وتربية طائفية وشحن عاطفي تلهبه أيديولوجيا متطرفة، وكانت التأثيرات الخارجية هي العامل المكمل والداعم لتأجيج الفتنة، أي تأثير البرنامج العالمي للإسلام السياسي من جهة، والتدخل الأمريكي في الوضع الداخلي بحجة حماية الأقليات وضمان حرية الأديان من جهة ثانية..

وكذلك شهدت ساحات البحرين والكويت مناوشات ونزاعات سياسية على خلفيات مذهبية، ولكن بالتمحيص والتدقيق يتبين أن الأسباب الحقيقية للصراع ليست طائفية، ولكنها تأثرت بالأحداث الطائفية التي جرت في دول أخرى، حيث أن الخلخلة الطائفية في دولة تؤدي لخلخلة في دول أخرى، فما حدث في العراق انعكس كثيرا في البحرين على سبيل المثال، ولكن الطائفية لم تكن أكثر من الدخان الذي يحجب الحقيقة ويمنع رؤيتها، فقد كانت العوامل الموضوعية الأخرى هي المحرك الحقيقي لإحداث التغيرات من خلال الإستقواء بالعامل الطائفي، أي أن العوامل الاقتصادية والجيوسياسية والأمنية كانت وراء الكثير من الأحداث، وقد مثلت التفسير العلمي للكثير من المواقف والتغيرات، حتى أن بعض القوى الطائفية كانت ترفع شعارات مضللة للتغطية على توجهاتها السياسية أو الطائفية مثل شعارات الحقوق المدنية والمساواة وحرية التعبير، وتتعمد الإبتعاد عن الشعارات الدينية الواضحة.

وإيران تستغل الوجود الشيعي في تلك البلدان لإيجاد موطئ قادم لها وللتأثير على المعادلات السياسية في المنطقة، من خلال الضغط الداخلي وإحداث القلاقل وافتعال المشاكل، مستغلة الهيمنة العاطفية والروحية للمرجعيات الدينية في قم وطهران والنجف.

ولا شك أن بعض البلدان العربية قد أبتليت بالطائفية أكثر من سواها - نخشى أن نقول في المستقبل قبل سواها - أي بعد أن تعم الطائفية في كل المنطقة العربية، لبنان والعراق وسورية حاليا يتعرضون لخطر الغول الطائفي أكثر من سواهما، لذا لا بد من دراسة وتحليل أسباب الأزمة في تلك البلدان، دون أن يعني ذلك أن بقية البلدان في منأى من هذا الخطر، سيّما وأن الفتنة الطائفية تطل برأسها بين الفينة والأخرى في مصر والكويت والبحرين وبلدان أخرى وبدرجات متفاوتة.

ولعل لبنان مثّل الحالة الأولى لخطر الطائفية، والسبب أن الاستعمار الفرنسي حينما غادر المنطقة خلف وراءه ما يُعرف بالصيغة اللبنانية القائمة على إبقاء حالة من التوازن بين كافة الطوائف وتقاسم السلطة على الطريقة اللبنانية[74]، وهذه الصيغة وغيرها من الحالات الطائفية تجعل الأوضاع الداخلية قابلة للتفجير في أي لحظة، ومن المعروف أن المجتمع اللبناني يضم أربعة طوائف رئيسة يتفرع عنها طوائف أخرى أصغر حتى يصل عددها إلى ثلاثة عشر طائفة وأقلية[75]، والطوائف الرئيسة هي المارونية والشيعية والسنية والدرزية، وبعض هذه الطوائف ولأسباب عديدة كانت تستدعي طلب الحماية الخارجية بل وتعتمد عليها.

---

[74] خالد الحسن، الأزمة اللبنانية- محاولات للفهم، دار الكرمل، ط1، 1987، عمان، ص 11-25.

[75] هيلينا كوبان، لبنان 400 سنة من الطائفية، منشورات هاي لايت، لندن، ط1، 1985، ص22.

ظل المجتمع اللبناني بطوائفه مثالا يُحتذى في التعايش السلمي الحضاري لمئات السنين، بل أن الطوائف هي التي كان لها الفضل في صياغة الوطنية اللبنانية، وهي التي لعبت دورا تاريخيا أساسيا في ظهور النظام اللبناني، والمفكرين المسيحيين كان لهم دورا رياديا في مشروع النهضة العربية، حيث كان هؤلاء الرواد يرون أن هويتهم عروبية، وأن مستقبل طوائفهم لا يمكن أن يكون خارج إطار العروبة، وأن امتداد لبنان ينبغي أن يكون حتما باتجاه الشرق العربي، خلافا لما كانت تبثه بعض الشرائح الاجتماعية الصغيرة ممن ارتبطت مصالحهم بالخارج بأن جذور لبنان فينيقية أو إغريقية، وبالتالي فإن هويتها لا بد أن تكون بحر متوسطية.

ولما قام الكيان اللبناني وحَكَمه دستورٌ ليبرالي شبه ديمقراطي (سُنَّ عام 1926)، ينص على توزيع السلطة بين الطوائف، مع منح الموارنة امتيازات إضافية على حساب الآخرين، ومع تكون العديد من الأحزاب والتيارات السياسية منذ بدايات القرن العشرين، وفي ظل ظروف سياسية واقتصادية معقدة ومتداخلة لعبت فيها أطرافا خارجية كل حسب مصلحته، وجدت هذه القوى نفسها في مواجهة مع القوى اليمينية التي كانت تتمتع بتلك الامتيازات، ثم تطورت الأمور مع اشتعال فتيل الحرب الداخلية حتى تكشفت الأقنعة الطائفية التي كانت تتستر خلفها العديد من تلك القوى، وبذلك وجدت التركيبة الطائفية نفسها أمام منزلق خطير، لم يكن بالإمكان تفاديه رغم نداءات العقلاء التي ذهبت أدراج الرياح.

فهذه الطائفية التي خدمت الفئات الحاكمة المستبدة لعقود طويلة، ارتدت إلى نحور مروجيها ومشعليها، لأنها عادة ما تكون سلاحا ذو حدين، فهي قد تخدم فئات معينة

لفترة من الزمن ولكنها لا تدوم، وتصبح وبالا على يد الفئات التي قمعتها. وفي هذا السياق يرى الكاتب "فؤاد خليل" أن معظم الطوائف في لبنان أخذت تبني واقعها بما يتعدى كونها مجرد جماعة دينية، وذلك في ظل التطور السوسيولوجي والتاريخي لتشكل لبنان الحديث، بحيث تمكنت من بناء واقعها على الصعيدين السياسي والأيديولوجي.. ففي عهد المتصرفية أحرزت الطوائف في جبل لبنان تمثيلها السياسي بحيث تحددت لكل طائفة حسب البروتوكول المعمول به ممثل أو أكثر في مجلس إدارة ذلك العهد، كما جرت حركة تمأسس أيديولوجي آخر من خلال بعض المدارس والجامعات والروابط الأهلية، ويُظهِر السياق السوسيوتاريخي المختصر أعلاه، أن الطائفة تحولت من خلاله إلى مؤسسة تمثيل سياسي وإلى إطار مؤسسي أيديولوجي يعمل على تمتين لُحمتها الداخلية وترسيخ عصبيتها الطائفية وعلى إنتاج أيديولوجيتها الطائفية... وهكذا يكون بناء كل طائفة قد ارتبط بالسياق نفسه الذي تأسس فيه النظام السياسي الطائفي، وتألف في ضوئه الكيان اللبناني الحديث.. وهذا ما يؤكد أن الانتظام المؤسسي للطائفة لا يقوم إلا بنظام سياسي طائفي أو بدولة طائفية، والتي هي شرطه الضروري.[76]

ويرى الكاتب العراقي "حسين الموزاني" أن الحرب الأهلية في لبنان والتي دامت خمسة عشر عاما وأكلت من لحم اللبنانيين ودمائهم الكثير (قُتل فيها نحو 2٪ من مجموع السكان[77]) كانت حرباً سياسيّة أيديولوجية بالمفهوم الحرفي للعبارة، أي أنها كانت حرباً بين اليسار واليمين في لبنان، تماماً مثلما كانت الحرب الأهلية الإسبانية بين الجمهوريين والفاشيين، ويفسر ذلك بحالة الاصطفاف والاستقطاب بين القوى المتحاربة، حيث

[76] فؤاد خليل، الطائفة انتظام مؤسسي لا كيان مستقل، جريدة الأخبار، 24-11-2006.

[77] هيلينا كوبان، لبنان 400 سنة من الطائفية، ص 9.

كان المسيحي والشيعي والسني والشيوعي والاشتراكي (والفلسطينيين) يقفون معا في معسكر اليسار في بيروت الغربية وموسكو من ورائهم، مقابل معسكر بيروت الشرقية حيث معقل الميلشيات اليمينية والفاشية، المدعومة من واشنطن وحلفائها.

أما التحالفات الإقليمية التي كانت كل من سوريا وإسرائيل تشكلان محوريها الأهم فقد كانت متغيرة تبعا للظروف السياسية، الآن تغيّر كل شيء، معسكر اليسار العالمي قد اندحر، والمعادلة السياسية الكونية تغيرت بصورة جذرية، والقوى الطائفية حلت محل اليسار في لبنان.

على أية حال مهما كان توصيف الحرب اللبنانية وتحليل مسبباتها، وسواء كانت حرب اليمين ضد اليسار، أم حرب الطبقات المسحوقة ضد البرجوازية، أم حربا بالوكالة بين القطبين الدوليين، أم حرب المخابرات العالمية والإقليمية على الأرض اللبنانية، أم حرب التغيير التي تقودها الفئات الاجتماعية المتناقضة، أم حرب التحرير التي يقودها الفلسطينيون بالتحالف مع القوى الوطنية اللبنانية.. فأن الحرب في لبنان بقدر ما كانت سياسية بامتياز، كانت في عديد من جوانبها حربا أهلية حطبها الطوائف ووقودها الطائفية، ولولا الشحن الطائفي لما استمرت كل هذه السنين، ولما خلفت ورائها هذا الحجم المرعب من الدمار والتخريب والقتل والتشويه، والأهم من هذا كله، أن عوامل التفجير ما زالت كامنة، وأسباب الفتنة متحفزة وتلعب بها الآن أيدي خفية تريد للبنان الخراب والدمار مرة أخرى، فقط من أجل بعض المكاسب الطائفية أو لتمرير مخططات إقليمية.

ومن الجدير بالذكر، أن حركات الإسلام السياسي الحالية لم تلعب دورا مؤثرا في الحرب اللبنانية الأهلية (1975~ 1990) لأنها لم تكن موجودة آنذاك، لكنها حاضرة اليوم وبكل قوة، وهي المسؤولة عن أجواء الشحن الطائفي التي تسود الأراضي اللبنانية.

أما في الحالة العراقية فيعتقد "حسين الموزاني" أن الأزمة التي يشهدها العراق حاليا تعود إلى "الدين" الذي كان دوما عامل تجزئة في البلاد، وأن الهوية الجامعة للشرائح العراقية المختلفة هي هوية ثقافية محضة، ويؤكد بأن الهوية الحقيقية للعراق لم تكن يوماً هوية دينية إسلامية، بل هويةً ثقافيةً بالدرجة الأولى، وكانت على الدوام مرنة وجامعةً ومتنوعة، فبالرغم من أن العراق ومنذ أيام السومريين لم يكن متجانساً إثنيا أو ومذهبياً أو لغويا، فقد كان تنوعه الثقافي هذا مصدر قوته وديمومته.[78]

ويقول "الموزاني": "اليوم في العراق لم يعد العراقي يصلّي في مسجد شيعي أو سنّي إلا لكي ينتقم من أخيه وليفجر المسجد أو الحسينية على رأس من فيها، وبات الانتقام السمة الأخلاقية البارزة التي توحد العراقيين الذين أصبحوا "إخوةً" في القتل، ولم يعد أحد منهم قادراً على أن يحفظ طائفته ويذود عن حماها إلا بقتل الشقيق، ليس على الشبهة بل عمداً بسبب البيانات الشخصية، بمعنى أنه إذا كان الضحية عراقي أولاً، ثم إذا كان سنيّاً أو شيعياً ثانياً، فسيُذبح، وليس هناك أيّ سبب آخر. ففي العراق لا يوجد أي إستقطاب أو إصطفاف سياسي، وكل ما هو موجود عبارة عن عمائم سوداء وأخرى بيضاء، سنيّة وشيعية، ومن ورائها يصطف طوابير من القتلة". [79]

[78] حسين الموزاني، عن الحرب الطائفية في العراق، كاتب عراقي مقيم في ألمانيا، موقع قنطرة، https://ar.qantara.de/content/hsyn-lmwzny-n-lhrb-ltyfy-fy-lrq

[79] حسين الموزاني، عن الحرب الطائفية في العراق، مصدر سبق ذكره.

ويصف "الموزاني" الحرب بأنها الأشد قذارة في تاريخ العراق، لأنها باتت وسيلةً لإحكام السيطرة "السياسية" والجغرافية والاقتصادية على العراق، لأنها جعلت من المواطن العراقي كائنا طائفيا لا يرى في العراق هويته الوطنية، وهو يتنفس الهواء المشبع بالطائفية الذي تهب نسماته فقط من وراء الحدود، فالشيعي الطائفي لا يعمل إلا بما تقتضيه الإدارة الإيرانية حصراً، والسنّي الطائفي لا ينفذ إلا ما تراه الوهابية السعودية، وهذا بالضبط ما فعلته إيران في لبنان بواسطة حزب الله الذي ورّطته في حرب غير متكافئة أدّت إلى تدمير بنيته التحتية، وهو ما تفعله أنظمة عربية عديدة من خلال دعمها هيئة علماء المسلمين والحزب الإسلامي، وبالتالي فقد تخلى الطائفيون عن هويتهم العراقية أو اللبنانية أو السورية من أجل هويتهم الطائفية.

وخلاصة منتهى هذا التسعير الطائفي حسب ما يراها "الموزاني" هو الوصول إلى ما يسمى بمشروع الفيدرالية، أي تقسيم العراق على أسس طائفية، لتسهيل عمليه ابتلاعه وتوزيعه بين دول الجوار؛ ولابد قبل ذلك من التمهيد لهذا التقسيم من خلال التطهير العرقي، لأن التقسيم لن ينجح إلا إذا تقاتل العراقيون فيما بينهم، وهذا لن يكون إلا إذا كره العراقيون بعضهم بعضا، وهذا لن يتم إلا بحملات التحريض الإعلامية والفعلية وسلسلة من المذابح والتفجيرات يضيع فيها الحابل بالنابل، وهذه بحاجة إلى أداة تنفذها، ولا يمكن أن تكون هذه الأداة إلا ميليشيات طائفية عمى التعصب عيونها وملأ الحقد قلوبها، ولم تعد تحركها إلا غرائزها البدائية وشهوة الانتقام، ولسوء حظّ العراق فإن دول الجوار هذه التي تستحم في دم أبنائه هي من الدول القوية سياسيّاً واقتصادياً وتعد نفسها مراكز دينية، وأنها للأسف قبلت بأن يغرق العراق في حرب

طويلة الأمد لتتيح لنفسها أن تزدهر اقتصاديا، ولتصدر أكبر قدر ممكن من النفط، تحت شعار "دم العراقيين من أجل نفط الجيران وثراء سلطتهم الحاكمة".

أما الصراع الطائفي في سوريا فهو يشبه إلى حد كبير الوضع الحالي للعراق، وما شهدته لبنان من قبل. فسورية التي يقدر عدد سكانها بـ 22 مليون نسمة، يتعايش فيها خليط من الأعراق والطوائف الدينية. أكثر من 70٪ من السوريين مسلمون سنة، في حين تبلغ نسبة المسيحيين حوالي 10٪ وهي نفس نسبة العلويين، بالإضافة إلى مئات الآلاف من الدروز والشيعة واليزيديين، والأكراد الذين تزيد نسبتهم عن 10٪. علما أن هذه الطوائف والأعراق المختلفة ظلت على مدى عقود من الزمن تعيش في سلام جنبا إلى جنب.[80]

لكن المجتمع السوري لم يكن خاليا من نزعات طائفية، ظهرت في الفترات العصيبة من تاريخه الحديث. وأبرز تلك النزعات وأهمها ما سعت إليه سلطات الانتداب الفرنسي في تقسيم سوريا إلى دويلات طائفية، وهو توجه تناغمت معه قلة من السوريين في مناطق محدودة، لكن وعي الأغلبية الوطنية أفشل المشروع، وأجبر الفرنسيين على التراجع عنه، وعندما خرج الفرنسيون من البلاد أقام السوريون كيانهم الوطني الواحد.

ومنذ استلام "الأسد" السلطة عام 1970، ضربت النزعات الطائفية سوريا عدة مرات، كان الأبرز فيها إثارة نزاع بين السنة والعلويين، ومثاله الأوضح كان نشاط الجماعات المسلحة في الثمانينات ضد السلطة، ورد الأخيرة الذي لم يكن أقل دموية وقسوة في تعامله ليس مع تلك الجماعات فقط، وإنما مع المجتمع كله، من أجل إخضاعه

---

[80] عامان على الأزمة السورية، ملف خاص من إعداد التلفزيون الألماني DW، 26.02.2013 /http://www.dw.de

والسيطرة عليه. ورغم ذلك لم تؤدي تلك الصراعات إلى تفتت الكيان السوري وانقسام مواطنيه بصورة نهائية.[81]

أما الحرب الأهلية الدائرة حاليا (منذ العام 2011)؛ فمن الواضح أنها أوجدت هوة كبيرة بين هذه الطوائف. فمع بداية الثورة المسلحة بدأ الكثير من المقاتلين الأجانب يتوافدون على البلاد من بينهم متشددون إسلاميون. وأصبح الكثير من المسيحيين والأقليات الأخرى، خاصة في القرى، يتعرضون للترويع والطرد.

ورغم الجوهر السياسي للأزمة السورية، إلا أنه في ظل الصراع الداخلي، بات الموقف من النظام يتحدد انطلاقا من الانتماء الطائفي، لذلك صار يتم تصنيف السُنّة على أنهم معارضون بسبب أن معظم الثوار هم من السنة. بالمقابل ينظر للعلويين بشكل عام بأنهم من أنصار النظام، بسبب أن "الأسد" والكثير من أركان نظامه ينتمون للطائفة العلوية. ومع اشتداد الأزمة ازداد حجم العداء والكراهية بين الطوائف، وما فاقم من خطورة الأوضاع أن السوريون لا يجدون عناء كبيرا في تحديد الانتماء الطائفي لأي شخص؛ فالاسم أو الحي يفصح عن ذلك.

ويرى مراقبون أن أغلبية المسيحيين (وكذلك الأقليات الأخرى) تقف في صف النظام، لأنهم يخشون على مستقبلهم في حال تمكن الإسلاميون المتطرفون من الإستيلاء على الحكم في سوريا. وأيضا فإن مستقبل العلويين بات مرتبطا باستمرار لنظام. فهذه الطائفة تخشى من الانتقام والاستهداف في حال سقوط نظام "الأسد". أما الدروز الذين بقوا على الحياد، مع دعم خفي للحكومة السورية فإنهم قد ينفصلوا إذا سقط

---

[81] فايز سارة، الطائفية في سوريا، جريدة الشرق الأوسط، 15 يناير 2012، العدد 12101.

النظام، وسيحاولوا أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم. كما يتردد أيضا بأن الأكراد في شمال البلاد قد يطالبوا بالاستقلال الذاتي في حالة انهيار النظام. وهو أمر غير مطروح بالنسبة للمسيحيين بسبب تفرقهم في مدن وقرى مختلفة في سوريا.

وفي المقابل فإن العامل الخارجي لعب أيضا دورا رئيسيا في تأجيج الصراع الطائفي؛ فحزب الله اللبناني، وإيران (الشيعية) يدعمان النظام السوري، في حين تدعم دول الخليج المحافظة المعارضة السنية.

تقارير الأمم المتحدة تحدثت عن عشرات التفجيرات وقعت في أحياء تسكنها أقليات دينية، أو في أماكن قريبة من المواقع الدينية، وفي المناطق الحدودية. ولم تكن لهذه العلميات أي أبعاد عسكرية؛ وإنما كان الغرض منها تأجيج التوترات الطائفية. والدمار الهائل الذي أصاب تلك المناطق هدفه إحداث "هندسة ديموغرافية"، لفرض "تجانس طائفي"، ضروري لمرحلة ما بعد الحرب، ولإنجاح مخططات التقسيم.

ومع كل ما سبق، فقد اعتبر محللون أن التركيز على الطائفية في سوريا أمر مختلق ومبالغ فيه، بهدف خلق أجواء تسهم في توتر الأوضاع الداخلية بغية حرف الصراع السياسي القائم في البلاد، وتحويله من صراع سياسي إلى طائفي. [82]

---

[82] فايز سارة، الطائفية في سوريا، جريدة الشرق الأوسط، 15 يناير 2012، العدد 12101.

## الطائفية والصراع العربي الصهيوني

تحاول الدوائر الصهيونية ومنذ نشأتها تصوير الصراع العربي الصهيوني على أنه صراع ديني طائفي كغيره من الصراعات الطائفية الإثنية في المنطقة، والتي عادة ما تنتهي بتقاسم الأرض وتثبيت حدود سياسية بين الطوائف المتنازعة، ومن ناحية ثانية فإن المشروع الصهيوني سيتوقع من خلال هذا الطرح أن يجد الدعم من اليمين المسيحي، فضلا على أنها ستُدخل العالم في متاهة الجدل الديني والتاريخي بحيث تضيف مزيدا من الغموض والتلفيق على حيثيات الرواية الصهيوينة، الأمر الذي سيؤدي إلى زعزعة ثقة العالم بعدالة القضية الفلسطينية.

وتسعى إسرائيل للظهور بمظهر الضحية المغلوب على أمرها، أي دولة الأقلية اليهودية التي يتربص بها العالم الإسلامي ويريد أن يرميها في البحر، وبالطبع ستعيد إنتاج قصة الهولوكوست والمحرقة ومذابح النازية وتبتز العالم وتحصل على المزيد من الدعم والتأييد.[83]

ومن أجل ذلك، فقد شجعت إسرائيل على إغراق المنطقة في دوامة الحروب الطائفية والإقتتال الطائفي لتفريغ الصراع العربي الصهيوني من مضامينه السياسية والقانونية، وتقويض الأركان الحقيقية التي يقوم عليها من حيث كونه صراعا تاريخيا حضاريا سياسيا بين مشروع الأمة العربية في الإنعتاق والتحرر ضد مشروع الهيمنة الإمبريالية

[83] عبد الغني سلامه، فلسطين بين الرواية الدينية والرواية التاريخية، مجلة فلسطينيات، العدد5، شتاء 2008. رام الله، ص 61.

على حاضرها ومستقبلها ومقدراتها، ومن أجل إخفاء طبيعة الحركة الصهيونية العنصرية، والتمويه على دورها الوظيفي في خدمة المشروع الإمبريالي.

كما أن الدوائر الصهيونية أدركت ومنذ البداية أن الوجود الفلسطيني هو النقيض المركزي لمشروعها، بمعنى أن بلورة هوية وطنية سياسية للفلسطينيين تعني الاعتراف بهم كشعب، وأن من حقهم المطالبة بحقوقهم الوطنية والسياسية التي يقرها القانون الدولي، وبالتالي سيبقى المشروع الإسرائيلي في خطر، ومن هذا المنطلق عملت على تجزئة وتفتيت الهوية الوطنية الفلسطينية وإظهارها على شكل مجموعات إثنية وطائفية (عرب، دروز، بدو، مسيحيين، مسلمين) وهي محاولات لم تلقى أي نجاح يُذكر، لأن الهوية الوطنية الفلسطينية جامعة لكل هذا الخليط المتجانس أصلا، فلحسن الحظ فإن المجتمع الفلسطيني مكون بصورة رئيسة من مسلمين وهم الأكثرية ومن مسيحيين وهم الأقلية، وهي تركيبة غير طائفية، وفي هذا الصدد يؤكد "زياد أبو عمرو" أنه بالرغم من وجود ولاءات دينية موروثة ونعرات جهوية وقبلية إلا أن الولاء الوطني يظل طاغيا لدى أغلبية المسلمين والمسيحيين، وأنه ثمة نزوع قوي نحو العلمانية في المجتمع الفلسطيني بصورة عامة[84]، وأن تأييد الحركات الإسلامية يأتي في سياق تأييدها للكفاح الوطني الذي تخوضه هذه الحركات ضد الاحتلال وليس للفكر الديني نفسه بالدرجة الأولى، وأن مقتضيات النضال الوطني قد طغت على كافة التناقضات الأخرى الدينية والطائفية والطبقية والفكرية.

وهذا لا يعني أن الإسلام السياسي في فلسطين محصن ضد الطائفية، فمن المعروف أن الجماعات الإسلاموية تتعاطى مع الصراع العربي الصهيوني على أنه حربا دينية بين

---

[84] زياد أبو عمرو، مصدر سبق ذكره، ص 22.

المسلمين واليهود، وفي هذا الطرح بذور للطائفية لأنه يستثني المسيحيين ويخرجهم من دائرة الكفاح الوطني، وهو أيضاً طرحٌ لا يفرق بين اليهودية كدين والصهيونية كحركة سياسية عنصرية، ويخدم التوجه الإسرائيلي الهادف إلى جعل الصراع العربي الصهيوني كغيره من الصراعات الطائفية في المنطقة، وفي النهاية سيكون إنشاء دولة يهودية أمرا عاديا متناغما مع الدول الطائفية المزمع إنشائها في المنطقة العربية.

## نافذة على الحـل

بما أن الجميع يلعن الطائفية، والجميعُ متورط بها فلا مخرج من هذه الدوامة بالإعتماد فقط على النوايا الحسنة والضمير الحي والخطابات والمواعظ، لأن كلّ ما يكون قانونه الأوحد هو الضمير، هو عبارة عن حربٌ مؤجلة، فالضمير كلمة مطاطة ومفهوم نسبي متغير، وضمير الطائفي يكون مشبعا بالكراهية ولكنه بالنسبة إليه هو "ضمير" مؤسس على قناعة، لذلك يبقى الضمير أضعف من أن يبني نظاما أو يؤسس دولة.

ولهذا، فبدون إجراءات رادعة وقوانين مانعة من شأنها إحداث تغيير جذري في المفاهيم وأساليب التربية والحياة السياسية لن نتخلص من هذه الظاهرة، وحتى لا نعطي لأحد الحق في تصنيف الآخر والحكم عليه، يجب النظر للإنسان باعتباره إنسان أولا ومواطن له حقوق وعليه واجبات، والنظر للوطنية بوصفها ليست سوى المواطنة، وهي الاشتراك في الوطن دون النظر اليه باعتباره فعلاً يمليه الضميرُ بل القانون، والفارق هنا بالغ الأهمية، لأنه في الوطنية يوجد دائماً من هو أكثر وطنية من سواه، وهو ما قد يعطيه الحقّ في الإستعلاء عليه، أما المواطنة فلا يمكن لأحد ان يستأثر بها بنسبة أعلى من غيره، إذْ هي مقرّرة بحقوق وواجباتٍ مفروضة ومعطاة للجميع بالمقدار ذاته وفق نصوص واضحة.

ثم تخليص العروبة من أدران الشوفينية والعنصرية ليكون معيارها هو التكلم باللغة العربية والتعاطي معها كهوية ثقافية بشكل أساسي، والأهم من كل هذا هو تخليص الإسلام السياسي من الطائفية التي طالما علقت به وشوهته أيما تشويه، وبالتالي يجب النظر للإسلام باعتباره النطقٌ بالشهادتين وعمل الخير وليس مباراة في تحديد مَنْ هو

أشدّ إسلاماً من سواه، وهو ما سيجعل الإسلام ديناً قابلاً لأن يكون مادة التقاءٍ لا تنافر وتطاحن، أما الإيمان فهو جهد فردي حصاده يوم الحساب.

وإذا صحّحْنا نظرة المجتمع تجاه هذه الأقانيم الأربعة (**الإنسانية**، أي النظر للإنسان باعتباره إنسان أولا. **الوطنية**، أي النظر للوطنية بوصفها ليست سوى المواطَنة. **العروبة**، أي تخليص العروبة من أدران الشوفينية والعنصرية. **الإسلام**، أي تخليص الإسلام السياسي من الطائفية) وجففنا منابع الطائفية وأسباب ظهورها، نكون قد وضعنا أنفسنا على بداية الطريق لتأسيس نظام مجتمعي حداثي يتجاوز الطائفية وكافة النعرات العنصرية، وبداية الحل تكمن بأن لا يسمح المجتمع باضطهاد أي طائفة مهما صغر شأنها، ومهما إزدادت حدة التناقضات الفكرية والثقافية معها، فوجود طائفة مضطهدة أو سكوت المجتمع على هذا الإضطهاد هو أول وأهم منابع الطائفية، والتي مجرد أن تُفتح حتى تفتح معها أبواب جهنم، وحينها لا تنفع المواعظ ولا الدعوات، وستفلت غيلان الطائفية من كل صوب وحدب، لأن التهميش السياسي أو الاقصاء الثقافي لأية طائفة سيكوّن مشاعر طائفية مضادة تكون هنا عبارة عن رد فعل المظلوم تجاه الظالم، وعملية احتماء للفرد بجماعته الفرعية «طائفته» لمقاومة هذا الظلم.

وللحيلولة دون ذلك يجب إقامة نظام سياسي ديمقراطي تعددي قائم على العدل والمساواة والمواطنة المحكومة بالقانون، من هنا فان الطريق الأقصر لمنع الطائفية ليس التفنن في إطفاء حرائقها المشتعلة هنا وهناك، والتي لا تلبث بعد حين حتى تلتهب من جديد، وإنما هو الطريق المستقيم المجرّب، طريق الانتقال إلى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وهذا شرط أساسي لتنظيف المجتمع من الطائفية، لأنه لن يكون ثمة دافع

لدى أي طائفة لأن تتخلى عن هويتها الفرعية، لمصلحة هوية أعلى، إلا إذا كانت هذه الهوية الأعلى قادرة على أن تستوعب هذه الطائفة وتتيح لها مستوى أعلى من الانفتاح والشراكة الحرة مع الهويات الأخرى. [85]

ويرى الكاتب "ياسين الحاج صالح"[86] أنه من أجل إبطال مفعول الطائفية لا بد من نقل الشعور الطائفي من المكبوت إلى الوعي، وهو ما يقتضي إحداث تغيير جذري في نظرتنا للطوائف، من حيث أنها فئات اجتماعية موجودة تاريخيا، ثم ننـزع صفات العار والأحكام المسبقة عليها، ونقر لها بالشرعية وبحقها في الوجود، وهذا من شأنه فك الالتباس القائم بين الطائفية ووجود الطوائف، الذي طالما تغذت عليه الطائفية واختفت من خلفه، أي لا بد من منح الشرعية للطوائف من أجل تعرية الطائفية وسحب البساط من تحت أقدامها، لذلك يتعين علينا أن نغير استراتيجية مواجهة الطائفية من التكتم على الطوائف وتحريم الإشارة إليها، إلى إشهارها وعرضها والإقرار بذاتياتها غير القابلة للاختزال[87]، وهذا يدعو إلى تغيير مفهومنا للوطنية التي حكمت بعض البلدان العربية، وكانت في حقيقتها مجرد هيمنة هوية جزئية طائفية أو قبلية على بقية الطوائف بعد أن نجحت في شق طريقها نحو السلطة السياسية، بحيث تتطور هذه الوطنية لتنتقل إلى فضاءات الحرية والمساواة والانفتاح على العالمية، لأن الوطنية التي ترتد إلى إلغاء للهويات الدينية والإثنية والمذهبية الموجودة في المجتمع هي ذاتها عبارة

---

[85] علي محمد فخرو، رئيس مجلس أمناء مركز البحرين للدراسات، عن الطائفية، صحيفة الوسط، .http://www.alwasatnews.com//writers/writer-235.html

[86] ياسين الحاج صالح، هل من سبيل لإبطال المخاتلة الطائفية؟ الحياة، 4-11-2006.

[87] ياسين الحاج صالح، هل من سبيل لإبطال المخاتلة الطائفية؟ الحياة، 4-11-2006.

عن هيمنة طائفية، وهي وطنية استعبادية، بوليسية حتى لو كان ذلك يتم باسم الوحدة الوطنية.

كما أنه من الأهمية بمكان أن يحرّم النظام السياسي الديمقراطي تكوين الأحزاب والجمعيات والنشاطات السياسية على أسس دينية أوطائفية أو مذهبية، مهما بلغت جمالية النصوص وبلاغتها في الإدعاء بعدم الطائفية، فقد رأينا كيف تبدأ الأحزاب والحركات الأيديولوجية بشعارات الأممية والوطنية والمقاومة وكيف تنتهي بطائفية مقنّعة، وقد لا تخجل عن الإفصاح عنها حينما تستشعر قوتها، وأي نظرة لأحزاب الإسلام السياسي وتحليل لمواقفها في المنطقة تؤكد هذه المقولة بما لا يدع مجالا للشك.

# الفَصْلُ الثَّانِي

## التكــفـير..

## جـمـرٌ تحـتَ رماد الفـتنة

# التكفير

## تقديم:

بداية، يجب أن لا نستغرب من وجود فكر تكفيري بين ظهرانينا ونحن في مستهل الألفية الثالثة؛ فقد ظهر فكر التكفير من أول عصر الدعوة ذاتها، ومع وجود الرسول الكريم شخصيا؛ ورغم أنه ظل كامنا وخاتلا طوال قرون طويلة، خاصة بعد أن هُزمت الخوارج وتمزقت فلولهم إرباً، وتكشَّفَ مدى بؤس فكرهم الإقصائي وفظاعة نهجهم التكفيري، ذلك النهج الذي لم يجلب للمسلمين سوى الدمار والقتل والخراب. ونحن إذ نذكر تاريخ الخوارج القدامى ونعرّي فكرهم، لأنه ما زال من امتداداتهم المعاصرة من الجماعات ما يدعونا إلى الوقوف حيالها وترصد بقايا حفرياتها، ولأنه ظهر الآن وفي أماكن عديدة من العالم الإسلامي من يمكن تسميتهم بالخوارج الجدد، ممن يحملون ما يكفي من التزمت وتكفير الآخر ما يستدعي منهم القيام بجز الرؤوس وبقر البطون وتفجير الأسواق بمن فيها، كما نرى ونسمع كل يوم.

ومن البديهي أن يقترن التكفير بالتعصب والغلو، وأن يخلق حالة من الإنغلاق والتقوقع على فكرة معينة بحيث يتعذر قبول ما سواها، وهذا بدوره يمهد لممارسة العنف والإرهاب للدفاع عن هذه الفكرة ومهاجمة خصومها، أي من قبل الأشخاص الذين تشربوا هذا المزيج المنافي للقيم الإنسانية ومبادئ الدين، وقد عانت المجتمعات الإسلامية بل والعالم أجمع من هذه الآفة التي تعدى خطرها حدود الجنون، وفاقت حتى خيال الشيطان، فصار التكفير المعين الأساسي والمنهل الفكري الذي تتغذى عليه عصابات القتل وجماعات التفجير والانتحاريين.

وقد آن لنا أن نعي حقيقة الإرهاب وعلاقته بالتكفير، وأن ندرك أنه لا يعرف الوفاء ولا يعرف الرحمة، ولا يمت للعقل ولا للإنسانية بِصِلة.. وإلا ما الذي يدعو بعض المتعلمين من ذوي الدخول المرتفعة والذين ينتظرهم مستقبل مشرق ومنهم آباء ومعيلين لأُسَر.. أن يتركوا ذلك كله ويأتون متحزمين بالمتفجرات، وأحيانا بسياراتهم الفارهة المفخخة فيفجروها في أنفسهم وعلى رؤوس العباد؟! إلا أنهم تعرضوا قبل ذلك لغسيل دماغ أودى بما لديهم من حس إنساني أو بقايا عقل، بعد أن استمعوا لخطبة متطرف يوزع أوسمة الجنة، ويجدول لهم مواعيدهم مع الحور العين!

التكفير كوسيلة لنفي الآخر أو لإقصائه منهج قديم قدم الإنسان؛ وهو لا يقتصر على التاريخ الإسلامي وحده؛ فهو مرتبط بالفكر الإنساني نفسه منذ أن وُجد، وهو سابق لظهور الديانات السماوية، وتاريخ البشرية المضرج بالحروب والدماء يُنبِئُنا بأمثلة لا حصر لها من أشكال "التكفير" الذي ظل سببا أو ذريعة للصراعات السياسية والاقتتال على السلطة، فمثلا ما أن مات "إخناتون" حتى جاء "رعمسيس الثاني" ونكّل بكل أتباعه من الموحدين[88]، بذريعة أنهم قد ابتدعوا ديانة جديدة وكفروا بآلهة الفراعنة، ولم تقتصر حملة التنكيل تلك على الأحياء، بل وصلت إلى مقابر وأضرحة ومعابد الموحدين، كما قام الرومان في مرحلة لاحقة باضطهاد المصريين بسبب مذهبهم الديني وقتلوا الآلاف منهم.

وكما أن التعصب الديني والتكفير ليس وقفا على الإسلام وحده، فإن الحضارة اليونانية والتي تُعد أعظم حضارة قديمة قد شهدت أشكالا من هذه العقلية المتزمتة؛ ففي العام

---

[88] أنظر، أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والتوزيع، ط 6 دمشق.

399 ق.م أجبرت محكمة أثينا أعظم فلاسفة الإغريق "سقراط" بأن يتجرع السم بتهمة إفساد عقول الشباب وطرح الأسئلة المثيرة للجدل!

وكذلك، فإن التكفير قد مثّل الأرضية التي نمت عليها حالة من العداء والشك بين الديانتين اليهودية والمسيحية، وفي القرن الخامس الميلادي شهدت الإسكندرية موجة عنيفة من الحروب الدينية بين اليهود والمسيحيين والوثنيين، كان كل فريق يكفر الآخر، ويسعى لتصفيته. ثم تسلل التكفير إلى داخل الديانة نفسها، خاصة عندما برزت بعض الحركات والمذاهب التي تعتقد أنها الوحيدة التي تفهم النص المقدس، والوحيدة صاحبة الامتياز في تمثيله، فظهرت في اليهودية طائفة الفريسيين الذين يأخذون بحرفية النص ويتهمون الصدوقيين بالخروج عن أصول الدين، فصاروا على خلاف معهم؛ وكانوا أشد الناس تأليبا على السيد المسيح؛ وأحبارهم هم الذين أعطوا الفتوى بصلبه للحاكم الروماني "بيلاطس".[89]

وظل التكفير وقودا يغذي التناقضات الاجتماعية والصراعات السياسية وبشكل خاص في المجتمعات الدينية، وبعد اليهودية انتقلت عدوى التكفير للمسيحية، التي لم تشذ عن هذه القاعدة، فسرعان ما تفرقت إلى عدة طوائف تُكفّر بعضها بعضا، كان أكثرها تشددا طائفة الأرثوذوكس؛ وفي عصور الظلام شهدت أوروبا حقبة كاملة من التكفير مارستها الكنيسة بأبشع صورها، راح ضحيتها الملايين من البشر في المحارق وتحت المقاصل بتهمة الهرطقة والتجديف، فمثلاً كانت الكنيسة تكفّر كل الغجريات والمتصوفات والقابلات والمتداويات بالأعشاب[90]، كما كفّرت من قبل "كوبرينكس"

---

[89] علي أبو الخير، فتاوى فقه التكفير/ جريدة كل العراق، 16-8-2008.

[90] دان براون، شيفرة دافنشي، الدار العربية للعلوم، ط1، 2004، ص 346، 142.

حينما قال بأن الأرض ليست مركز الكون، وكفّرت "جاليلو" لأنه قال بكروية الأرض! ناهيك عن الفظائع التي ارتكبتها محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس بحق اليهود والمسلمين على حد سواء.

وفي القرن السادس عشر الميلادي عمّت أوروبا المسيحية موجة من التعصب الكنسي لم يسبق لها مثيل، وتبارت المدن في إنشاء محاكم التفتيش التي كانت قد ابتدأت في إسبانيا[91]، وبالرجوع إلى تلك الحقب التاريخية سنجد مئات القصص التي يشيب لهولها الولدان من فظائع وجرائم ومذابح تحت ذريعة التعصب الديني، فقد كان رجال الدين من إغريق وفرنسيين وإسبان وألمان وفرس وروم وعرب وأكراد وغيرهم وعلى مدار التاريخ يعتبرون أنفسهم حراس على الفضيلة، وقيّمين على الناس وأوصياء على عقولهم، وأنهم حماة الدين وممثليه، ولكن ضمن رؤية جامدة ثابتة لا تتطور ولا تتغير، وتكفِّر كل من شذ عنها، فالقاعدة التكفيرية تسري بطبيعة الحال على كل الديانات الوثنية أو اللاهوتية في كل مرحلة من التاريخ وكل بقعة من المعمورة.

والبيئة الإسلامية لم تنجُ من هذه الرؤية التكفيرية؛ فقد شهدت بعض المتشددين في الدين حتى في عصر النبوة؛ فبعد غزوة حنين وبينما كان النبي الكريم يوزع الغنائم جاءه رجل يسمى "حرقوص بن زهير التميمي" فقال له: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله؛ إعدل يا رسول الله فإنك لم تعدل؛ فقال له النبي: ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل! وحاول بعض الصحابة إيذاءه؛ فردهم النبي وقال لهم: دعوه فإنه يخرج من ضوضئة قوم يتعمقون في الدين حتى يخرجون منه كما يخرج السهم من الرمية[92]؛ فالرجل كان يعتقد

---

[91] كامل النجار، قراءة منهجية للإسلام، تالة للنشر، طرابلس، ليبيا، ط1، 2005، ص 10.

[92] علي أبو الخير، فتاوى فقه التكفير، مصدر سبق ذكره.

أنه على صواب ويفهم الدين أكثر من صاحب الرسالة نفسه! وكان "حرقوص" هذا من أول الخارجين على الإمام "على بن أبي طالب" وهو الذي قال: الحكم لله وليس لك يا علي.

وقد حارب الإمام "علي" الخوارج في النهروان بعد أن ناقشهم وحاججهم فلم يسمعوا له؛ وقُتل "حرقوص" في المعركة ولكن نهجه لم يُقتل؛ فعندما هنّأ الصحابة علياً بنصره على الخوارج، كان مدركا بأن هذا النمط من التفكير لن ينتهي بالسيف ولن تحسمه معركة، فقال لهم الإمام: كلا إنهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء؛ أي أنه كان يعلم أن هذا الفكر لن يعدم أناسا يتبنونه ويعملون على نشره.[93]

---

[93] علي أبو الخير، فتاوى فقه التكفير، مصدر سبق ذكره.

# العقلية التكفيرية

التكفير، هو نتاج التطرف، والتطرف في معظم الأحيان، لا علاقة له بالمبدأ الذي يتبعه المتطرف؛ إنه نتاج طبيعة عقل مغلق، غير مرن، مهما كانت الفكرة التي يتبناها... وهذا العقل المغلق بالضرورة تأثر بعوامل خارجية.

عندما بدأتُ بإعداد المراجع لهذه الدراسة، صُدمت بالعدد الهائل للكتب التي تتحدث عن موضوع التكفير، سواء بين مؤيد ومعارض أو بين متعصب ومنفتح ذهنيا، وقد زاد عددها عن المئات! ومن الملفت للنظر أن أغلبية علماء المسلمين حينما يتناولون موضوع التكفير ويستنكرونه ويعتبرونه أمرا طارئا على الفكر الإسلامي، ولكنهم يستهجنون الغلو في التكفير، لا التكفير نفسه من حيث المبدأ، ثم يتحدثون عن ضوابط للتكفير، ويضعون له معايير معينة، خاصة عندما يلجئون هم أنفسهم لهذا النهج، وهم بعد ذلك لا يختلفون في الحكم على من يَثْبُتُ كفره.

والحقيقة، أنهم يعترضون على الإفراط في التكفير، لأنه بات خارجا عن نطاق سيطرتهم، وصار يُمارس من قبل جهات وأفراد لا يتبعونهم، وربما يناصبونهم العداء، وحتى لا يخسروا هذا السلاح الفتاك؛ فقد وضعوا له الضوابط والشروط ليستخدمونه هم أنفسهم مرة ثانية في مواجهة خصومهم الذين سبقوهم إليه، أو لحرمانهم منه.

ولعل أخطر ما في موضوع التكفير هو الدعوة لنفي الآخر المتهم بالكفر نفيا جذريا حتى لو استدعى ذلك قتله، وخطورته تكمن في الآثار المترتبة على من يثبت كفره في نظر فقهاء التكفير، وقد أورد العديد من الفقهاء بما يشبه الإجماع على أن من يكفر فإنه يُطرد تماما من المجتمع ويُنبذ ويُحارب ويُهدر دمه وتُصادر أمواله وممتلكاته، ولا يحل لزوجته

البقاء معه، ويجب أن يُفرق بينها وبينه، وحتى أولاده لا يجوز أن يبقوا تحت سلطانه، ويفقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامي، وإذا مات لا تجرى عليه أحكام المسلمين، فلا يُغسل ولا يُصلى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولا يُورث، كما أنه لا يرث إذا مات مورث له، ومن هنا على المجتمع الإسلامي أن يقاطعه ويفرض عليه حصاراً أدبياً ومادياً حتى يثوب إلى رشده.. وإذا أصر على "كفره" يجب أن يُحاكم أمام القضاء الإسلامي، لينفذ فيه حكم المرتد (القتل)[94]، بمعنى آخر تحل عليه اللعنة في الدنيا والآخرة، ويُطرد من رحمة الله والمجتمع، ويدخل في الجحيم الأبدي خالدا مخلدا في نار جهنم.[95]

وبالنظر إلى تاريخ التكفير في التراث الإسلامي – وهو ما يعنينا في هذه الدراسة – سنجد أن أسلوب التعامل معه كان يتسم بالشدة والعنف والصرامة، وبشكل خاص في مراحل الصراع المختلفة، حيث كان التكفير يمثل الأداة الأهم والسلاح الأمضى، والجمر الذي يؤجج أتون المعارك والحروب، بل أنه كان شرطا يسبق كل حالة قتل وشعارا لكل قتال، ولا يقتصر التكفير على أولئك الذين هم خارج ملة المسلمين (كاليهود والنصارى وأصحاب الملل والمذاهب) بل يتعداه ليطال من هم خارج الطائفة، ثم من هم خارج الجماعة، حتى يصل إلى كل من يخالف الرأي السائد، أو من يجترح نظرية جديدة، أو من يبتدع فكرة يراها فقهاء التكفير كفرا بواحا تستوجب سلسلة العقوبات واللعنات التي أشرنا إليها سابقا.

---

[94] سعود عبدالرحمن المقحم، الفرق بين الخوارج الأولين والمعاصرين، جريدة الرياض، العدد 14648، آب 2008.

[95] أنظر أبو محمد المقدسي، كشف النقاب عن شريعة الغاب، تنشرها مجلة أقلام الثقافية.

# بدايات فقه التكفير

يكاد يتفق معظم الباحثين على أن الخوارج هم أول من إبتدع فقه التكفير في التاريخ الإسلامي، وقد رأينا كيف أن "حرقوص" تجرأ على مخالفة النبي نفسه وشكك في عدله، وقد ارتبط ظهور الخوارج بما عرف بالفتنة الكبرى التي أسفر عنها مقتل الخليفة الثالث، كذلك ارتبط أيضا بقضية التحكيم المعروفة أثناء معارك صفين، حين رفع "معاوية" المصاحف على أسنة الرماح بمكيدة سياسية من "عمرو بن العاص" انطلت على الكثير من محاربي الجيشين، فحينما رفعت المصاحف في صِفّين طالب الخوارج بتحكيمها، ولما أُوقف القتال كفّروا الطرفين واستلوا سيوفهم وخناجرهم ليفتتحوا دوامة العنف والتطرف.[96]

وحقيقةً، فقد كان ظهور الخوارج تعبيراً عن وجود تناقضات سياسية واقتصادية تسربلت بلبوس الدين، إذ لا يُعقل أن هذه التنظيمات التي ناصبت العداء لعلي وللأمويين من بعده لعقود متواصلة أن تكون وليدة لحظة التحكيم.. وفي تتبّع لانتماءاتهم القبلية نجد أن معظمهم من بدو تميم الذين سكنوا ما بين البصرة والكوفة بعد الفتوحات الأولى[97]، وكان اختلاف التوجهات السياسية عند الخوارج وارتباك القرار وتناقضه أحيانا مرده إلى التزمت وطاعة الأمير العمياء، وبروز قيادات متعددة من داخلهم كانت تتفاوت في مدى تعصبها وتتباين في رؤاها، وهذه أحد أسباب تفسخ الظاهرة.

---

[96] مؤرخين كثر شككوا في رواية رفع المصاحف، ذلك لأنها لم تكن مطبوعة ومتوفرة إلى درجة توزيعها على عشرات أو مئات المقاتلين، فالمسألة قد تكون رمزية.

[97] علي ابو الخير، فتاوى فقه التكفير، مصدر سبق ذكره.

وقد نشأ هذا الفكر عند الخوارج بدايةً نتيجة فهمهم الخاص لقضية الإيمان[98]، إذ تفردوا في تفسيرهم لموضوع الإيمان دوناً عن كل المسلمين كما يقول "حسين مروة" في كتابة الهام عن النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ويضيف "مروة": "فإذا كان الإيمان منذ عهد النبي يعني الإعتقاد الداخلي ثم الإقرار به نطقا باللسان، فإن الخوارج قد زادوا عليه عنصرا من عندهم هو العمل بموجب هذا الإيمان، فلا يكفي عند الخوارج أن يضمر المرء اعتقاده وإيمانه ليكون مؤمنا، بل لا بد أن يتطابق العمل مع الإيمان، وبالتالي فكل إنسان حسب الخوارج هو إما مؤمن وإما كافر وليس هنالك حالة ثالثة، وبهذا التعريف يصل منطق الخوارج إلى نهايته الحتمية: من لم يعمل وفق اعتقاده فهو كمن يخالف اعتقاده، ومن يخالف اعتقاده كمن لا اعتقاد له، أي أنه حتما كافر!"

إذاً، فقد كان التطابق بين الإيمان والعمل هو جوهر نظرية الخوارج، وكان هذا المنطق هو محركهم في حروبهم المتواصلة، وتشددهم هذا يفسر لماذا لم يكن معروفا عنهم المهادنة أو التسامح، ولماذا كان تاريخهم دمويا عنيفا متصادما مع كل ما هو موجود، فقد تصادموا مع النقيضين "علي" و"معاوية" في آن معا.

وقد تصدى لحرب الخوارج على المستوى النظري العديد من علماء الإسلام والمتكلمين بدءًا من الإمام "علي" و"الحسن بن الحنفية" مرورا بِ"الحسن البصري" و"أبو حنيفة النعمان" وغيرهم الكثير، إذْ قالوا أنه لا يجوز الحكم بالكفر على مرتكب المعصية ولا بخلوده في النار، وكانت مسألة تأجيل الحكم على مرتكب المعصية إلى يوم الحساب، وأن صلاحية الحكم على الإيمان هي فقط لله تعالى هي الركيزة الأساسية لظهور تيار

---

[98] حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية، جزء2، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2002، ص 51-52.

المرجئة، كما كانت نظرية المنزلة بين المنزلتين في الحكم على مرتكب الكبيرة إحدى القواعد الخمسة لفكر المعتزلة.

وحقيقةً، فقد كانت مسألة الحكم على مرتكب الكبيرة تمثل إحدى الدعامات النظرية في إقتتال المسلمين فيما بينهم منذ معركة الجمل، فقد كانت حجة "طلحة" و"الزبير" في قتال "علي" (وهم جميعا من كبار الصحابة) أن "علياً" كان ضالعا في مقتل عثمان، أي أنه مرتكب للكبيرة وبالتالي فهو كافر ويجب قتاله[99]، ويرى "حسين مروة" أن موقف بعض الصحابة من أمثال "سعد بن أبي وقاص" و"أسامة بن زيد" الذين وقفوا على الحياد، فرفضوا أن ينصروا "عليا" كما رفضوا أن يقاتلوه، بالرغم من حياديته الظاهرة إلا أنه في نهاية المطاف موقف سياسي أكثر منه اجتهاد نظري، لأن مسألة مرتكب الكبيرة بدأت في حلبة الصراع السياسي ثم انتقلت فيما بعد إلى صالونات التنظير الفقهي، بمعنى أن إنشغال الحركة الفكرية في ذلك الوقت بمسألة مرتكب الكبيرة والحكم عليه ثم بمفهوم الإيمان، وبالتالي مفهوم الكفر، كان مصدره أساسا اختلاف المواقف السياسية حول قضية الخلافة ونظام الحكم، ثم ترعرع هذا الحراك الفكري حول قضية التكفير في ميادين السياسة وعلى موائد السلطان، أو في أروقة قوى المعارضة.

وفي أواخر العصر العباسي استخدم "الغزالي" مبدأ التكفير في كتابه (تهافت الفلاسفة)، حيث كفَّر الفلاسفة المسلمين في ثلاث مسائل، واعتبرهم أصحاب بدع في سبع عشرة مسألة. وهذه المسائل الثلاثة هي: قولهم بأزلية العالم، وإنكارهم لمعرفة الله للجزئيات، وإنكارهم لحشر الأجساد. بيد أن "ابن رشد" فند ما ذهب إليه الغزالي، ودافع عن

---

[99] حسين مروة، نفس المصدر السابق، ص 59-61.

الفلاسفة في كتابه (تهافت التهافت).[100] ولم يقتصر تكفير الغزالي على الفلاسفة فحسب، بل كفّر كذلك المتصوفة والأدباء، واتهمهم بالإلحاد والزندقة، حيث قال: "من تمنطق تزندق".

[100] جميل حمداوي، الحركات الإسلامية وسلاح التكفير، مجلة المثقف.
http://almothaqaf.com/index.php/derasat/81564.html

## منطلقات المنهج التكفيري

عند الحديث عن الأزمة التي يعيشها العالم الإسلامي الآن، وتحليل أسباب تخلفه وعجزه، أو حتى بالنظر إلى التاريخ الإسلامي نفسه وتاريخ الفلسفة والفكر الإسلامي، سنجد دوما إشكالية العلاقة ما بين العقل والنقل، وما بين السياسي والديني، وستثار أسئلة عدة، منها: أيهما سبب الأزمة الشاملة الفكرية والعلمية والثقافية بل والدينية، هل هو العقل، أم النص، أم هما معاً؟ ومن المسئول عن هذا العجز والتخلف في التراث الإسلامي المكتوب والمسكوت عنه؟ هل هو الخوف والترهيب والإرهاب؟ أم هو في فهم النص؟ أم في آلية التعامل معه؟

فهناك العديد من القضايا التي يخاف المفكرون والأدباء والفقهاء والمثقفون الاقتراب منها أو الفتيا فيها، حيث كانت دوما تتربص بهم قوى التعصب وهي ترفع راية التكفير عالية خفاقة في وجه من تجرأ واجتهد، أو فسّرَ أو أفتى! فالنص عند هؤلاء سماوي مقدس له قدسية التابو، بينما العقل دنيوي مدنس. وفي المقابل سنجد عند البعض الآخر أن العقل له مرتبة عليا من القداسة، وأنه لولا العقل ما كان للنص وجود وما كانت له أهمية، لأن النص حتى لو كان إلهياً فإنه يخاطب العقل، وهذا يتطلب إيجاد علاقة جدلية وتفاعل حي بينه وبين النص، ومن البديهي أن العلاقة الجدلية قد تتفاقم وتأخذ منحى الأزمة حينما يتعامل العقل مع النص الديني بالتحديد، وتصبح المسألة إشكالية بالغة التعقيد وليست مشكلة فقط، وهذا ناتج من طبيعة فهم هذه العلاقة الجدلية التي تتمحور في نقاط معينة تمثل فيما تمثل البيئة التي نشأت فيها منهجية التكفير:

- بداية، يقوم منطق أهل التكفير على الإدعاء بامتلاك العلاقة الحصرية بالسماء، وأحقية امتلاكهم للنص وتفسيره، ويستندون في ذلك على فهمهم بأن النص الديني مقدس ومطلق، والعقل البشري أرضي ومحدود، وأنهم وحدهم أصحاب ومُلاّك ملكية مطلقة للنص، لا يجوز لأي إنسان التعامل معه أو فهمه أو تفسيره إلا من خلالهم فقط، وتعاملوا مع الآخرين بمنطق الوصاية والرقابة، واعتبروا أن البشرية غير مؤهلة لقيادة نفسها، وغير مؤهلة لتشريع نظام حياة خاص بها، وأن التشريع للبشر هو من اختصاص الله سبحانه وحده، فتعامل أصحاب هذه المدرسة مع العقل كما لو أنه عقيم أو كائن شيطاني رجيم.. وقد تناسى هؤلاء أن الله سبحانه قد جعل من الإنسان خليفته في الأرض، وأنه أمّنَهُ عليها، ومنحه العقل دونا عن سائر المخلوقات، وأن العقل البشري قد خلقه الله وأبدعه ليكون قادرا على حمل الأمانة. ومن هنا نشأت أزمة العلاقة بين الديني والدنيوي، ومن هذا الزعم والإدعاء باحتكار الصواب واحتكار النص الديني صار كل من يخالف هؤلاء كافراً ملعوناً ومطرودا من رحمة الله.

- النقطة السابقة ستؤدي حتما إلى حالة من الخلط بين النص وبين فقهاء النص، بحيث يكتسب الفقهاء قداسة النص نفسه، وتنمحي الحدود الفاصلة فيما بينهما، ويصبح الكل متحدا في هالة من القداسة تحيطها جدران سميكة من المحرمات التي يصعب اختراقها أو حتى التشكيك بها، وهذه الهالة ستمنح الفقهاء القوة اللازمة لإطلاق فتاوى التكفير لكل من يتجرأ على المساس بهم. وحالة التماهي هذه تُعد من أخطر المشاكل، لأنها مبرر فكرة رجال الدين وأصحاب المذاهب والمدارس الفقهية والمرجعيات الدينية في كل الأديان وليس في الإسلام فقط، وقد صار هؤلاء يمارسون الإستبداد والإرهاب

الفكري بمنطوق النص لا بمفهومه، أو كما يفهمونه هم، ومن البديهي أن يتم تطويع النصوص بما يخدم مصالحهم ومصالح السلطة التي طالما اقترنوا بها.

- وطالما صار الخلط بين النص المقدس ورجال الدين بهدف توحيدهم في قالب واحد، وطالما اكتسب هذا الخلط صفة القداسة المطلقة، فإن الخطوة الحتمية التالية هي الخلط بين السياسي والديني، أي بعد أن يطوّع رجال الدين النصوص لصالح المشروع السياسي ليصبح هو أيضا مقدسا، ومن بوابة قداسة النص سيدخل كل ما هو سياسي ولكن بثياب رجال الدين، وبالتالي فكل من يخالف المشروع السياسي فقد خالف النص المقدس، ومن يخالف النص المقدس فقد تجرأ علي الله وأصبح كافرا تتوجب لعنته من على المنابر والدعاء عليه بالهلاك، وقد رأينا هذا النمط من تقديس السياسة وتلبسيها لبوس الدين حينما رأينا الحكومة الربانية والنصر الإلهي وجيش الرب..

- المنهج الذي يقوم عليه الفكر التكفيري يرتكز على الخلط المتعمد بين الأساسي والثانوي وحتى مع الهامشي جدا، كالخلط مثلا بين ما ورد في القرآن الكريم من نصوص لها علاقة بالعقيدة وبجوهر الدين من ناحية وبين ما كان من شئون الدنيا في تفاصيلها الصغيرة من ناحية أخرى، أو عدم التمييز بين نصوص العبادات ونصوص المعاملات[101]، أو الخلط بين أركان الدين الأساسية من جهة مع بعض التوجيهات المتعلقة بالآداب الشخصية وحسن السلوك من جهة أخرى، وهذا الخلط المعمول به جعل القداسة ملازمة لكل فعل أو إشارة أو سلوك فردي سواء من ناحية الشكل أو الموضوع لكل من يدعي تمثيل الدين، ومع تعدد الآراء والخلافات حول جزئيات معينة أو تفاصيل صغيرة من أركان العبادة مثلا، تمّ تكفير البعضُ للبعض، حيث هنالك من

[101] محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، الأهالي للتوزيع، ط1، 2000، دمشق، ص 47، 56، 81.

يعتقد أنه على صواب والآخر على خطأ، وهذا الخطأ عند هؤلاء يرقى إلى مستوى الكفر، وقد يكون هذا الخطأ مجرد اجتهاد نظري، وبما أنهم يحرّمون إنشاء أي علاقة جدلية أو حوارية مع النص "المقدس".[102]

وحيث أنهم يعتبرون أن النصوص المقدسة لم تغب عنها شاردة ولا واردة ولم تترك أمر من الأمور إلا وتحدثت عنه، ولا مشكلة مستعصية إلا أوجدت لها الحل المناسب، وبالتالي سيدخل إي اجتهاد جديد لم يتطابق مع النص المقدس في نطاق البدعة التي تؤدي للضلالة، أي للكفر، ولم يتوقف موضوع التكفير عند الاجتهاد النظري بل تعداه إلى كل فعل لا يتفق مع النص، فتصبح عند "حُماة النص" أصغر القضايا مثل أكبرها، فلبس الثوب الطويل كالقتل، وحلق اللحية كشهادة الزور، وإفطار يوم من رمضان مثل الشرك والكفر!!

- الشعور الخاص والخفي الذي يراود أصحاب كل ديانة، أو أتباع أي طائفة، أو مريدو أي شيخ أو كاهن واقتناعهم بأن الله قد اصطفاهم دوناً عن العالمين، وخصّهم بنبيّه أو كتابه، أو ميّزهم عن سائر الأمم والشعوب، سيدفعهم للإعتقاد بإمتلاك الحكمة وباحتكار الصواب وحيازة الحقيقة المطلقة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهذا بدوره سيقود بالضرورة إلى شعورهم بالإستعلاء على الغير، وبالتالي الإستقواء عليهم، بحيث يتولد لديهم شعورا طاغيا بأنهم هم أصحاب الحق في الحياة وأن الآخرين إنما يعيشون على هامشها، إذا هم سمحوا لهم بذلك كرمًا منهم ونبلاً في أخلاقهم، ولكن بشروطهم (دفع الجزية مثلا)، ومن البديهي أن الشعور بالإستعلاء

---

[102] علي ابو الخير، فتاوى فقه التكفير، مصدر سبق ذكره.

والتفوق سيغذي اتجاهات العنف والتطرف، والتي كثيرا ما تنتهي بموجات القتل الجماعي على خلفيات طائفية وعنصرية ترتكز أساسا على فكرة تكفير الغير.

- يرتكز الخطاب التكفيري مثله مثل أي خطاب تطرفي على الثقافة السطحية ومخاطبة العواطف وتهييج الغرائز، ويهاجم النفس البشرية في نقاط ضعفها، وعادة ما يستقطب الضعفاء والفقراء والجهلة، وهذه مقومات الثقافة الشفهية التي يعتمدها التكفيريون، لأنها قليلة العناء وسهلة التلقي، وتعتمد على العناوين المثيرة والشعارات البراقة، لذلك تستريح إليها النفس وتتقبلها دون الحاجة للتفكير والتمحيص.

- حتى لو كان العنف والعدوانية التي تظهرها بعض الجماعات الدينية المتعصبة هي تعبير عن الشعور باليأس وإنسداد الأفق والشعور بالتهميش والعزلة لدى تلك الفئات المحرومة أو المضطهدة أو الجاهلة، وليست انعكاسا لقيم الدين نفسه وتعاليمه السمحة، وأياً كانت درجة الدقة في هذا الرأي[103]، إلا أن خيار القوة المسلحة الذي تنتهجه الجماعات الأصولية المتطرفة له ما يوازيه من التاريخ الإسلامي وما يسنده من النصوص المقدسة، أو على الأقل في فهم وتفسير تلك النصوص، خاصة وأنه بالإنتقائية - وهي أسلوب تلك الجماعات - سيجد المتعصب ما يبحث عنه في تلك النصوص، سيّما إذا ما تتبعنا التغير في خطاب ومحتوى تلك النصوص ما بين المرحلة المكية والمرحلة المدينية، فرغم أن الآيات الكريمة ووقائع السيرة التي تعبر عن كل مرحلة قد جاءتا في بيئتين مغايرتين تماما، فالدعوة بالحسنى والتبشير بالتي هي أحسن، ﴿وَلَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينْ﴾ حدثت في زمن الإستضعاف، أما آية "السيف"، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ والسرايا والغزوات فقد لازمت مرحلة تأسيس الدولة وحماية المشروع الجديد، وجاءت

[103] خليل عبد الكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، دار مصر المحروسة، ط1، القاهرة، 2004، ص 58.

في مرحلة تتطلب بعض القوة والحسم، إلا أن هذا الفهم التاريخي غير وارد في عقلية تلك الجماعات، لذا انتقت آية "السيف" (الآية 5 من سورة التوبة) وبنت عليها أيديولوجيتها العنيفة، ورأت أنها جبّت آيات المسالمة والصفح والعفو، وأنه يتوجب قتل كل من هم على غير دين الله، بما في ذلك قتل الأسرى (وقد طبق ذلك محمد بن عبد الوهاب في القرن التاسع عشر الميلادي في الجزيرة العربية)[104]، وكذلك رأت في قتل "كعب بن الأشرف" و"أبي رافع"، و"عصماء بنت مروان"، و"أم قرفة" بأمر مباشر من النبي محمد سندا شرعيا يجيز لهم تصفية خصومهم السياسيين تصفية جسدية بالقتل والاغتيال، بحجة أن كلاً من كعب وأبي رافع وصماء وأم قرفة لم يكونوا من المقاتلين، ولم يحملوا السلاح أصلا، إنما كانت عداوتهم للنبي قاصرة على اللسان، وكذلك رأت في آية ﴿وَلا تأمَنوا إلاّ لِمَنْ تَبعَ دِينكُمْ﴾، وآية ﴿وَلَنْ تَرْضى عَنْكَ اليَهُودُ وَالنّصَارَى حَتّى تَتّبَعَ مِلّتَهُمْ﴾ أنها أوامر واضحة بقتل اليهود والنصارى جميعا، أو أن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، والأخطر أنها فهمت آية ﴿إِنَّ الّدينَ عِنْدَ الله الإسْلامْ﴾ كما لو أنها أساس تصنيف الناس بين مسلم وكافر، ومن هنا تأسست فكرة دار الإسلام ودار الكفر، وفسطاط الحق وفسطاط الباطل، الأمر الذي يضع تلك الجماعات في عداء مطلق مع باقي سكان الكرة الأرضية.

- وبنظرة متأنية وتحليل علمي لحقيقة أمر الجماعات الأصولية التي تنتهج التكفير أسلوبا ومنطلقا، سنجد أنها حركات احتجاج سياسية/ اجتماعية تعبر عن واقع مادي معين، ولكن بثوب ديني يتقوّى بنصوص دينية، وترتكز على التعبئة الدينية في التحريض وفي استقطاب الشرائح الاجتماعية المختلفة، وبالتالي فإن وسم تلك

---

[104] خليل عبد الكريم، نفس المصدر السابق، ص 55.

الجماعات للمجتمعات التي يعيشون فيها بأنها كافرة وجاهلية إنما هو نابع من سخطهم ورفضهم لتلك المجتمعات التي لم يجدوا فيها فرصهم في النجاح وحظهم في حياة كريمة، كذلك سنجد أن توصيف تلك الجماعات للحكام والرؤساء بأنهم كفرة وطواغيت إنما هو منزع سياسي بحت وليس ديني إلا بالشكل، فشعائر الإسلام في تلك الدول مقامة على رؤوس الأشهاد، والقوانين المطبقة في أغلبها متطابقة مع الشريعة الإسلامية، وما تصويب البندقية نحو صدور الحكام إلا بهدف إزاحتهم والحلول مكانهم والوثوب على كراسي السلطة[105]، الذي هو هدف تلك الجماعات وغايتها وحلمها الذي يداعبها صباح مساء.

- غالبا ما نجد التطبيق الفعلي الذي يلي التكفير هو القتل، والقتل كما جاء في الإسلام يُعد أكبر الكبائر وأفظعها، وهو تالي في حرمته للإشراك بالله سبحانه، ولم يرد في القرآن الكريم تغليظ لجريمة ولا تبيان لحدوها بالوضوح والتركيز الذي جاء في وصف جريمة القتل، قال تعالى: (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيما﴾، ﴿وَمَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعا﴾، والآيات تبين أن قتل النفس بحد ذاته حرام بغض النظر عن النفس المسلمة أم الكافرة، وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين قائلا: ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ﴾ أي النفس بعمومها ولم تقل الآية النفس المسلمة، وقال الرسول الكريم: "لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا"، أما عن حرمة التكفير فقد قال النبي الكريم: "من كفّر مسلماً فقد باء به أحدهما"، والأحاديث الواردة في هذا المعنى كثيرة، نذكر بهذه المناسبة قصة ذلك الصحابي الذي بارز مشركاً، فلما رأى المشرك أنه

---

[105] خليل عبد الكريم، نفس المصدر السابق، ص 73.

صار تحت ضربة سيف المسلم الصحابي قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فما بالَ لها الصحابي، وقتله! فلما بلغ خبره النبي أنكر عليه ذلك أشد الإنكار، فاعتذر الرجل وبرر فعلته بأنه ما قالها إلا خوفاً من القتل، فكان جواب النبي: "هل شَقَقتَ عن قلبه؟"[106] ومع كل هذا الوضوح في تحريم القتل والتكفير إلا أن أمراء الجماعات الأصولية يتحايلون على ذلك ويجدون المبررات التي يسوقونها لأتباعهم كي يوغلوا في قتل "الكفار" وإراقة دماء "أعداء الإسلام".

[106] خليل عبد الكريم، نفس المصدر السابق.ص 77.

# الردة والتكفير

ما أن أكمل النبي محمد رسالته ونشرها في جزيرة العرب، ودانت له القبائل وأعلنت انضمامها للدين الجديد، حتى كانت معالم الدولة الإسلامية (القرشية) قد بانت ملامحها وبدأت ترسي دعائمها، ومن حينها أصبح الإسلام بمثابة الهوية أو الجنسية التي يتعين أن يحملها كل فرد في أي قبيلة في أنحاء شبه الجزيرة العربية، ونظرا لتوحد عمليتي الخضوع للدولة والدخول في الإسلام، وانصهارهما في بوتقة واحدة، فقد صار كل من يخلع نفسه من القبول في أي من العمليتين بحكم المرتد، ولكن إذا كانت عملية الخلع هذه سواء الكفر بالديانة أو رفض الولاء للدولة على المستوى الفردي ولا تشكل خطرا على الدين الجديد ولا تهديدا للدولة الفتية، فإن ذلك يُوصف بالعمل الخبيث ويُترك فاعله في شأنه، كما دلت قصة الإعرابي الذي أعلن إسلامه أمام النبي ثم جاء في اليوم التالي وطلب من الرسول أن يقيله، ولما أصر على موقفه قال له النبي: "المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها"، ولكنه سمح له بالإقامة فيها.[107]

لكن هذا التساهل يصير شدة وصرامة على أشد ما تكون الصرامة، حينما يتعلق الأمر بمصالح المسلمين، أو يشكل تهديدا للدولة، أو ينذر بتفتيت وحدة المجتمع، أو يضع مشروع الأمة موضع تساؤل، أي عندما لا تكون الردة على المستوى الفردي بل على شكل مجموعات وثورات داخلية، كما يسمى في الوقت الراهن مناطق متمردة أو عصيان مسلح أو ثورة مضادة، وهذا ما حصل بالفعل في أواخر عهد النبوة وبداية عهد

---

[107] خليل عبد الكريم، نفس المصدر السابق. ص 155.

الصديق أبو بكر، ونظرا لحساسية تلك المرحلة وخطورتها على الدولة الناشئة كان من البديهي أن توصم أعمال التمرد بالردة، وأن يُشهر في وجه العصاة والخارجين حد الردة. فمنذ أن تولى الصدّيق الخلافة حتى انتفضت في وجهه العديد من القبائل وأعلنت رفضها لحكم قريش، ولكن شدة "أبو بكر" وحِرْصهِ على الإسلام جعلته يقف في وجه التمرد بكل قوة وحزم، فاعتبر الخروج على حكمه بمثابة خروج من الدين نفسه، لأنهما صارا حالة واحدة ولا يجوز التفرقة بينهما أو التساهل في أي جزئية منهما، حتى القبائل التي بقيت على الإسلام ولكنها رفضت دفع الزكاة للحكومة المركزية في يثرب جوبهت بالقتل والحريق، فقال أبو بكر فيها: "والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه".[108]

ولكن هذه الشِدّة صارت لينا وتساهلا في عهد "عمر بن الخطاب"، حيث ترسخت دعائم الدولة وقويت شوكتها وتدفقت عليها الغنائم وتوسعت حدودها فلم يعد هنالك خوف من أي من المعارضين والمناوئين، ولم تعد الصدقات التي تدفعها القبائل مهمة مقارنة بما يرد لخزينة الدولة من الغنائم من الأمصار المفتوحة، ويقول "خليل عبد الكريم" في هذا الصدد أنه عندما سمع ابن الخطاب عن جماعة نزعوا عنهم شعار "الدولة القرشية هي ذاتها الإسلام"، لم ينفعل ولم يأمر بقتلهم وتحريقهم بل أمر أن يودعوا السجن وأن يعطوا الفرصة للتوبة.[109]

ومرة ثانية تعود الشدة وتصبح لازمة وضرورة لا بد منها، وذلك في عهد الإمام "علي بن أبي طالب"، أي مع تنازع كل من "عائشة" و"طلحة" و"الزبير" الإمام في خلافته،

[108] مقولة مشهورة وثابتة ومنقولة عن أبي بكر الصديق.

[109] خليل عبد الكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والمدنية، مصدر سبق ذكره، ص 159.

ثم تنازعه مع "معاوية" وحروبه مع الخوارج، ومع اشتداد الخطر على دولة الخلافة وبروز الفتنة، صار من البديهي أن يبرز موضوع الردة ويرجع إلى ما كان عليه في الشدة الأولى أيام الصدّيق. بمعنى أنه كلما كان هنالك مِحِنٌ وأزمات وأوقات عصيبة برزت الردة واحتلت الصدارة واتسم علاجها بالشدة والبطش، وكلما استقرت الأوضاع واختفت الأزمات كلما تراجع موضوع الردة وصار علاجها يتطلب لينا وحكمة.

على خلفية هذا المشهد التاريخي الموجز وبالعرض السريع للمرحلة التي برزت فيها الردة، لاحظنا كيف ارتبطت الردة بالسياسة وكيف تأثرت بها، وإضافة للعامل السياسي فقد كان حد الردة وأسلوب التعامل مع المرتدين منسجما مع التراث الثقافي والقيمي السائد آنذاك، ومع التقاليد العربية التي كانت قبل الإسلام، فمثلا يقول "خليل عبد الكريم" في هذا الشأن "إن معظم الحدود في الإسلام كان لها ما يشبهها في الجاهلية وهي امتداد لها"[110]، مثل حد قطع يد السارق الذي ابتدعه "الوليد بن المغيرة" خوفا على أموال النخب الحاكمة من طمع "الأراذل"، وكذلك كان حد الجلد لقذف المحصنات الذي هو بمثابة إنكار للنسب (طعن بالمواطنة وسلب الجنسية في المصطلحات الحديثة) ومن المعروف أهمية النسب بالنسبة للبدوي، وكذلك حد الحرابة بقطع الأيدي والأرجل والصلب والنفي لجريمة النهب وقطع الطرق والإفساد في الأرض التي كانت تهدد الأمن والسلم المجتمعي وتهدد تجارة أثرياء مكة، أي أن أغلب الحدود في الإسلام تأثرت بنفس المؤثرات التي حكمت زمن الجاهلية، بمعنى أنها ارتبطت بظروف المجتمع الذي انبثقت منه، مثل العوامل الاجتماعية لحد القذف

[110] خليل عبد الكريم، نفس المصدر السابق ص 152-155.

والعوامل الاقتصادية لحد السرقة والعوامل السياسية لحد الحرابة، وبهذا المعنى وفي نفس السياق جاء حد الردة مساويا وموازيا للجريمة ورادعا لخطرها ومانعا لتفاقمها.

ولم يكن حد الردة موجها في أي حال ضد شخص بعينه أراد أن يغير عقيدته، طالما أن ذلك يدخل في نطاق الحرية الشخصية وحرية الفكر اللتان يضمنهما الإسلام، وطالما أن ذلك لا يمس المجتمع ولا يؤثر على الآخرين ولا يشكل بذور فتنة، لأن الآيات الكريمة تقول: ﴿لا إِكْراهَ فِي الدّينْ﴾، ﴿لَكُمْ دينُكُمْ وَلِيَ دينْ﴾، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكيلْ﴾... فالإسلام احترم العقل وأعلى من شأنه، وبالتالي فإن أول وأهم مؤشرات احترام العقل هو ترك حرية الخيار له، وعدم إجباره على قالب محدد، لأن أي عملية إجبار في أي اتجاه تتنافى مع طبيعة العقل القائمة على التفكير والاختلاف، وإلغاء لمفهوم الخيار الإنساني، والآية الكريمة تدل على أن اختلاف وجهات النظر بين الناس، وتعدد آرائهم، وتباين مواقفهم، هي الركيزة الأساسية لإستمرار الحياة بوتيرتها الطبيعية، فالإختلاف بين البشر هو قانون الطبيعة الأزلي ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعَ وَبِيَعٌ وَصَلواتٌ وَمَسَجِدَ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ كَثِيرا﴾.

والقرآن الكريم لم يذكر في أي من آياته أن المرتد عقابه القتل، ولم يحدث أن ارتد أحد في زمن النبي لنعلم منه حكم السُنّة في الارتداد، باستثناء كاتب الوحي "عبدالله بن أبي السرح" الذي كان من ضمن من أمر الرسول بقتلهم يوم فتح مكة، ولكن "عبد الله" هذا استأمن بِ"عثمان بن عفان" فعفا عنه الرسول. حتى أن "مسيلمة" التقى بالرسول، وفاوضه على وراثة الأمر من بعده، إلا أن الرسول رفض، وقال له: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ولم يأمر بقتله.

والقرآن يذكر صراحة حكمه في المرتد[111]: ﴿وَمَنْ يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فَأولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ في الْدّنْيا وَالآخِرةِ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونْ﴾، فسبحانه هنا لم يقل اقتلوا من ارتد، بل ادخر عقابه لنفسه في الآخرة، وفي آية كريمة أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدُّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةً عَلى الْمُؤمِنينَ أَعِزّةً عَلى الْكافِرِينَ يُجاهِدونَ في سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونِ لَوْمَةَ لائِمْ ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمْ﴾.

[111] كامل النجار، قراءة منهجية للإسلام، تالة للنشر، طرابلس، ط1، 2005، ص 253.

# التكفير وحرية التفكير

تتسع القاعدة التي يرتكز عليها فقهاء التكفير وتضيق تبعا لاجتهادهم ورؤاهم، وأحيانا تكون في منتهى الوضوح والتبسيط ثم ما تلبث أن يكتنفها الغموض، وأحيانا تكون محددة ثم تصير فضفاضة عامة تحتمل التأويل، والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هي الأسس التي يعتمدها فقهاء التكفير؟ ومن أعطاهم الحق بإطلاق الأحكام وتصنيف الناس ومنحهم شهادة الإسلام أو نزعهم إياها؟

يورد بعض الفقهاء قاعدة عامة للتكفير مفادها أنه لا يجوز تكفير المسلم طالما أنه ينطق بالشهادتين ولم يستحل المعصية ولم ينكر معروفا من الدين، ولكن ما معنى استحلال المعصية؟ وما هي المعصية أساساً؟ فمثلا الخوارج قالت بتكفير مرتكب المعصية، والمرجئة قالوا أنه ما لم يعلن المرء إنكاره للدين وحتى لو ارتكب معصية فإنه يبقى مسلما وحسابه عند الله، بينما قالت المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين، بمعنى أن مرتكب المعصية لا يخرج من دار الإسلام ولكنه آثمٌ قلبه، وقد يُصنف ضمن مرتبة الفاسق أحيانا، أما في تعريف المعصية فإن الفارق واسع والبون شاسع يتسع لاجتهادات الفقهاء على اختلاف مشاربهم الفكرية؛ فقد يرتكب المسلم المعصية زاعما أنها ليست معصية، وقد يرتكبها ويدمن عليها ثم يتوب عنها أو يسعى لذلك، فالمسألة نسبية تحتمل الاختلاف، فما يحلله أبو حنيفة يحرمه ابن تيمية، وما يستحله ابن رشد يكفره ابن قيم الجوزية، والمشكلة ستبدو أعقد عند الحديث عن الخلافات الفقهية بين تيارات الإسلام السياسي اليوم، فما يجيزه الإخوان – كالانتخابات مثلا – يحرمه حزب التحرير، وما يجيزه وعاظ السلاطين – كاستقدام القوات الأمريكية مثلا – يحرمه فقهاء المعارضة، وما تعتبره وزارات

الأوقاف عاديا – كالزجل الشعبي – تعتبره أحزاب المعارضة فسقا ومجونا، وما تمنعه هيئة الأمر بالمعروف السعودية يسمح به الأزهر، وما يعتبره حزب الله مباحا تعتبره جماعة التوحيد حراما، وما يمارسه حزب الدعوة العراقي يعتبره الحزب الإسلامي خيانة، وما توافق عليه معظم التيارات الإسلامية في الوطن العربي يرفضه تنظيم القاعدة ويعده في نطاق الموبقات، ناهيك عن التناقضات داخل التيار الواحد، أو التطورات الدراماتيكية في فهمها للمحرم، كما فعلت حماس بشأن المشاركة في السلطة.

وتبرز المشكلة أيضاً عند تحديد ما هو معروف من الدين، أو ما يسمونه الفقهاء أصول الدين والعقيدة، فأصول الدين عند السنة تختلف في بعض جوانبها عنها عند الشيعة، وما يعتبره الإباضية من الإسلام تعتبره الوهابية من الكفر، وما تعتبره الوهابية توحيد للأسماء والصفات يعتبره مناوئيهم تجسيما وشركا بالله، وما تفتخر به المعتزلة يعتبره الغزالي تهافتا، وما يقتنع به المتكلمون يستنكره السلفيون، وما تمارسه الصوفية تستهجنه الوهابية.. الخ

يقول الأديب المصري "علاء الأسواني" في هذا الموضوع إن المعلوم بالدين بالضرورة لفظ غائم غير محدد[112].. من الممكن أن يشمل أشياء كثيرة صحيحة أو مغلوطة، وقد تم استعمال هذه التهمة بالذات لتكفير مفكرين وأدباء كثيرين في السنوات الأخيرة.. ويضيف "الأسواني" أنه إذا كانت شروط التكفير هذه ستنطبق على الأدباء العرب في كل العصور فإنها ستُخْرج معظمهم من ملة الإسلام، مثل كبار شعراء العربية الذين تغنوا بحب الخمر، وكذلك الشاعر العظيم "أبى نواس" الذي دعا في بعض أشعاره إلى الزنا والغلمان، وكذلك الشاعر الكبير "أمل دنقل" الذي بدأ إحدى قصائده بتمجيد

---

[112] علاء الأسواني، قواعد تكفير الأدباء، جريدة الدستور، 20-10-2008.

الشيطان، و"الجاحظ" الذي يعد أعظم كاتب في تاريخ الأدب العربي، الذي كتب رسالة كاملة عن المفاخرة بين أصحاب الغلمان وأصحاب الجواري، واستعرض فيها منطق الشواذ جنسيا في تفضيلهم الغلمان على النساء، وبالمثل "أبى حيان التوحيدي" و"ابن حزم" و"ابن عبد ربه" وغيرهم من أعلام الأدب العربي، وكلهم تحدثوا عن المعاصي حديث من يستمتع بها ويدعو إليها؟ ويتساءل "الأسواني" في مقالته عن مصير هؤلاء، هل نعتبرهم كفارا ونمنع أعمالهم من التداول ونحرق كتبهم؟

ولو طبقنا قواعد التكفير على هؤلاء وغيرهم لأصبحت أعمالهم منكرا لما هو معلوم بالدين بالضرورة، وبالتالي سنكّفرهم ونبيح دمهم ونفرقهم عن زوجاتهم وأبناءهم ونقذفهم بأبشع التهم، كما حصل مع العديد من المفكرين والشعراء والفلاسفة الذين حُرقت مؤلفاتهم كإخوان الصفا والمعتزلة و"ابن رشد". أو الذين اتهموا بالزندقة والهرطقة مثل "الطبري" و"الرازي"، و"الراوندي". أو الذين قُتلوا وصُلبوا بتهمة الكفر، مثل "جعد بن درهم" و"ابن المقفع" و"بشار بن بُرد"، و"غيلان الدمشقي"، و"الحلاج"، قديما، أو الذين اتهموا بالكفر حديثا مثل "سلمان رشدي" و"صادق جلال العظم" و"علي عبد الرازق" و"نصر أبو زيد" و"نجيب محفوظ" و"طه حسين". أو دفعوا حياتهم ثمنا لمواقف فكرية وآراء نظرية، مثل "علي الدشتي"، و"فرج فودة" و"حسين مروة" و"محمود طه"، و"مهدي عامل"..

ويختتم "الأسواني" قائلا إن هذا المنطق المتشدد هو أبعد ما يكون عن قراءة الأدب! فالأدب يلتقي مع الدين في الأهداف العامة، لكن تفاصيل الأدب لا يجب أبدا أن نطبق عليها قواعد الدين.. فالأدب والدين يلتقيان في الدعوة إلى المبادئ الإنسانية كالحق

والخير والجمال، وهما يدافعان عن العدل والحرية وكرامة الإنسان، لكنهما يسلكان إلى ذلك طريقين مختلفين تماما.[113]

أما "أدونيس" فيدلي بدلوه في هذا المجال في كتابه "الخطاب والحجاب" قائلاً: "الشعر والحقيقة الشعرية يتناقضان كليا مع الحقيقة الدينية، فالحقيقة في الشعر غير ثابتة وغير واضحة وغير نهائية، لأن الشعر سؤال واستشراف وتشكيك، والدين جواب وتقرير وتعليم".[114]

وفي عصر الرئيس "السادات"، سنَّ القانون المصري قانونا جديدا، خُصص لتهمة مبتكرة آنذاك أطلق عليها "إزدراء الأديان"، والدعوى المرفوعة بموجبها تدعى "الحسبة"، وصار بوسع أي مواطن أن يرفع قضية ضد أي فنان أو مفكر لا يعجبه طرحه، ويعتبره تطاولا على المقدس، وبالطبع كان وراء هذه القضايا جماعات الإسلام السياسي؛ التي أخذت تستقوي بهذه المحاكم للنيْل من خصومها.

(نصت المادة 98 من قانون العقوبات المصري: يعاقب بالحبس مدة لا تقل عن 6 أشهر ولا تتجاوز الـ5 سنوات أو بغرامة لا تقل عن 500 جنيه ولا تتجاوز الـ1000 جنيه كل من استغل الدين في الترويج بالقول أو الكتابة أو بأية وسيلة أخرى لأفكار منطوقة بقصد الفتنة أو تحقير أو ازدراء الأديان السماوية أو الطوائف المنتمية إليها أو الإضرار بالوحدة الوطنية أو السلام الاجتماعي).[115]

---

[113] علاء الأسواني، نفس المصدر السابق.

[114] أدونيس، الكتاب الخطاب الحجاب، دار الآداب، بيروت ط1 2009، ص 41-42.

[115] رباب كمال، إزدراء الأديان، أم ازدراء العقول، أخبار، 18-10-2015. www.dotmsr.com/details/382175

ولا شك أن التباعد الذي حصل بين الدين في روحه ومضامينه الإبداعية وبين تجليات هذا الدين في ممارسات وفتاوى الفقهاء المنغلقة قد أدت في النهاية إلى ما يشبه القطيعة بين الدين من جهة والإبداع من جهة أخرى، وبروز هذا المنهج التكفيري في التراث الإسلامي، والسبب في ذلك يعود إلى التحول الدراماتيكي في فهم الإسلام بعد وفاة الرسول، إذ أن الرسول كان يسعى لتشجيع الإجتهاد وجعله قاعدة الإسلام الأساسية، بحيث يكون كأي اجتهاد بشري لا يتمتع بصفة الإطلاقية والثبات، ولا يكون هذا الاجتهاد إلزاميا، ولكن بعد وفاة النبي يدأ التحول بفهم الدين بوصفه تجربة روحية حية ونظام حياة مرن ومتحرك إلى نظام كهنوت وفقه جامد، ثم تم الإنتقال بسياسة الدولة من سياسة الرسول الذي كان يجمع بين السلطة الزمانية والمكانية بصفته نبي ورسول إلى سياسة الخليفة الذي صار يتقمص نفس الصفات، وقد صار الانتقال بالدولة لا بقوة الدين وحده بل بقوة القبيلة، حيث تمكنت "قريش" من إقصاء القبائل الأخرى وأولهم الأنصار، وهكذا بدأ الدين يتحول إلى وسيلة سياسية حولته بدورها إلى مجرد فقه وتشريع[116]، وبالتالي تقلص عالمه الروحي الفكري إلى درجة صار يعتبر فيها الفقهاء كل إبداع بدعة تودي إلى الضلالة، وفي كل حرية فكر تهافت يؤدي إلى الكفر.

اليوم ابتدع فقهاء الإسلام السياسي مصطلح أسلمة كل شيء: أسلمة المجتمع، أسلمة الفنون والعلوم والآداب... وهذا مجرد إسقاط فكري سياسي على واقع متخيل، يهدف إلى بث أيديولوجيا حزبية محددة، وإعادة تعريف مفاهيم إنسانية عامة من منطلقات سياسية أضيق، ولكن بمحددات سياسية معينة مغلفة بالدين ومحمية بنصوص مقدسة.

---

[116] أدونيس، نفس المصدر السابق ص 99.

إن كل ما ينتجه العالم اليوم من أدب وفن، ومن تقدم علمي تكنولوجي، ومن تطور في أساليب الحياة ومفاهيم حقوق الإنسان والعلاقات الإنسانية بين الشعوب والعلاقات بين الدول والمواثيق الدولية... هو حصيلة التجربة الإنسانية العامة وليس لأحد أن يدعيها لنفسه، ورغم أن الحضارة الإسلامية كان لها إسهام واضح ومهم في إنضاج التجربة الإنسانية، إلا أن هذا الإسهام مجرد حلقة من سلسلة تتكامل فيها تجارب الشعوب وتفاعل الحضارات على مر التاريخ، ومن هنا فإن عملية إلباس العلوم والفنون ثوبا إسلاميا ستكون مجرد عمل سياسي يفصح عن نوايا سياسية معينة، وهو منهج يتناقض مع المنطق.

فحتى لو التقت الغايات العامة للتجربة الإنسانية بكل مكوناتها مع غايات الإسلام من حيث سعيهما إلى النور وهداية الإنسان إلى الحق والصواب والعدالة الاجتماعية واحترام الإنسان، وإنكارهما للباطل والظلم والفواحش، إلا أن أسلوب وآليات عمل كل منهما تختلف عن الأخرى أيما اختلاف؛ فالأدب ينشيء تجربة خيالية محلقة يسعى إلى إقناع الناس بأنها حقيقية، ولا يمكن له أن يبدع في ذلك إلا إذا تحرر من كل القيود والتابو والمحرمات، ووجّه ضرباته للأعراف السائدة، ولكن على أن يكون هذا الفن جميلا محملا بطاقة فنية وإنسانية رفيعة، والعلم لم يمكن له أن يصل ما وصل إليه اليوم إلا بعد أن تخلص من سطوة الكهنوت، ولن يصل مداه إلا إذا أزال التابو من طريقه، والأدب لا يرتقي في بيئة تتسم بالتشدد والانغلاق ويحكمها عقلية النص المقدس، والإبداع لا يكون مع مقص الرقيب الذي يمارس رقابته بعقلية القيِّم، والمستقبَل لن نصل إليه ونحن مشدودين للماضي ومربوطين بأوتاد التاريخ، وهذا هو جوهر الخلاف مع

مشروع الإسلام السياسي المثقل بالميثولوجيا والتابو والذي يحيط كل شيء بهالة من القداسة تمنع رؤيته، والذي تديره عقلية متزمتة تحرم أي شيء ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

هذا الطرح سيوصلنا إلى فهم حقيقة التصادم الحاصل اليوم بين تجربتين ومنهجين: التجربة الإنسانية الديمقراطية في مواجهة القمع والتسلط، تجربة الثقافة الوطنية الشعبية في مواجهة القوى الطائفية، تجربة التسامح والتعددية والحوار والتعايش بين بني البشر في مواجهة التشدد السلفي والتعصب الفكري المتخلف، تجربة الدولة المدنية في مواجهة الدولة الثيوقراطية، أي معركة الحرية ضد الاستبداد ومعركة الإنسان ضد الجهل التكفير..

وما بين الفكر السلفي الماضوي المتخلف والقمع والديكتاتورية ارتباط قوي على أقوى ما يكون الارتباط؛ فالفكر المتزمت المتشدد يوفر الأرضية الملائمة لقوى القمع والاستبداد، فهو يدعو إلى طاعة الحاكم المسلم ويحّرم الخروج عليه مهما ارتكب من ظلم ومهما ظهر فيه الفساد، والقمع السلطوي ينشىء عقلية مستلبة منغلقة عدوانية تميل إلى التحريم والتكفير، والفكر السلفي يركز على القشور والشكليات التي لا تؤثر على السلطة ولا تتدخل في السياسة وغير قادرة على مواجهة الظلم، والسلطة القمعية تشجع هذا النوع من الممارسة الدينية لأنها تضمن لها الاستمرارية بدون منغصات، بل ويمكن توظيفها لإكساب السلطة شيئاً من القداسة الدينية..

يقول "علاء الأسواني"[117]: "في مستهل القرن العشرين كان الكاتب يقول كل شيء والفنان يقدم كل ما عنده دون خوف، وكان المجتمع يتقبل ذلك بروح رحبة وصدر

---

[117] علاء الأسواني، قواعد تكفير الأدباء، جريدة الدستور، 20-10-2008.

واسع، اليوم، ومع تعاظم قوة تيارات التكفير صار الفن ابتذالا، والأدب تجرؤ على المقدس، والإبداع ضلالة، والعلوم شرك بالله، والجمال فضح للعورات". أي صار كل شيء محرما.. صالونات التجميل، مقاهي الإنترنت، دور السينما، التراث الشعبي، استعمال المرحاض في جامعة أسوان، صناعة الثلج في حواري بغداد!

وفي هذا المضمار يضيف "الأسواني": "لم نكن عندئذ أقل إسلاما مما نحن الآن.. لكننا كنا أكثر تمسكا بروح الإسلام الحقيقية، وأقل حرصا على مظاهره، ولذلك إستطاعت مصر على مدى قرن كامل، بالرغم من الاحتلال البريطاني، أن تكون رائدة العالم العربي في الفكر والأدب والموسيقى والسينما والمسرح، أما الآن فإننا نضطر إلى مناقشة أستاذ في كلية الآداب حول القواعد التي تبيح له تكفير الآخرين"، والمشكلة لا تنتهي عند التحريم، بل تبدأ من هناك، فالتحريم يقود للتكفير والتكفير يستوجب القتل.

# التكفير في فكر الأصولية المعاصرة

يقول الأب النظري للخطاب الإخواني "محمد رشيد رضا" (1865 ~ 1935): "يجب أن تخضع كل أمور الدولة المسلمة إلى دستور مستمد من القرآن والحديث وأفعال الخلفاء الراشدين"؛ أي أن "رضا" يرفض أي حياة خارج هذه الدائرة ويرفض كل الممارسات التي من السهل عليه تصنيفها على أنها منافية لدستور الإسلام، والمشكلة تكمن في المستجدات التي حدثت بعد اكتمال نزول القرآن، وبعد وفاة النبي ونهاية فترة الخلافة الراشدة، ناهيك عن المنازعات والأحداث التي وقعت خلال تلك الفترة وكانت سببا في إشعال ثلاثة حروب داخلية. وهذه المستجدات والمفاهيم الخلافية تشمل معظم مرافق الحياة المدنية في العصر الحديث، وهذه المعضلة من الممكن أن تجد طريقها للحل لو كان باب الاجتهاد مفتوحا، ولو أن سدنة وفقهاء الدين لا يحتكرون النص وتفسيره ويحرمون على الآخرين الاقتراب منه، فالإجتهاد الحقيقي الذي يقترن بالإبداع لم يكن معطلا منذ أن حاول "سليمان القانوني" أن يجمع كل الآراء الفقهية بين دفتي كتاب جامع مانع لا يبقِ للآخرين شيئا يبحثون فيه، بل هو معطَّل منذ أن أُوكل التفكير لعدد من الفقهاء، واقتصر الأمر عليهم، وصاروا يفكرون نيابة عن الناس، وما زال أثرهم باقيا ومهيمنا حتى اليوم.

أما "حسن البنا" (1906 ~ 1949) مؤسس جماعة الإخوان المسلمين فيقول: "نحن في حالة حرب، وعلى كل زعيم أو رئيس أو حزب أو هيئة لا تعمل على نصرة الإسلام، ولا تسير على طريق استعادة حكم الإسلام ومجده، وسنعلنها خصومة لا سلم فيها ولا

هوادة حتى يفتح الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين"[118]، أي أن "البنا" يضع نفسه وجماعته في حالة حرب دائمة مع كل من لا يسير على نهجه، سواء كان فردا أم مؤسسة أم نظام، ونهجه هذا هو ما يراه وما يقتنع فيه دون أن يترك أي فسحة لرأي مخالف أو وجهة نظر مضادة، لأنها مباشرة ستدخل في نطاق من لا يسير على هدي الإسلام، وستكون في الخندق المضاد.

أما "سيد قطب" المؤدلج الأساسي للخطاب الأصولي المتشدد (1906 ~ 1966) فيقول: "الله، وليس الإنسان هو الذي يحكم، الله هو مصدر كل السلطة بما فيها السلطة السياسية.. والفضيلة، وليست الحرية هي أقيم المُثل الإنسانية، ولذا يجب أن يكون قانون الله وليس قانون الإنسان الوضعي هو الذي يحكم أي مجتمع"[119]، ف"سيد قطب" هنا يعتبر أن أي اجتهاد بشري مهما كانت درجة إبداعه هو اجتهاد قاصر، لأن البشر في نظره قاصرين وغير مؤهلين لحكم أنفسهم ولا لإصدار أي تشريع أو سن قانون، لأن هذا من اختصاص الله سبحانه دون غيره، وبناء عليه ستكون كل الدساتير والأنظمة التي يتبعها البشر في أنحاء المعمورة باطلة وضالة وكافرة، ومن يتبعها ضال وجاهل، وقد أعلن "محمد قطب" عن ذلك صراحة حين أطلق وصف "جاهلية القرن العشرين"، وقد وضع الحرية والفضيلة في جهتين متضادتين وقدم الفضيلة على الحرية، لأن الفضيلة عنده هي القيم التي يؤمن بها والأيديولوجيا التي يسعى لترسيخها، أما الحرية فهي حرية الفكر التي ستنقد هذه الأيديولوجيا وقد تقوّض بناءها.

---

[118] حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، ص 144.

[119] كامل النجار، قراءة منهجية للإسلام، مصدر سبق ذكره، ص 252.

أما الداعية الإخواني "فتحي يكَن" فيقول: "إن المنهج الإسلامي هو رباني مما يجعل له القوامة على سائر المناهج الوضعية، فهو المنهج الأوحد الملائم لاحتياجات الفطرة والتنسيق بين متطلبات الإنسان النفسية والحسية"[120]، أي أن "يَكَن" يعتبر أن نهج الإخوان هو النهج الإلهي الصحيح، وعلى كافة التيارات والمذاهب الفكرية والحركية الأخرى أن تتخلى عن عقائدها وأن تصحح أوضاعها وتقتدي بالإخوان وتحذو حذوهم، أو أن تنخرط في صفوفهم أو تقبل بقيادتهم، لأن ما دونهم هو الباطل الذي يتوجب محاربته.

وإذا كان هذا حال جماعة الإخوان المسلمين، الذين يوصفون بالجماعة المعتدلة والعقلانية، وهذا منهجهم في التكفير، فكيف سيكون منهج الجماعات الأخرى التي توصف بالمتشددة والمتطرفة؟!!

وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن جماعة الإخوان المسلمين أكثر اعتدالا مقارنة بجماعة الجهاد المتطرفة التي تستعمل مبدأ التكفير إلى درجة الغلو.

فالحركات الأصولية تطلب من أتباعها أن يكفروا بكل المناهج الوضعية، وأن يسلموا بفشل النظم الرأسمالية والإشتراكية والديمقراطية والعلمانية بسبب زمنيتها ومحدوديتها وطبيعتها البشرية وقصورها على كافة الصعد الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، مما يعني فتح النار على كل هذه النظم والأفكار والتيارات، وبالتالي الإكتفاء بالبديل الوحيد "الرباني" والذي هو بالطبع نهج الحركات الأصولية.

وفي هذا الصدد يبين الباحث "صلاح عبد العاطي" أسلوب الحركات الأصولية في تربية عناصرها فيقول: "وتشترط الحركات الأصولية الإسلامية واجبات على المنتمي

---

[120] صلاح عبد العاطي، العلمانية والأصولية في المجتمع العربي، مصدر سبق ذكره، ص 56-57.

لها، وقد حددتها رسائل "حسن البنا"، ومن ضمنها أن يعمل العضو على إحياء العادات الإسلامية وإماتة العادات الاجتماعية في كل مظاهر الحياة، وأن يقاطع المحاكم المدنية وكل قضاء غير إسلامي والأندية والصحف والمدارس والهيئات التي تناهض الفكرة الإسلامية"[121]، إذن، فتعاليم الحركات الإسلامية التي دعا لها "البنا" تقتضي على مناصريها القطيعة الكاملة مع كل مكونات المجتمع من قضاء ومحاكم وصحافة ومدارس وأحزاب... والنظر إليها نظرة عدائية، والبديل الجاهز هو تبني شعارات الحاكمية لله، تطبيق الشريعة، الإستخلاف في الأرض، هجرة المجتمع الجاهلي، إقامة الدولة الإسلامية... بمعنى أن أيديولوجيا الحركات الإسلامية تحدد صورة الذات والآخر استنادا إلى هذه المفاهيم والأفكار، وتصنف المجتمع على مسطرتها، وبما أن الآخر لا يتبنى هذه الأفكار فهو كافر أو على وشك الكفر، وبالتالي فعلى الحركات الإسلامية أن تفرض على الآخرين ما تراه وفقا لأحكامها.

وحقيقةً، فإن هذه القاعدة لا تنطبق حرفيا على كل الحركات الإسلامية، فهناك تيار واسع من الإخوان المسلمين – كبرى الحركات الإسلامية، التي انبثقت عنها معظم الجماعات الأخرى – لديه قدر كافي من المرونة بحيث يجعله مهيئا للتعايش مع منظمات وحركات يسارية وعلمانية ومع أنظمة ليبرالية لا تطبق الشريعة الإسلامية، ومع أن هذا التعايش مع تلك النظم لا يعني القبول بأفكارها أو التسليم بمبادئها، وقد يكون من باب التقيّة.

---

[121] صلاح عبد العاطي، مصدر سبق ذكره، ص 58، عن فتحي يكن، ماذا يعني انتمائي للإسلام، مؤسسة الرسالة، ص 135-139.

ولكن الأمر يبدو أكثر وضوحا وعلى قدر أعلى من الصرامة والحدية مع حركات أصولية أخرى كالجماعات الجهادية وجماعات التكفير والهجرة وتنظيم القاعدة، وداعش والنصرة التي تعتبر أن كل من هو خارجها كافر يتوجب محاربته؛ لدرجة أن تنظيم داعش دخل في قتال عنيف مع جبهة النصرة في خضم الأزمة السورية، قُتل فيه العشرات.

ولعل أكثر التنظيمات تشددا، تنظيم القاعدة، الذي لعب فيه "أيمن الظواهري" دور المنظر والمؤدلج والمؤسس لنهجها المتزم، و"الظواهري" كان في الأساس من الإخوان، واعتقل وهو في صفوفهم، إلا أنه انشق عنهم وأسس مع "بن لادن" تنظيم القاعدة. وقد تبلور مبدأ التكفير عند "الظواهري" في أفغانستان، وقد عبّر عن أفكاره في كتابه (الحصاد المر، الإخوان المسلمون في ستين عاما)[122]، حيث كفّر فيه كل من لم يحكم بشريعة الله، أو يسخر منها (بمعنى إذا حكم بغيرها)، وكل من يحكم بالقوانين الأوروبية. كما كفّر الديمقراطية بكل مظاهرها وتجلياتها، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، وكفّر أيضا المجالس النيابية، والقوانين المعاصرة التي اعتبر أنها تحرم الحلال، وتحلل الحرام.

ولم يكتف الظواهري بتكفير الأنظمة؛ فقد صبَّ جام غضبه على جماعة الإخوان المسلمين نفسها، متهما إياها بمهادنة السلطة الحاكمة، وطالبهم بالتوبة، والعودة إلى جادة الصواب، وتصحيح الانحراف الذي انزلقوا فيه، وإعلان كفرهم بالدساتير والقوانين الوضعية والديمقراطية والانتخابات البرلمانية، وأن يتخلوا عن جميع الممارسات المتعلقة بهذا، وأن يؤمنوا بوجوب جهاد هؤلاء الطواغيت، وأن يدعوا

---

[122] أيمن الظواهري، الحصاد المر، الفجر للإعلام، ط2، 2007.

أتباعهم له. كما هاجم حركة حماس في تصريح مسجل، معتبرا إياها تتشارك "الكفر" و"الخيانة" مع منظمة التحرير الفلسطينية، وتهادن "اليهود".

أما أول جماعة استخدمت التكفير بشكل واضح وحاد، فهي جماعة التكفير والهجرة. وهذه الحركة تشكلت في سجون مصر في الستينات بقيادة الشيخ "علي إسماعيل ماهر"، و"عبد العزيز زناتي"، و"شكري أحمد مصطفى"، وقد تبلورت الحركة في صفوف طلبة الجامعات، سيما جامعة أسيوط. وقد كفّرت الجماعة مرتكبي الكبائر الذين لم يتوبوا عنها، كما كفّرت الحكام والمحكومين والعلماء الذين يتمادون في الضلالة، واختارت الهجرة مسلكا للهروب من عالم الجاهلية والفساد، حيث هجر أصحابها المساجد، وتخلوا عن صلاة الجمعة، وهجروا التعليم والمدارس، وهجروا الوظائف الحكومية، وهجروا المجتمعات الإسلامية بمن فيها. ويعني هذا أن هذه الحركة تنبني على مرتكزين أساسيين هما: التكفير، والهجرة إلى الله. وهي قريبة بفكرها من فرقة الخوارج ومن حيث آرائها ومبادئها السياسية. وأغرب ما في هذه الحركة هو إسقاطها بعض التكاليف الشرعية كصلاة الجمعة مثلا، والدعوة إلى الأمية، لأن النبي كان أميا، على حد زعمها.

كما تشكلت في مصر جماعة أخرى تحت قيادة "أحمد عشوش"، تسمى بالطليعة السلفية الجهادية (أنصار الشريعة) التي أعلنت في بيانها التأسيسي عام 2012 بأنها تهدف إلى تصحيح الوضع الإسلامي، بالدعوة إلى الحكم بما أنزل الله، ومحاربة البدع وأهلها، ومحاربة الشرك السياسي الذي يتمثل في الليبرالية والشيوعية، ومحاربة الأنظمة الباغية

التي لا تحكم بالشريعة الإسلامية، ونبذ القوانين الأجنبية الكافرة، ومحاربة عمليات التنصير.[123]

وأيضا برزت في العام 2011 كتائب أنصار بيت المقدس، التي نشطت في سيناء، وشنت هجمات عديدة على الجيش المصري، وقتلت منهم العشرات.

كما ظهرت في المغرب جمعية العدل والإحسان بزعامة "عبد السلام ياسين" سنة 1987، وقد اتخذت التكفير مبدأ أساسيا في دعواتها وبياناتها ورسائلها، وكفّرت الفرق السياسية المناوئة، كما كفّرت بعض علماء السلفية. وكذلك ظهرت جماعة "الصراط المستقيم" المتهمة بتنفيذ تفجيرات الدار البيضاء، وفاس، ومكناس، وغيرها.

وفي لبنان، وخلال العقد الأخير برز موضوع انتشار المجموعات الإسلامية المتطرفة المدججة بالسلاح خاصة في طرابلس وصيدا وداخل المخيمات الفلسطينية، حيث استفادت الجماعات الأصولية من حالة الضعف والتراجع التي ألمت بالحركة الوطنية كلها، فنمت في غفلة عن أعين الدولة، وتفاقم نشاطها أكثر مع توتر الأجواء السياسية وزيادة منسوب الشحن الطائفي، سيما بعد الأزمة السورية.

ويقول الخبراء في الشأن اللبناني أن المخيمات الفلسطينية هي مركز التجمع الأساسي لهذه الجماعات، حيث تختزل المشهد السياسي المتداخل والمعقد، وتختلط فيه الأفكار الثورية والأصولية بأنواعها المتطرفة والمعتدلة كلها، حتى تحولت المخيمات إلى ساحة صراعات، وساحة لحروب الآخرين، وصارت ملجأ يؤوي المجموعات المتطرفة والخارجين عن القانون والمطلوبين للعدالة. ويتحدث البعض عن "خلايا نائمة" تنشط داخله بسرية،

---

[123] هارون زيلين، تعرف على أنصار الشريعة في بلدك، معهد واشنطن، 21-9-2012.
http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/know-your-ansar-al-sharia

وقد تظهر إلى العلن في أي وقت بحسب التطورات المحلية والإقليمية. ومعلوم أن القوى الأمنية اللبنانية لا تدخل إلى المخيمات الفلسطينية التي تتولى الأمن فيها الفصائل الفلسطينية.

وأبرز الجماعات الأصولية التي تتبنى التكفير نهجا وممارسة هي "عصبة النور" التي نمت بقوة النفوذ السوري برئاسة الشيخ "هشام الشريدي" الذي كان من كوادر "فتح" ثم خرج منها وصار يكّفرها مع الفصائل الفلسطينية الأخرى.[124] وبعد أن اغتيل عام 1991، تولى من بعده «أبو محجن» الإمارة، وهو من المطلوبين للعدالة اللبنانية لإدانته غيابياً بتهمة اغتيال الشيخ "نزار الحلبي" رئيس جمعية المشاريع الإسلامية (الأحباش)، وهي التي كانت تجاهر بعدائها للفكر الوهابي. بعد ذلك تحوَّل أتباع عصبة النور إلى «الأنصار» بقيادة "أبو محجن"، إلى أن تم اغتياله، ولم يمنع اختفاء "أبو محجن" من ازدياد قوة تنظيم "عصبة الأنصار" وتوسع نفوذه داخل المخيم فصارت له مساجده، وشوارعه ومراكز تدريبه، وخضعت له أحياء بأكملها، التي باتت كالإمارة الإسلامية المصغرة، واستطاع هذا التنظيم المتأثر بأدبيات تنظيم "التكفير والهجرة" وأفكار "أيمن الظواهري" من تعميم مبدأ "الفقه التكفيري" داخل مخيم عين الحلوة، والذي أدّى إلى مزيد من التصفيات والاغتيالات لمن اعتبروهم "أعداء الإسلام". ولم تسلم "عصبة الأنصار" من الانشقاقات التي عصفت بمعظم التنظيمات، ليخرج منها "عبد الله الشريدي" (نجل مؤسس العصبة هشام الشريدي) ويعود لِ"جماعة النور".[125]

---

[124] صبحي منذر ياغي، التنظيمات الأصولية في المخيمات الفلسطينية. الخيام. .http://khiyam.com/news/article.php?articleID=237

[125] صبحي منذر ياغي، مصدر سبق ذكره.

وهناك أيضا تنظيم جند الشام:[126] الذي برز بعد سقوط بغداد عام 2003، حيث ابتعدت الحركات السلفية عن مشروعها «الجهادي» في لبنان لتنقله إلى العراق عبر تصديرها المقاتلين بعد تدريبهم. وينسب إلى عصبة النور إرساء ثقافة «الهجرة الجهادية» في المخيمات (يقدر عدد الشبان الذين قتلوا من أبناء مخيمي عين الحلوة والرشيدية في العراق بالعشرات) وكان من نتائج هذا التحول نشوء تنظيم «جند الشام»، الذي يصنفه البعض انشقاقا صغيرا وهشا عن العصبة، عناصر جند الشام أكثرهم لبنانيون وسوريون وعراقيون ويمنيون وسودانيون ومصريون وحتى باكستانيون من جنسيات أخرى عديدة. وأيضا "جماعة الضنية"، وهو تنظيم خاص ضم عناصر أصولية وعناصر سابقة من «حركة فتح - المجلس الثوري». يذكر أن "أبو مصعب الزرقاوي" هو أول من انشأ هذا التنظيم في معسكر هيرات شرق أفغانستان.[127]

وكذلك تنظيم فتح الإسلام:[128] الذي ظهر لأول مرة في مخيم نهر البارد، في 2006. وأعلن انه «يكفر بالطاغوت وسوف يحكم شرع الله في الأرض لتكون كلمة الله هي العليا». وهناك ما يشبه التحالف بين "جند الشام" و"فتح الإسلام"، لا بل أن البعض ذهب إلى اعتبار "فتح الإسلام" بمثابة الاسم الحركي لـ"جند الشام". ورئيس التنظيم "شاكر العبسي" هو فلسطيني أردني مطلوب من السلطات الأردنية في قضية اغتيال دبلوماسي أميركي في عمان. بعد أحداث نهر البارد تم تصفية هذا التنظيم، ولكن بعد أن خلف وراءه دمارا شاملا لمخيم نهر البارد، جراء معاركه العنيفة ضد الجيش اللبناني،

---

[126] صبحي منذر ياغي، مصدر سبق ذكره.

[127] صبحي منذر ياغي، مصدر سبق ذكره.

[128] صبحي منذر ياغي، مصدر سبق ذكره.

وتسببت المعارك بمقتل 400 شخص بينهم 168 جنديا ونزوح حوالي 31 ألف شخص.

وأيضا جماعة "التكفير والهجرة" بقيادة اللبناني "بسام كنج"، واللبناني "غاندي" المعروف بـ "أبي رامز الطرابلسي" وهو من الذين كانوا قد فروا إلى المخيم بتهمة المشاركة في اغتيال "نزار الحلبي" (مسؤول الأحباش).

أما في فلسطين، وبالذات قي قطاع غزة؛ فبسبب الأوضاع الصعبة والاستثنائية التي يعيشها القطاع، ونتيجة الحصار الظالم، وانغلاق الأفق السياسي، شهد قطاع غزة في سنوات حكم حماس بروز عدد من الجماعات السلفية المتشددة، مثل: سيوف الحق، وسيوف الإسلام، وأنصار جند الله، وحزب الله الفلسطيني، وجيش الإسلام، ومجموعات أخرى من التيارات السلفية ارتبط اسمها بتنظيم القاعدة.[129]

وقد أثارت هذه التنظيمات الكثير من مظاهر الفوضى وأخْذ القانون باليد، سيّما وأنها تسعى لتنفيذ برامجها الإقصائية والتكفيرية. ففي مدينة رفح أعلنت "جماعة أنصار جند الله"، عن إقامة إمارة إسلامية في رفح، الأمر الذي تسبب بمذبحة، حيث قامت قوات حماس بقتلهم وهم متحصنون داخل المسجد. وكذلك قامت "سرية الهمام محمد بن مسلمة" بخطف وقتل المتضامن الايطالي "أريغوني".[130]

---

[129] بيسان عدوان- بانوراما عربية، البلقنة الفلسطينية.. خطوات نحو بدائل للحركة الوطنية، الحركات السلفية في غزة. 25-2-2011.

http://www.journal-ap.com/Print.aspx?AID=1729

[130] محمد أبو علان، شبكة أمين الإعلامية، تقرير الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان - ديوان المظالم، يناير 2010،

http://blog.amin.org

ومن التنظيمات التي أثارت قلق حماس بشكل خاص، تنظيم "جلجلت"، وهو تشكيل مؤلف من مقاتلين، معظمهم من كتائب القسام، ويقول الباحث يزيد صايغ أن "جلجلت تسعى إلى فرض مفاهيمها الدينية بالقوة على المجتمع الفلسطيني في غزة، وتعارض انشغال حماس في تلبية متطلبات الحكومة وخدمة الناس، عن الهدف الأسمى والأهم، وهو أسلمة المجتمع، وترى أن حماس بهذا الانشغال تكون قد عرضت نزاهتها الإسلامية للخطر، وأساءت لتعهدها بخوض المقاومة ضد إسرائيل".[131]

[131] د. يزيد صايغ، ثلاثة سنوات من حكم حماس في غزة، تقرير صادر عن مركز كراون لدراسات الشرق الأوسط – جامعة براندايز، ترجمة مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات – بيروت، أيار 2010. ص 6.

# منهج التكفير عند السلفية والوهابية

الحلف الذي تم بين الشيخ "محمد بن عبد الوهاب" والأمير "بن سعود"، والذي قامت على أساسه دولة آل سعود فيما بعد، كان حلفا سياسيا بامتياز، التقت فيه المصالح المادية للطرفين؛ فالشيخ كان مطرودا من منطقته في الإحساء ومهدورا دمه، ويبحث عن الحماية والإيواء، فيما كان الأمير منهمكا في مشروعه التوسعي وبسط نفوذه على القبائل، وبحاجة إلى مسوّغ شرعي لتصفية خصومه، وبهذا الاتفاق يمكن لنا تصنيف حركة "الإخوان" التي تشربت الوهابية ضمن الحركات السياسية الدينية التي ظهرت في وقت مبكر من القرن العشرين.[132]

فبعد نزع ما أحاطته حول نفسها من قداسة دينية، ستظهر الوهابية على حقيقتها؛ كجماعة سياسية تستخدم الدين للوصول للسلطة، دون أن يكون ذلك استهانة بجهودها في الدعوة إلى نقاء العقيدة والتوحيد، ولعل نظرة سريعة على أهم بنود التحالف يكشف منهج التفكير والمسوغات في تحليل قضية التكفير والقتل في الفكر الوهابي[133]، فقد ورد في ديباجة الاتفاق بين الإمام والملك عبارات من نوع : "الدم بالدم.. الهدم بالهدم.. يفتح لك الفتوحات.. فيعوضك من الغنائم.. إلخ "، والسؤال هو: أين ستكون هذه الفتوحات؟ ومن أين ستؤخذ تلك الغنائم؟ ودم من الذي سيُهدر؟ وغنائم من؟! طالما أن جُل سكان الجزيرة العربية هم من المسلمين!

---

[132] حركة الإخوان، هم العشائر البدوية المقاتلة التي جندها بن سعود وابن عبد الوهاب، وكانت عنيفة ودموية، وتنشر الرعب أينما حلت.

[133] عبد الحكيم الفيتوري، الحوار المتمدن، العدد 2443، 23-10-2008.

من أجل هذا اتخذ الوهابيون التكفير منهجا لإقصاء خصومهم وتبرير احتلال أراضيهم، كما اتخذوا من "ابن تيمية" أنموذجا وقدوة، وحيث اعتبر "ابن تيمية" أن ولاية المتغلب والقتال تحت رايته وسحق مخالفيه أمر مقبول شرعا وعقلا وعرفا، لأنه حسب "ابن تيمية" يُعتبر الواقي من بعبع الفتنة، وقد قال في هذا الشأن (سلطان ظلوم خير من فتنة تدوم)[134]، فقد جاء من بعد "ابن تيمية" الوهابيون، واتبعوا منطقه في ولاية المتغلب، والولاء للسلطة. ومن الجدير بالذكر أن مسلسل التشدد والتزمت الذي افتتحه "ابن حنبل" ورسخه "ابن تيمية" وأضاف عليه، ثم تلقفه تلميذه "ابن قيم الجوزية"، ثم زاد عليه "ابن عبد الوهاب" في القرن التاسع عشر، قد تواصل إلى يومنا هذا حتى صار بمثابة القاعدة الأيديولوجية للجماعات الأصولية على يد "أبو الأعلى المودودي" و"سيد قطب"، وأخيرا "أيمن الظواهري".

ويعلق الباحث "عبد الحكيم الفيتوري" عن منهج التكفير الوهابي مستعرضا إجابة أبناء الشيخ "محمد بن عبد الوهاب" حين سُئِلوا عن حكم من سمع بدعوتكم ولم يجب، هل داره دار كفر وحرب على العموم؟ فأجابوا: "وأما من بلغته دعوتنا إلى توحيد الله، والعمل بفرائض الله وأبى أن يدخل في ذلك، وأقام على الشرك بالله وترك فرائض الإسلام فهذا نُكفّره ونقاتله، ونشن عليه الغارة". ولم تكن هذه فتوى عابرة بل من أصول فكرهم، ويتساءل "الفيتوري" عن مدى شرعية منهج الدم والهدم والغنائم والتكفير والغارات.. ويقول ألا يكشف هذا التساؤل المشروع حقيقة فكر الحركة

[134] عبد الحكيم الفيتوري، نفس المصدر السابق.

الوهابية! هل هو فكر تجديد أم فكر تقليدي حنبلي؟ وهل هي حركة دينية أم سياسية وظفت الديني؟ ولماذا أضفي ثوب القداسة على علمائها ومصنفاتها؟[135]

يقول الشيخ "الألباني" وهو تلميذ نجيب في المدرسة الوهابية في معرض حديثه عن قواعد التكفير: "الأمر واضح جداً عند أهــل العــلم فلـم يقتصر قوله عز وجـل[136]: ﴿وَمَـن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى.. نُوَلِهِ مَاتَوَلَّى﴾ لم يقل هكذا، إنما أضاف إلى مشاققة الرسول، إتباع غير سبيل المؤمنين، فقال عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾".

إذاً، إتباع غير سبيل المؤمنين وعدم إتباع سبيل المؤمنين أمرٌ حاسم بالنسبة للألباني، "فمن إتبع سبيل المؤمنين فهو الناجي عند رب العالمين، ومن خالف سبيل المؤمنين فحسبه جهنم وبئس المصير"، وطبعا جهنم هي مثوى الكافرين. ويضيف الألباني: "من هنا ضلت طوائف كثيرة، قديماً وحديثاً، حيث إنهم لم يلتزموا سبيل المؤمنين، وإنما ركبوا عقولهم، بل اتبعوا أهوائهم في تفسير الكتاب والسنة، ثم بنوا على ذلك نتائج خطيرة، من ذلك: الخروج عما كان عليه سلفنا الصالح".[137]

ولنا أن نتساءل هنا، ما هي صفة "المؤمنين"؟ وما هي معايير الإيمان؟ ومن الذي يحددها؟ ومن الذي يحق له نزع الإيمان عن الآخرين؟ طالما أن الإيمان مسألة شخصية، وهي ما وقر في القلب، وبالتالي، من الذي بوسعه الإطلاع على القلوب؟

---

[135] عبد الحكيم الفيتوري، نفس المصدر السابق.

[136] محاضرة للشيخ الألباني، نقلا عن الموقع الالكتروني للشيخ محمد النجدي، 17-11-1993.

[137] عبد الحكيم الفيتوري، نفس المصدر السابق.

ونلاحظ هنا أن "الألباني" قد اعتبر أن كل خروج عن الالتزام بسبيل المؤمنين هو ضلال، وبالتالي هو خروج عن الدين، بل أنه استهجن استخدام العقل، وعبّر عنه بمصطلح "ركبوا عقولهم" كما لو أن استخدام العقل جريمة! ويصل "الألباني" مداه في استنكاره استخدام العقل حين يصف الاجتهاد في تفسير الكتاب والسنة إتباعاً للأهواء! ويعتبر أن ذلك يؤدي إلى الخروج عما كان عليه السلف الصالح، ويبقى السؤال مشرعا: ما هي سبيل المؤمنين التي لا يجوز الخروج عنها؟ بل أن كل من يخرج عنها حسب "الألباني" جزاؤه جهنم وبئس المصير!

الإجابة على هذا السؤال حسب "الألباني" نجدها في استكمال شرحه للآية الكريمة السابقة مستشهدا على ذلك بحديث منسوب للنبي، والآية الكريمة: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ويتحدث هنا عن جماعات من المسلمين ومنهم جماعات التكفير قائلا: "هؤلاء قد يكونون في قرارة نفوسهم صالحين، وقد يكونون أيضاً مخلصين، ولكن هذا وحده غير كاف ليكون صاحبه عند الله عز وجل من الناجين المفلحين، لابد للمسلم أن يجمع بين أمرين اثنين: بين الإخلاص في النية لله وبين حسن الإتباع لما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام". [138]

فلا يكفي عند "الألباني" أن يكون المسلم مخلصاً وجاداً فيما هو بصدده من العمل بالكتاب والسنة والدعوة إليهما، بل لا بد بالإضافة إلى ذلك أن يكون منهجه منهجاً سوياً سليماً، ونفس السؤال يتكرر: ما هو المنهج السوي السليم الذي يضمن عدم خروجه من الإسلام؟

---

[138] نفس المصدر السابق.

أما الحديث المنسوب للنبي (وهو حديث ضعيف) الذي يستشهد به الشيخ "الألباني" فهو ما يُعرف بحديث الفرق الثلاث والسبعين، وهـو: "تَفرَّقت اليهودُ على إحْدَى وسبعينَ فرقةً، وتَفرَّقت النَّصارى على اثْنتينِ وسبعينَ فرقةً، وستفترقُ أمتي على ثَلاثٍ وسبعينَ فرقـةً، كلُّها في النارِ إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله ؟ قال:"هي ما أَنا عليه وأصحابي".

ويعتبر الألباني أنَّ جواب النبي لأولئك الذين سألوا عن الفرقة الناجية يلتقي تماماً مع الآية السابقة: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِين﴾، "فالمؤمنون المقصودون في هذه الآية الكريمة: هم الأصحاب، أو ما يدخل في عموم الآية: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هـم أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام.[139]

وخطورة هذا الطرح أنه يصدر حكما قاطعا مانعا على كل الفرق التي يتوزع عليها ما يزيد عن المليار مسلم بالكفر والضلال، ويتوعد مصيرهم بالنار والجحيم، باستثناء فرقة واحدة، وطبعا كل فرقة ستزعم أنها هي دون غيرها الفرقة الناجية، فإذا كانت هذه النظرة تجاه عموم المسلمين فكيف ستكون تجاه الستة مليارات إنسان من أتباع الديانات الأخرى ومن غير المتدينين؟ وكيف ستكون العلاقة معهم؟

الإجابة على هذه التساؤلات وجدناها في هجمة منهاتن وتفجيرات بالي وتفجير القطارات في مدريد وأنفاق المترو في لندن، كما وجدناها في هدم المعابد في الهند، وتقاتل الطوائف في باكستان، وحكم الطالبان لأفغانستان، وهجمات الخميني المليونية على العراق، ووجدناها أيضا في ذبح الرهائن وخطف الأجانب في الجزائر والعراق وسوريا، وقتل السواح في مصر، وترويع الفقراء وبقر بطونهم وسبي نسائهم في قرى

[139] نفس المصدر السابق.

الجزائر النائية، ووجدناها في أدمى صورها في العراق وسوريا وليبيا وقبل ذلك في لبنان، وبعد ذلك في أي مكان قد يخطر ببالكم، ولو استعرضنا الإرهاب والترويع والجرائم التي يقترفها التكفيريون من الديانات الأخرى في اليهودية والمسيحية والهندوسية وغيرها لملأنا منها صفحات ومجلدات.

# الولاء والبراء، والتترس

قضية الولاء والبراء واحدة من أخطر القضايا التي ترتكز عليها أيديولوجية الجماعات الأصولية المتشددة، ولأنها تقوم على التعصب والعنصرية وتدعو للكراهية والعدوان، فإن كثيرا من أحزاب الإسلام السياسي تنبذ هذا المبدأ وترفضه وتعتبره من مخلفات عصر الإنحطاط، وإن كان هذا الرفض على المستوى الإعلامي؛ إلا أن بعض ممارساتها في بعض الأحيان تنطلق من هذا المبدأ.

وفي موضوع الولاء والبراء كتب أحد أبرز منظري الجماعات الأصولية وهو "أبو محمد عاصم المقدسي" في كتابه: "ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين" ضمن سلسلة كتبه التي تنشرها مجلة أقلام الثقافية، وعرّف الولاء والبراء بأنها: "وجوب موالاة المسلم الملتزم وعدم جواز البراءة الكلية منه إذا أقدم على معصية، وإنما يجب البراءة من معاصيه.. وتحرم مولاة الكافر أو نُصْرَتِه على المسلمين أو إطْلاعه على عوراتهم.. بل تجب البراءة منه وبُغْضِهِ ولا تجوز موادته".[140]

أي أنه حسب "المقدسي" يجب على المسلم أن يعلن ولاءه وتضامنه مع أخيه المسلم بغض النظر عمّا يكون عليه، وهذا الكلام يبدو للوهلة الأولى جميلا، ولكن مع متابعة الجملة سنجد أن شرط الولاء للمسلم هو أن يكون ملتزماً، الأمر الذي سيدخلنا مرة ثانية في دوامة تعريف الإلتزام وحدوده ودرجاته، ومن له الحق في الحكم على صحته.. ثم نجد صراحة الدعوة للبراءة من معاصي المسلم الملتزم، فأي ممارسة من قبل الآخر قد تُحسب على أنها معصية ليكون الإجراء المترتب عليها هو التبرؤ من صاحبها بالنتيجة،

[140] أبو محمد المقدسي، ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين، مجلة أقلام الثقافية.

ويستكمل " المقدسي " قوله بالدعوة للبراءة بشكل صريح وواضح من "الكافر" مهما كان هذا الكافر.

وفي مجال البراءة من الشرك وأهله، يقول الشيخ "محمد بن عبد الوهاب": "أصل دين الإسلام وقاعدته أمـران: الأول: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له والتحريض على ذلك والموالاة فيه وتكفير من تركه، أما الثاني: فهو الإنذار عن الشرك في عبادة الله والتغليظ في ذلك والمعاداة فيه وتكفير من فعله".

أي أن مؤسس الوهابية يؤسس لدين جديد مختلف في بعض جوانبه عن الذي نعرفه عن الإسلام، فابن عبد الوهاب يضع للدين قاعدتان، لا نختلف نهائيا مع الشق الأول منهما، أي الشق الذي يدعو لوحدانية الله وعبادته والنهي عن الشرك به، بينما نرى أن الشق الثاني يدعو لتكفير كل من لا ينطبق عليه شرط "ابن عبد الوهاب" في تعريفه للتوحيد أو الشرك ثم التحريض عليه والتغليظ في معاداته.

فيما يقول "ابن القـيّم": "لما نهى الله تعالى المؤمنين عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال"، ويقول الشيخ "حمد بن عتيق" في معرض تفسيره للآية: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنّا بَراءٌ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله كَفَرْنا بِكُمْ وَبَدا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَداوَةَ وَالَبَغْضاءَ أَبَداً حَتّى تُؤْمِنوا بِالله وَحْدَهْ﴾ [الممتحـنة: 4]: " فقوله: ﴿وَبَدا﴾ أي ظهر وبان، وتأمّل تقديم العداوة على البغضاء، لأن الأولى أهم من الثانية، فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء، ولا بد أيضاً من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين

بيّنتين، واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقة بالقلب، فإنها لا تنفعه حتى تظهر آثارها وتتبين علاماتها، ولا تكون كذلك حتى تقترن بالعداوة والمقاطعة، فحينئذ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين".[141]

ونلاحظ هنا أن "ابن القيم" لا يكتفي بإعلان البراءة ممن يعتبرهم كفارا بل يطالب بمعاداتهم والمجاهرة بهذا العداء، ويضيف على ذلك "ابن العتيق" الذي يؤكد على تقديم العداوة على البغضاء، بمعنى أنه لا يكتفي بكُرْهِ الآخر الذي يُكَفِّرُه، بل يدعو قبل ذلك للتعبير عن هذا الكُرْه بالعداوة، ويصرّ على أنه يجب أن تكون هذه العداوة بيّـنة ظاهرة وليست فقط في النفوس، بل لا بد للسيوف أن تترجمها.

ويقول الشيخ "إسحاق بن عبد الرحمن": "ولا يكفي بغضهم بالقلب، بل لا بد من إظهار العداوة والبغضاء"، ويقول الشيخ "محمد بن عبد اللطيف" في الدرر السنية: "اعلم وفقنا الله وإياك لما يحب ويرضى أنه لا يستقيم للعبد إسلام ولا دين إلا بمعاداة أعداء الله ورسوله، وموالاة أولياء الله ورسوله".[142]

أي أن هؤلاء المشايخ لا يكتفون بالدعوة للكره والبغضاء وإطلاق أسوأ ما في النفس البشرية، بل يدعون صراحة لإظهار هذا الكُـرْه! والسؤال هو كيف يكون إظهار الكره والبغضاء والتعبير عن العداوة؟؟ وهل هنالك طريقة أخرى لا تُستخدم فيها السيوف والحراب أو المتفجرات، تماشيا مع التطور التكنولوجي! وهل هنالك ما هو أبلغ وأوضح من هذه الدعوة للحقد والقتل والإقصاء والعدوان؟

---

[141] أبو محمد المقدسي، نفس المصدر السابق.

[142] أبو محمد المقدسي، نفس المصدر السابق.

ويعود "أبو محمد المقدسي" للحديث عن الولاء والبراء قائلاً: "فملة إبراهيم من حيث أنها إخلاص للعبادة لله وحده وكفر بكل معبود سواه، لأن ذلك هو تماماً ما تحويه كلمة لا إله إلا الله من النفي والإثبات، وهو أصل الدين وقطب الرحى في دعوة الأنبياء والمرسلين، ولأجل أن يزول عنك كل إشكال فها هنا قضيتان، الأولى: وهي البراءة من الطواغيت والآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل والكفر بها، فهذه لا تؤخر ولا تؤجل.. بل ينبغي أن تظهر وتعلن منذ أول الطريق، أما الثانية فهي البراءة من الأقوام المشركين هم أنفسهم إن أصروا على باطلهم".

وفي هذا الكلام إعادة لما قاله معلمه الأول "ابن عبد الوهاب" وتأكيدٌ عليه، فهو يدعو لتصنيف الناس على أساس قناعاته، ويدعو كل من يخالفه الرأي أن يتنحى جانبا عن الطريق ومنذ البداية، ليكون بعدها في الجانب الآخر الذي يستحق التبرؤ منه وكرهه وإظهار العداوة له.

ويقول أيضا: "فمعاداة أهل الحق للباطل وأهله، ومفارقتهم لهم قضية قديمة جداً افترضها الله منذ أن أهبط آدم عليه السلام إلى هذه الأرض.. وشاءها الله قدراً وشرعاً ليتميز أولياؤه من أعدائه والخبيث من الطيّب ويتخذ من المؤمنين شهداء".

أي أن تصنيف الناس إلى فسطاطين لا يتم فقط بميزان الإيديولوجيا التي يؤمن بها "المقدسي" حاليا، إذ أنها حديثة العهد مقارنه بالتاريخ الطويل لعمر البشرية، أي منذ أن هبط آدم على هذه الأرض، بل هو ميزانٌ عمره من عمر البشرية، يُفرّق بين الناس على أساس الحلال والحرام، حسب ما يره "المقدسي" وبأثر رجعي، وما دعوته للولاء والبراء إلا استكمالا لما بدأ في عهد آدم.

أما الشيخ "حمد بن عتيق" فيقول عن سورة (البراءة من الشرك): "فأمر الله رسوله أن يقول للكفار: "دينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه وديني الذي أنا عليه أنتم براء منه، والمراد التصريح لهم بأنهم على الكفر، وإنه بريء منهم ومن دينهم، فعلى من كان متبعاً للنبي أن يقول ذلك، ولا يكون مظهراً لدينه إلا بذلك، ولهذا، فلا بد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة.. ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه والتدمير على أعدائه".[143]

وقد نسي الشيخ "بن عتيق" أن الرسول كان يزور أهل الكتاب ويعود مرضاهم، بل أنه أقام مع اليهود في المدينة تحالفا منذ وصوله إليها، وأن الله سبحانه قال: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)، وقال تعالى ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاّ بِالّتي هِيَ أَحْسَنْ﴾، وقال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَ النّاسِ مَوَدّةً لِلّذينَ آمَنُوا النّصَارَى﴾ كما أن النبي الكريم لم ينقطع عن قومه وهم على كفرهم، ولم يدعو لقتلهم ولا للإنتقام منهم رغم الأذى الذي ألحقوه به، إلا أن "ابن العتيق" بدعوته هذه يدعو للقطيعة الكاملة مع العالم الآخر، والسؤال هو: كيف تكون رسالة الإسلام لكل البشر إذا قاطع المسلمون بقية العالم وعادوهم وجاهروا بعدائهم، وكرهوهم وعبروا عن كرههم، وبغضوهم وأظهروا بغضهم، وكفروهم ودعوا لقتالهم!!

وعن التعامل مع الدولة الحديثة بمؤسساتها وأشخاصها يقول "المقدسي": "ما يؤسسه كثير من الطواغيت من برلمانات ومجالس أمة وأشباهها.. ليجمعوا فيها خصومهم من الدعاة وغيرهم، فيجالسونهم فيها ويقاعدونهم ويختلطون بهم حتى يميعوا القضية

[143] أبو محمد المقدسي، نفس المصدر السابق.

بينهم، فلا تعود المسألة مسألة براءة منهم أو كفر بقوانينهم ودساتيرهم أو انخلاع من باطلهم كله.. بل تعاون وتآزر ومناصحة وجلوس على طاولة الحوار لأجل صالح البلاد واقتصادها وأمنها و... و... و... لأجل الوطن الذي يتحكم به الطاغوت ويحكمه بأهوائه وكفرياته..".

فالمقدسي يعتبر أن كافة مؤسسات الدولة – أي دولة عربية أو إسلامية – وأنظمتها وقوانينها ودستورها وبرلمانها وحكوماتها.. إنما هي الطاغوت والباطل، وأن قياداتها وكوادرها هم من الكفرة الذين يتوجب البراء منهم ومعاداتهم...

ويقول في كتابه الثاني "كشف النقاب عن شريعة الغاب" عن القوانين المدنية والشرعية في البلاد الإسلامية: "فقوانينهم هدمٌ لدين الإسلام وملة التوحيد؛ فهي ألغت حد الردة، وحمت المرتدين وتوالي الشرك والمشركين على اختلاف صورهم، وتحمي معتقداتهم الباطلة وتبيح لهم الجهر بها، وبالتالي الدعوة إليها ونشرها، وليس هذا لليهود والنصارى وحسب، بل لكل ملة ونحلة خبيثة، وواقعهم النجس، وموالاتهم الواضحة وعلاقات المودة والصداقة والمحبة والعمالة التي تربطهم بأعداء الله الشرقيين منهم والغربيين، وقوانينهم هي حرب على التوحيد الحق، ومعول هدم لأركانه، وأيدٍ بنّاءة للشرك والوثنية، وقوانينهم كذلك تتلاعب بالنفوس والدماء، فبينما هي تحمي أرواح المشركين والمرتدين وتجعل الحرب الهجومية محرمة، كما أنها تحمي كل من أمر الله تَعَالى ورسوله بقتله من مرتد أو زنديق أو زان ثيب أو لوطي أو غير ذلك، وليس بخاف حال كثير من الكفرة الزنادقة المتسمين بأسماء إسلامية ممن يطعنون في صحافتهم ليل نهار بشرائع الإسلام ويستهزؤون بأوامر الله ونواهيه.. فهل هناك نص قانوني يعاقبهم على

هذا..؟ أم أن في نصوص القانون اللعين ما يحميهم ويكفل حرياتهم ويحرم دماءهم ويعصمها، بل يبيح دم من استحلها..؟ ثم أليس صاحب القانون هو الذي يمنحهم التراخيص ويدعم صحافتهم بالعطايا المالية الضخمة.. ويبارك أعمالهم؟؟" [144]

والإسلامويون يسمون دساتير الدول العربية بِ"الياسق"، في إشارة ساخرة منهم لتشبيه هذه الدساتير بالنظام الذي وضعه التتار حينما حكموا البلاد العربية باسم الإسلام وصاغوا قوانينهم التي اختلطت بها مفاهيم مسيحية ويهودية وإسلامية مع عادات التتر وقيمهم ضمن إطار واحد أسموه الياسق، وبشروا به على أنه دستور الدولة الإسلامية، وفي شرح "المقدسي" هذا الذي بدأه بتشبيه الدستور بالياسق، قولٌ بليغ وواضح يدعو لتطبيق حد الردة، أي قتل كل من يعتقد بما لا يؤمن به المقدسي وجماعته. وفي موضع آخر يصف الطوائف والأديان الأخرى بقوله "ملة خبيثة"، ثم يستغرب كيف تحرم هذه القوانين الحرب الهجومية على بلاد الكفار! وفي آخر النص يتهجم على حرية الصحافة، ويدعو لسفك دم كل من تجرأ على مخالفة رأيه بوصفه زنديقا كافرا...

أما القضية الأخرى والتي لا تقل خطورة عن سابقتها، فهي قضية التتريس أو التترّس، والذي يعني استباحة قتل المدنيين في حالات معينة لتحقيق مصالح "جهادية" معينة، وهو من المفاهيم التي تعتمد عليها الجماعات الأصولية في تبرير قتلها للمدنيين الذين يروحون ضحايا التفجيرات العشوائية، وفي هذا المجال كتب الباحث "مشاري الذايدي" في جريدة الشرق الأوسط مقالة، اعتبر فيها أن مفهوم التترس من المفاهيم الحاكمة للعمل العسكري لدى الجماعات المسلحة الإسلامية، والتي ترتكز في أعمالها على الحجة الأخلاقية لقتل الأبرياء من "المسلمين"؛ فهي لا ترى غضاضة في قتل

---

[144] أبو محمد المقدسي، كشف النقاب عن شريعة الغاب، مجلة أقلام الثقافية.

المسلمين "المرتدين" ولا "الكفار" من الديانات والملل الأخرى التي يصفونها بالملل الخبيثة، ولا يجدون حاجة لتبرير قتلهم، وفي أمر مقتل مدنيين مسلمين أثناء المواجهات مع الأعداء يعتبر الإسلاميون أن التترس يبيح لهم ذلك، ويقيسون ذلك على بعض الآراء الفقهية القديمة التي تجيزه، أي في حالة كان أعداء المسلمين قد تترّسوا بأسرى مسلمين بحيث لا يستطيع المسلمون الوصول إلى أعدائهم إلا بعد قتلهم الأسرى المسلمين، وقد اشتهر الفقيه الحنبلي ابن تيمية بفتوى التترس، وعلى فتواه هذه بنت الحركات الأصولية موقفها.[145]

يقول "ابن تيمية": "وقد اتفق العلماء على أن جيش الكفار إذا تترس بمن عنده من أسرى مسلمين، وخيف على المسلمين الضرر إذا لم يقاتلوهم فإنهم يقاتلون وإن أفضى ذلك إلى قتل المسلمين الذين تترسوا بهم"، وهذا ما أكد عليه أيضا الفقيه الحنبلي "عبد الرحمن بن قاسم".

وفي مقالة أخرى في الشرق الأوسط كتب "محمد الشافعي" عن التترس، وبالذات عن موقف "أبو مصعب الزرقاوي" زعيم تنظيم القاعدة في العراق وتبريره مقتل المئات من المدنيين العراقيين في أعمال التفجير العشوائية، حيث برّر "الزرقاوي" قتلهم قائلاً: "حِفظ الدين مقدم على حفظ النفس"، وأن "دفع الضرر العام مقدم على دفع الضرر الخاص"، "قتل المتمترس أقل ضررا من شيوع الكفر"، كما استند إلى فهمه المشوه لآية: "الفتنة أشد من القتل"، وفي النهاية اعتبر أن الذين يُقتلون على يديه شهداء! "إذا قُتل المتمترسون كانوا شهداء"، "وعلى نياتهم يُبعَثون يوم القيامة".[146]

---

[145] مشاري الذايدي، الشرق الأوسط، العدد 9019، 8 آب 2003.

[146] محمد الشافعي، الشرق الأوسط، العدد 9670، 20 أيار 2005.

ومن خلال هذا العرض السريع لمفاهيم الولاء والبراء والتترس لاحظنا كيف تقيم الجماعات الأصولية علاقتها مع الآخر، وكيف تفهم حرية الإنسان وقيمته، وإلى أية درجة وصل فيها رُخص الإنسان وتفاهة حياته في نظرهم، وكيف تدعو لتكفير كل من شذ عن قاعدتها، بل وتحرض على كرهه أولاً، ثم إظهار هذا الكره والتعبير عنه بالقتل والإرهاب، وكيف أنها لا تجد غضاضة ولا يرف لها جفن من مقتل المئات من المدنيين الأبرياء.

ومثل هذا الخطاب ليس خروجا عن مفاهيم العصر الحديث وحسب، بل هو تناقض مع الإسلام نفسه، وتعدٍ على الإنسانية..

وقد قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْض لَفَسَدَت الأرْض﴾، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْض لَهُدِّمَتْ صَوامِعَ وَبِيَعٌ وَصَلواتٌ وَمَسَجِدَ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ كَثِيرا﴾، بمعنى أن الحياة الإنسانية تقوم على مبدأ الإختلاف والتعدد والتباين، والذي هو ضمانة الاستمرار والتطور؛ فلو كان الناس على عقل رجل واحد يتناقل أفكاره من جيل إلى آخر لفسدت الأرض وتوقفت الحياة، ولبقينا متوقفين عند اكتشاف النار أو اختراع الزراعة.. قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمّةً وَاحِدَة﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأرْضِ كُلّهم جَمِيعاً﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينْ﴾، (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)، إلا أن "أبو مصعب" و"المقدسي" و"الظواهري" وغيرهم يريدون فرض رؤاهم على العالمين بقوة السيف وبالبطش والإرهاب، ويعطون لأنفسهم الحق بتكفير الآخرين، وهو الأمر الذي لم يعطه الله لأنبيائه ومرسليه، ﴿إِنّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت وَلكِنَّ اللهَ يَهدي مَنْ يَشاءْ﴾، إذا كان

الأنبياء أنفسهم لا يقدرون أن يهدوا أحدا بالقوة وهم غير مطالبين بذلك[147] ﴿إِنَّ عَلَيْكَ لَلْهُدى﴾ فبأي منطق يعطي هؤلاء لأنفسهم الحق بهداية الآخرين أو بعبارة أدق الحق بتكفيرهم؟!

[147] أدونيس، الكتاب الخطاب الحجاب، مصدر سبق ذكره، ص 10.

# محاولة لفهم التجربة الإسلامية

ترتفع من حين لآخر، بنوايا طيبة لدى البعض، ولأغراض سياسية لدى البعض الآخر أصوات تنادي بضرورة العودة إلى الإسلام الصحيح؛ وإلالتزام بصراطه المستقيم من أجل الخلاص.

فما المقصود بـ "الإسلام الصحيح"؟ هل هو مجرد مفهوم طوباوي متخيَّل؟ أم نظرية مثالية عصيّة على التطبيق؟ هل هو فعلا يُجهِد النفسَّ بالركض وراء اللامستطاع؟ أم هو دين في منتهى البساطة والوضوح، ولديه الآليات التي تمكنه من الخروج من صفته النظرية إلى حيز الممارسة والتطبيق "الصحيحين"؟ وقبل ذلك، ما هو الدين؟ هل الدين نبيٌّ وكتاب فقط، وأنموذج محدد تشكَّل في مرحلة تاريخية معينة؟ أم الدين ثقافة تراكمية متحركة، وعمليات تحول تاريخية اجتماعية سياسية تنضج على مر السنين؛ ولكن يبقَ مصدرها الرسول والكتاب؟

إذا كان الإسلام منظومة فكرية متماسكة وموحدة ومنسجمة مع نفسها ولا تقبل القسمة ولا تحتمل الاختلاف، فلماذا وكيف خرجت منه الفرق والطوائف والمذاهب والملل؟ وهل علينا أن نصدق كل من قال أنه يمثل الإسلام الصحيح؟

ليس كل ما يمارسه المسلمون هو من أصل الإسلام، وهذه بديهية، ولو اعتبرنا أن الإسلام هو ما يجسده سلوك المسلمين لظهر لنا دين مشوه، ولو أن جماعات التكفير والتفجير هي التي تمثل الإسلام، لكانت الطامة الكبرى، ولبدا دين الله الحنيف السمح على أبشع ما يكون.. ولكن حاشى لله، وسبحانه عما يصفون.

ولكن، هل الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر مختلف تماما؟ إذا كان هذا صحيحا، فهذا يعني أن الإسلام دين نظري معلق في الفضاء، وحالة افتراضية حالمة تعيش في الفراغ وتتجسد على صفحات الكتب،[148] وليس لها من ترجمة عملية حقيقية إلا في ما تحفظه الذاكرة عن حالة مثالية -كما لو أنها خارج سياق التاريخ - مثلتها تجربة النبي وصحابته في أوائل القرن السابع الميلادي (وحتى هذه الحقبة لم تسلم من الانتقادات والتشكيك).

وطالما أن الإسلام ليس فكرة خيالية حالمة، وليس فقط مُثل عليا وقيم أخلاقية مجردة.. وطالما أن التجربة الإسلامية على امتداد أربعة عشر قرنا من تاريخ الإسلام لم تكن تشبه المدينة الفاضلة، وأن التطبيق الفعلي للإسلام كان مشوها وبعيدا عن جوهره في كثير من الأحيان، فأين هو الإسلام إذن؟!

باعتقادي أن المدخل السليم للإجابة على هذه التساؤلات، تكمن في فهم التجربة الإسلامية برمتها فهماً تاريخيا علميا، يمكنّنا من رؤية النزعات المادية واللمسات البشرية الكامنة في كل زاوية من زواياه، والتي كانت تظهر في كل مرحلة من التاريخ، وتتجلى بوضوح في لحظات الصراع والتشابك، وما أكثرها.. أي فهمه من خلال البيئات الاجتماعية والسياسية والظروف الموضوعية في كل مرحلة تاريخية تفاعل فيها المسلمون معه، وفهموه انطلاقا منها.

والحقيقة أن الإسلام من الناحية النظرية يشبه في مضمونه كل الديانات السماوية والدعوات البشرية الطيبة الأخرى، وحتى دساتير الدول؛ حيث أن جميعها تدعو إلى الخير والعدل والفضيلة والمثل العليا، وتنبذ الشر والظلم والفواحش... بالرغم من أن

---

[148] محمد شحرور، مصدر سبق ذكره، ص 22.

الإسلام انفرد عن سائر الأديان وتميز عنها بجوانب كثيرة، ولكنا لسنا هنا بصدد إجراء أية مقارنة بين الديانات، بل ما نسعى إليه هو التأكيد على أن كل دعوة للخير والحق لها جانب نظري مثالي لابد أن يكون على أفضل وجه وأجمل صورة، ولكن تطبيقها على يد البشر لا يكون بنفس المستوى، وهذا طبيعي ينسجم مع طبيعة البشر القائمة على الخطأ والضعف؛ فالمُثُل العليا تصبح نداءات يصعب استجابتها إذا لم تكن مرنة وقابلة للتطور، وتمثل جزءاً من تجربة حية وتفاعل ديناميكي مع البيئة التي تحيطها. وهذا التفاعل بين النظرية والتطبيق، أو بين الدين وأتباعه يمكّننا من فهم التجربة ضمن سياق تاريخي حقيقي، ويضع الأمور في سياقها الطبيعي، أي كتجربة إنسانية.

فلو نظرنا للتجربة الإسلامية بمنطق الفلسفة المثالية وبحثنا عن الجانب الإيجابي فيها فقط، سنجد الإنجازات والفتوحات وعدل عمر بن الخطاب" وزُهد "عمر بن العزيز" وانتصارات "صلاح الدين"... ولو نظرنا للتجربة من زاوية أخرى سنجد مكر "معاوية" وظلم "الحجاج" ومجازر "أبو العباس السفاح" وجواري "الرشيد" وقمع الشيعة وتخلف العثمانيين... ولو بحثنا في الجانب النظري المتعلق بفهم النصوص وتأويلها، سنجد الخلافات والتناقضات بين الأزهر الشريف والنجف الأشرف وقُم ومكة المكرمة والزيتونة والقدس الشريف (وهي أهم المراكز الإسلامية)... ولو نظرنا للصراعات بين التيارات السياسية والفكرية التي برزت في صدر الإسلام سنجد المرجئة، الخوارج، المعتزلة، الأشعرية، الإباضية، الإثني عشرية، الزيدية.. ولو نظرنا للخلافات بين الفقهاء والتيارات الفكرية في العصر العباسي وما بعده سنجد ابن رشد والجاحظ والفارابي من جهة، والغزالي وابن تيمية وابن الجوزية من جهة ثانية، كما

سنجد الفرق بين من يفهم الإسلام كأيديولوجية حزبية ونظام دولة، وبين يفهمه بأبعاده الروحية الخالصة، وكعلاقة خاصة بين العبد وربه.. أما اليوم فأوضح ما يمكن رؤيته: الصراعات والنزاعات بين تيارات وأحزاب الإسلام السياسي.. وفي النهاية قد نفقد البوصلة.

إذن، من أجل فهم التجربة الإسلامية فهما صحيحا، يتوجب أولاً أن ننزع هالة القداسة عن كل من لهم علاقة بها، بوصفهم بشر (يخطئون ويصيبون)، وأن ننظر لها كتجربة تاريخية، حتى لو كانت منزلة من السماء، لأن تطبيقها وتمثلها كان على يد البشر، وبالتالي فإنها ستخضع لقوانين التاريخ ونواميس الطبيعة، وسيسري عليها ما يسري على كل التجارب الإنسانية الأخرى، من تأثر بالبيئات والعوامل التي تحيط بها، بنفس القدر الذي تحدث فيه تأثيرا وتغييرا.

# الإسلام دين الاعتدال والوسطية

دعوات القتل وتفجير الأماكن العامة وتكفير الناس وتصنيفهم بين مسلم وكافر، وتوزيع مفاتيح الجنة على أتباعهم، أو صب اللعنات على من يرفضهم هي من صفات أمراء الحرب وفقهاء التكفير، والإسلام بريء منها براءة الذئب من دم يوسف، فالإسلام الذي نعرفه ونعتز به ونؤمن بقيمه ونفاخر به الأمم، يختلف كليا عن الإسلام الذي تمارسه جماعات التكفير والتفجير، فالإسلام الذي جاء به محمد، الذي نزل عليه من السماء، هو دين محبة وتسامح وتعايش، ودعوة للحق والخير والعدالة، وصرخة في وجه الظلم والقتل واضطهاد الإنسان للإنسان، وهو رسالة سلام وأمان لبني البشر، ونورٌ يهدي للصواب والصراط المستقيم، ونداءات لبني الإنسان لتمثل القيم والمُثل العليا ليرى الجمال والطاقة الإيجابية الكامنة فيه.

والإسلام دين شديد البساطة والوضوح، وليس فيه تعقيدات تفوق طاقة البشر، فيكفي أن تؤمن بالله وتكثر من عمل الخير ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَال إني مِنَ المُسْلِمينْ﴾، وهو دين الوسطية والاعتدال في جميع جوانب الحياة الإنسانية[149]، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطا﴾، بعيدا عن الغلو والتشدد ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكْ﴾، ﴿لا تَغْلَوْ فِي دِينِكُمْ﴾، وهو دين السلام والسلم، ﴿وإنْ جَنَحُوا لِلْسِلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾، ويرفض القتال لمجرد القتل ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوُ كُرْهٌ لَكُمْ﴾، واعتبر أن القتال هو فقط بهدف الدفاع عن النفس ودفع الأذى والظلم ﴿أُذِنَ لِلّذينَ يُقاتِلونَ بِأَنّهُمْ ظُلِمُـوا وَأَنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيـرْ﴾، ﴿وَقاتِلوُا فِي سَبيلِ اللهِ

149 محمد سليمان الدجاني، الوسطية من النظرية إلى التطبيق،ط1، منشورات الوسطية، القدس، 2008، ص 11.

الّذِينَ يُقَاتِلونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينْ﴾، وهو دين خير وإصلاح، ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ أُخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، وهو دين التعددية والتعايش ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا﴾، وهو دين المساواة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾، وهو دين الرحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْناكَ إِلاّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينْ﴾.

وقد دعا الإسلام لاحترام الديانات الأخرى ﴿إِنَّ الّذِينَ آمَنُوا وَالّذِينَ هَادُوا وَالّنَصارَى وَالّصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونْ﴾، كما ساوى بين الرسل والأنبياء واعتبر أن رسالتهم واحدة ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مَنْ رُسُلِهْ﴾، ﴿مِلّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمْ﴾، ودعا لاحترام الكتب السماوية كلها دون تمييز ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالحَقِ مُصَدّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ الّتوْراةَ وَالإِنْجِيل مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرقانْ﴾، وما جاء الإسلام ليعادي الديانات السابقة ولا ليلغيها، ولم يسعى لفرض نفسه على كل البشر بالبطش والقوة ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمّةً وَاحِدَة﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلّهم جَمِيعاً﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينْ﴾، ولأن الإسلام دين الحرية والاختيار ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ فقد دعا للحوار والتفاهم ﴿وَلا تُجادِلوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاّ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنْ﴾، ﴿أَدْعُ إِلى سَبِيلِ رَبّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الْحَسَنةِ وِجَادِلْهُمْ بِالّتِي هِي أَحْسَنْ﴾، واستنكر الإسلام الجمود الفكري والتصلب والتقليد الذي ميز المجتمعات المغلقة والستاتيكية، ودعا لإمعان العقل والنقد والمراجعة الفكرية، ونبذ التقليد الأعمى للسلف ﴿إِنّا وَجَدْنا آبائَنَا عَلى مِلّةٍ وَإِنّا عَلى آثارِهِمْ لَمُقْتَدونْ﴾.

والإسلام جاء بالوسطية والاعتدال لأنه يدرك الطبيعة البشرية ويعي التنوع الهائل فيها، وبالتالي تعامل معها بإيجابية وانفتاح ومرونة[150]، وجاء منسجما مع الفطرة الإنسانية التي تؤمن بالحياة وتتمسك بها وتتغنى بجمالها ﴿خُذوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مِسْجِدْ﴾، ويدرك أن النفس البشرية تتسم بالضعف، لذا دعا للتسامح والعفو والمغفرة ﴿رَبَنّا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أَوْ أَخْطأْنَا﴾، ﴿إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمْ﴾، وقد أعلى القرآن من شأن العقل وحث على التفكير وكرم العلماء ﴿إنّمَا يَخْشىَ اللهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاءُ﴾، ﴿وَقُلْ رَبِّي زِدْني عِلْما﴾، كما حث الإسلام على مكارم الأخلاق ﴿وَإنّكَ لَعَلى خُلِقٍ عَظِيمْ﴾.

هذا هو الإسلام بجوهره ومضمونه ودعوته الحضارية المنفتحة على الإنسانية، وذلك هو فكر التشدد والتزمت والتكفير والانغلاق، وشتان ما بينهما.

150 نفس المصدر السابق، ص، 22_ 34.

# خاتـمة أولية

الهجمة الشرسة التي أطلقتها قوى التكفير والتعصب لن تتوقف حتى تبلغ مداها، وإذا ما بلغت غايتها فإن كل الحديث عن حقوق الإنسان والحريات العامة والتقدم والحوار سيصبح تمرينا ذهنيا لن يجرؤ أحد حتى على ممارسته، وحينها سيعم الظلام وتسود شريعة القتل والتكفير وتنتشر محاكم التفتيش، وسيحكم الكهنوت من جديد،ولكن بعمامة مختلفة، ولن نحول دون هذه النهاية السوداء ما لم تقف كل القوى التقدمية والعقلانية والتنويرية والإسلامية المنفتحة صفا واحدا في مواجهتها، فالخوارج القدامى كانت نهايتهم على يد المفكرين وعلماء الكلام والفلاسفة، في حين أن بعض الفقهاء أنتجوا فكرا تكفيريا من نوع آخر، لا يقل خطورة عنه.

ونحن كأمة عربية، عانينا ما يكفي من الجهالة وحكم العسكر والعسس، ولسنا بحاجة بأية حال إلى حُكمٍ قمعي آخر حتى لو تسربل بثياب الدين وتمسح بأذيال الكعبة، فلن نلجَ المستقبل ونحن مثقلين بأحمال التاريخ، ولن نغير واقعنا ونحن نستمع صباح مساء إلى فتاوى عجيبة من كل نوع لا تحترم عقولنا ولا تأبه لإنسانيتنا، ولن ننير دربنا قبل أن ننال من قوى الظلام، ولن نستعيد دورنا الريادي من جديد في صقل التجربة الإنسانية حتى نحترم بقية سكان الأرض ونكف عن تكفيرهم، ونمتنع عن تصنيف العالم إلى فسطاطين، وتوزيعهم بين دار كفر وحرب ودار إسلام وسلام.

والإسلام ليس اسما لدين خاص، إنما هو اسم الدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء والرسل وأنتسب إليه كل الموحدين[151]، (أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوب الموتَ إِذْ قالَ

---

[151] المستشار محمد سعيد العشماوي، جوهر الإسلام، مكتبة مدبولي، ط4، 1996، ص 111.

لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدي قالوا نَعْبدُ إلهَكَ وإلهَ آبائِك إبراهيمَ وإسْماعِيلَ وإسْحاقَ إلهاً واحِداً وَنحْنُ لهُ مُسْلِمونْ).

والإسلام رسالة هداية ونور وتقدم وحوار وتسامح وإخاء، وهو والفطرة الإنسانية صنوان، بريئان كما أول الثلج، نقيان كندى الصباح، وما لحق به من إساءة وسوء فهم أدى إلى ربطه بالتخلف والعنف والإرهاب وسفك الدماء، إلا تحصيل ما سَنَّهُ فقهاء التكفير والتجهيل الذين عادوا أنفسهم قبل أن يعادوا العالم، بمعنى أن التخويف والإرهاب الفكري وإقفال أبواب الأمل بالرحمة، ليست من أخلاق الإسلام بشيء، بل هي صفات وعاظ السلاطين وفقهاء التكفير الذين لم يحسنوا الظن بالله، ولم يؤمنوا فعلاً وحقا بأن رحمته وسعت كل شيء.[152]

وقبل الختام، لا بد من التأكيد على أن مسألة الإيمان والاعتقاد وحرية الفكر هي حق شخصي تكفله الديانات السماوية والشرائع الأرضية، وليس لأحد أن يصادره أو ينتقص منه، ولا يجوز لإنسان أن يتنازل عن هذا الحق، لأنه إذا عطل فكره انتفت إنسانيته، وإذا خاف أن يفكر فإن عدوى الخوف ستعم وتطم وتكون الطامة، فقد وهب الله سبحانه الإنسانَ نعمة العقل وميزه بها ليستخدمه، وميزة العقل البشري أنه لا يعرف حدودا للتوقف.

وأخيرا نؤكد على أن العلاقة بين الإنسان وخالقه مسألة شديدة الخصوصية، وأن حياته ملكه فقط وهو مسئول عن أعماله، يناجي ربه ويدعوه، وأن الله لم يعطي تفويضا لأحد أن يحاسب نيابة عنه، فالله تعالى وحده يحاسب عباده، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، ﴿إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءْ﴾، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمْ﴾.

صدق الله العظيم

[152] محمد شحرور، مصدر سبق ذكره، ص 86.

# الفَصْلُ الثَّالِثُ

## الإرهاب والعنف،، دوامة الموت

### جذور العنف في التراث الأصولي الإسلامي

### والحرب على الإرهاب[153]

[153] أنظر، عبد الغني سلامه، جذور العنف في التراث الأصولي، مجلة فلسطينيات العدد الرابع خريف 2007، رام الله، ص 35.

# مفهوم العنف والإرهاب

بداية، يتوجب التفريق بين العنف والإرهاب؛ فإن تشابه المصطلحان في النتيجة، من حيث ممارسة أعمال عنيفة، إلأ أن العنف بحد ذاته قد لا يكون سياسيا، قد يكون عنفا اجتماعيا، أو جريمة جنائية، أما الإرهاب، فيرتبط بالسياسة. والعنف أو الإرهاب مورسا قديما وحديثا، وفي كل المجتمعات، وتحت مظلة كل الأديان والأفكار والاتجاهات. وإذا تناولنا الإرهاب من منظور علمي بمعزل عن السياسة، سنجد أن الإرهاب هو عبارة عن سلوك تكمن وراءه أسباب موضوعية تدفع مرتكبها لأن يأتي بالعمل الإرهابي، وبما أن جميع تصرفات الإنسان تنطوي على عنصر نفسي سيكولوجي، وأن كل سلوك وراءه دوافع سابقة ولا يمكن أن يأتي من فراغ؛ فإن مجمل الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة والتي تولد شعورا بالظلم والقهر تعد أسباب كافية لأن تدفع بالإنسان إلى سلوك يرد عن نفسه هذا الظلم، ويدفع عنها القهر بأي وسيلة، وليس شرطا أن يقترن هذا السلوك بالعنف، خاصة وأن الإنسان بطبعه، بصورة عامة، يميل للسلام ويتجنب المشاكل، إلا أن الأشخاص الذين لم يتلقوا تربية صحية، ولم يكونوا مشبعين عاطفيا أو جنسيا، ويعانون من كبت داخلي واضطراب عاطفي سيلجأون للعنف في سلوكهم، وكلما زادت حدة الإضطرابات النفسية وأنواع الكبت التي يعانون منها، كلما زادت حدة العنف وحلت القسوة محل الشفقة، ونزعة الإنتقام بدلا من التسامح.

ولكن هذا لا يعني أن الناس العاديين لن يدافعوا عن أنفسهم، وأنهم سيقبلون بالذل والهوان، بل على العكس، إذ أن وعيهم وإنسانيتهم السوية ستجعلهم ينتظمون ويردون بشكل أكثر فاعلية وتأثيرا.

وهنا سنجد أن رد الضعفاء والمضطهدين عبر العنف هو في أغلب الأحيان رد فعل غرائزي غير مدروس، منبثق من حالة اليأس والشعور بالعجز وافتقاد القدرة على ممارسة أي تكتيك آخر يمكن من خلاله أن يواجه حالة الظلم المسلطة عليه. وباعتبار العنف عملا منبثقا عن ظروف غير عادية، فهو بهذا المعنى يُعد إستثناءً، ترجمته الظروف غير العادية إلى قناة للتعبير الحاد عن الشعور بالغضب المخزون؛ لذلك فإن العنف لا يتقيد بقواعد معينة، بل إنه يكتسب فعاليته وقوته من كونه غير مقنن وغير مسيطر عليه، ومن هنا فإنه مخيف ومرعب، لأن منبعه الغريزة الثائرة المتحفزة، وبوصلته هي فقط كل ما يخدم القضية التي غضب من أجلها، بما أن العنف سيؤدي بالضرورة إلى العنف المضاد، فإن دائرة العنف متى ما ابتدأت من الصعب تخيل نهايتها.. فالسلطة سَتردُّ على عنف الجماعات، والجماعات سَتردّ على عنف السلطة، فضلا عن العنف المتبادل بين الجماعات نفسها، وبالتالي فان الأضرار المتوقعة ستطال كافة طبقات وفئات المجتمع.

إن غريزة البقاء التي تتملك الإنسان بالكامل ربما تقوده لردود أفعال أكثر قوة من الفعل نفسه.. لذلك عندما يتعرض فريق ما لمحاولات إقصاء من قبل الآخرين سيلجأ للعنف – حتى لو كان مسالما بطبعه – ليحافظ على وجوده أولاً، ولأنه يعتقد إنه على صواب ويمثل الحقيقة ثانيا.

ولو تساءلنا لماذا يندر العنف الديني ويكاد ينعدم التعصب والتزمت الطائفي فى البلدان الديمقراطية التى يحظى فيها الإنسان على حريته وحقوقه الإنسانية؟ الجواب: لأن الإنسان يتعصب ويتزمت عندما يكون مهمّشاً، فعندما يشعر بضياع حقوقه الإنسانية يستشعر بالخطر، فيبدأ بالبحث عن قضية ينتمى لها، ويتماهى فيها، ويثبّت بها ومن خلالها وجوده، ويسترجع حقه الضائع، ليعلن أنه ضد التهمييش، وفي هذه الحالة – في المجتمعات التسلطية - سيرتمى هذا المهمش فى أحضان تراثه، لخلق حالة تمايزية تشعره بالتفوق على الآخر المتفوق، ولسان حاله يقول أنا أعلى منه، وأنا مُفضل عند رب العالمين عن هذا الكافر، وهذا التقمص سيعطيه مبررا لممارسة العنف ضد الآخرين.

وفي بعض الأحيان يتحول العنف إلى فخ؛ حيث يعمد النظام الحاكم إلى إثارة العنف لاصطياد المعارضة في لعبة العنف المضاد من أجل القضاء عليها وتصفيتها بصورة قانونية، أو تشويه صورتها ومبادئها بعد أن تورطها بالدماء.

والأخطر من ممارسة العنف هو ذلك التحول الدراماتيكي الذي يمكن أن يحققه العنف عندما يعجز كوسيلة أساسية عن الوصول للغاية المنشودة، فيصبح هدفا بحد ذاته، ثم يصبح عقيدة تجد مبرراتها في تأويل النصوص والإسترشاد بأمثلة عنيفة من التاريخ.. وبالتالي ستتحول بالتدريج أدوات العنف إلى غايات أساسية للتدمير الذاتي والخارجي، فتفقد الجماعة كل قدرة على إعادة التوازن الداخلي، وستنشأ من داخلها المجموعات الأكثر حدية والأشد تطرفا، وهكذا.

إذن، فالعنف لا تتوقف مشكلته عند حد كونه أداة، بل قد يتحول إلى فكرة عقائدية تتجه لتشكيل حالة من التقديس الجامح لفكرة العنف والإيمان الذاتي المطلق

بمستخدميه، مما يحوّل المجتمع بأكمله إلى عدو وهمي لهذه الجماعة، ولهذا فان الجماعة التي تمارس العنف وتنغمس فيه إلى حد تقديسه لاترى من نفسها إلا الوجود الأحق والأفضل، إذ لا مجال هنا لتقبل الآخر.

وعلى مدار التاريخ لم تنجح أي جماعة تتخذ العنف والتطرف أسلوبا وحيدا في تحقيق أهدافها الكبرى، ولم تحظ بشرف إحداث أي تغيرات جذرية تاريخية، ومن هنا فإن أصحاب هذا النهج عندما يخفقون يقودهم الوهم بأن ما عجزوا عن تحقيقه بالعنف سينجحون فيه بمزيد من العنف، ولكن عندما يكتشفون أنهم لا يحققون شيئا، تسيطر عليهم حالات اليأس والإحباط والجمود والانعزال، أو ربما سيبحثون عن أهداف سهلة ليقنعوا أنفسهم بتحقيق إنجاز ما، وغالبا ما تكون هذه الأهداف السهلة من المدنيين العزل، هذا الفشل مردّه أن طبيعة العنف وتشكيلته الذاتية تحمل في بذورها سمات الانفعالية، وتسعى لتحقيق إنجازات مستحيلة، لأنها تتجاوز سنن الطبيعية ونواميس الكون، وتتناقض مع قوانين التطور التاريخي التي تحتم على عملية التطور أن تتم عبر مراحل تاريخية طويلة، وبعقلانية.

ولكن العنف ليس ظاهرة سلبية أو مرضيّة على الدوام وبشكل مطلق؛ بل أنه في بعض الاحيان يكون ضرورة تاريخية، وفي هذا الإطار يمكن فهم التحولات الثورية الكبرى في تاريخ الإنسانيّة التي لم تكن لتحدث لولا وجود درجة معينة من العنف ترافقت مع أساليب أخرى، بمعنى أن العنف السياسي يظل أحد أساليب، بل ربما الأسلوب الوحيد للتغيير السياسي والاجتماعي عندما لا توجد مسالك سلمية وفعالة للتغيير.

وإذا اعتبرنا أن هزيمة الإنسان داخليا ستؤدي به أحيانا الى العنف، فإن الخطورة تكمن عندما يجد أناساً معنيّين بشحذِهِ وزيادة فعاليته وتوظيفه لأهدافهم الخاصة، أي أن المشكلة لا تتوقف عند كونه أمراً إنفعاليا، بل تكمن الخطورة الأساسية في توظيفه سياسيا، أي عندما ينجح العنف في اختراق البنى الرئيسية للمجتمع، بحيث يصبح مهيمنا على كافة أنشطته، ويصبح هو اللغة الوحيدة في العمل، والخطاب الوحيد المسيطر، والمنظار الضيق والوحيد الذي يرسم الحقائق والرؤى، فيغدو المجتمع برمته على حافة الانفجار في أي لحظة، وهنا فإنه لا ضمانة بأن لا يبقى العنف جاثما في الأوكار منتظرا فريسته، فيصبح العنف الذي اعتبرناه إستثناء هو القاعدة.

وتصور جماعات العنف بأن ممارسة اللاعنف هو استسلام ذليل ناتج عن موقف الضعف والخوف، وبالتالي فان العنف هو موقف القوة والشجاعة فقط، وهذا ليس صحيحا، إذ أن طبيعة الإنسان تتكون من جانبين: انفعالي وعقلاني، وعندما يضعف الجانب العقلاني يسيطر الإنفعالي؛ فلا يعود بوسعه أن يعالج الموقف بروية وحكمة، ويصاب بالعجز والوهن، وتنفجر الحالة الانفعالية عنده على شكل فعل عنيف، كرد دفاعي يعطيه شعورا وهميا بالقوة والشجاعة، أي أن العنف هنا ما هو إلا قناع لضعف حقيقي يعيشه العنيف بشكل لا واع.

والحقيقة أن اللاعنف عمل يتطلب الكثير من الصبر والجلَد والتعقل، وهو مختلف كليا عن السلبية والاستسلام، وهو فعل بطولي يتطلب سيطرة تامة على الذات وصمودا نفسيا قويا أمام الانفعالات التي تثيرها إغراءات الانتقام والقمع والثأر،

فبقدر ارتجالية العنف فان اللاعنف يحمل في طياته قوة التفكير والحلم والقدرة على إدارة الأزمة بحكمة.

بعد العنف يأتي التعصب وبينهما علاقة طردية؛ فالإنسان بطبيعته يعيش ضمن مجموعات (الطائفة، القبيلة، العشيرة، الحزب، القرية، البلد، الجنس...) وهذه المجموعات تنقسم عاموديا وأفقيا، حسب ما يجد الفرد نفسه وحسب ما يرى مصلحته، ويتوقع منها أن تؤمّن له الحماية والأمن، وأن تلبي مصالحه من خلال الاستفادة مما يُعرف بقوة الجماعة، وهنا حسب نوع انتماء الفرد للجماعة ونظرته لها سينشأ التعصب أو التعاون، فإذا كانت نظرة نفعية أنانية ويريد أن يوظفها لخدمة مصالحه الخاصة وأمنه الشخصي سيتعصب الفرد للجماعة، وسيتكتل الأفراد الذين يشتركون بنفس الرؤية مع بعضهم، وعلى أرضية هذا التعصب سينمو كره الآخر، وتزداد الرغبة بممارسة العنف، فالعنف والتعصب كلاهما يغذي الآخر.

وسنرى لاحقا أن البيئة الاجتماعية تلعب دورا هاما في تنمية بذور العنف وخاصة لدى الشبان، وأن معظم أيديولوجيات العنف والتطرف قد نشأت بدايةً في ظروف غير سوية كالفقر والجهل والعشوائيات، ثم نمت وترعرعت على أيدي مشبوهة لخدمة قضايا ومصالح أبعد ما تكون عن مصالح الفئات الاجتماعية نفسها التي تمارس العنف، كما هو حال التفجيرات العشوائية ذات الصبغة الطائفية في العراق مثلا، وهي التي ينفذها أناس مضللون وترعاها قوى دولية معادية، وغني عن القول أن العنف والإرهاب لا وطن لهما ولا دين، ولا يقتصران على ملة محددة، ولم تخلو منهما بقعة ما في أي زمان..

فإذاً دوافع العنف كثيرة، وليس أهمها البيئة (الداخلية والخارجية)، والمناخ الاجتماعي والسياسي، وأحيانا الصفات الوراثية التي تحدد أنماطا محددة من السلوك الاجتماعي، وتفرض ثقافة خاصة تطبع بها المجتمع، وإنما أيضا الأوضاع السياسية والاقتصادية والهزائم العسكرية وحالة التراجع الشعبي وهبوط مستوى الانتماء الوطني، التي تضغط على كاهل المواطن وتبقيه متوترا متحفزا، والتي كلما ازدادت سوءا كلما زاد من حدة العنف، وبالتالي ستزيد من الاحتقانات والكبت والقهر الذي يعتمل في الدواخل، ويتراكم ولا يجد له متنفسا إلا من خلال العنف، الذي غالبا ما يوجه ضد الطرف الأضعف.

وبما أن المجتمعات العربية عموما تمر في مرحلة انتقال تاريخي حاسم، فإن هذه الصيرورة التاريخية ستشهد حدوث تحولات كبرى، أو بدايات في عمليات التحول، وبالتالي سيصيبها كل ما يصيب المجتمعات الإنسانية خلال مراحلها الانتقالية وسيرها من مراحل السبات التاريخي المحافظ إلى مراحل التجديد والتغيير والتحديث، كما حدث في أوروبا إبان الثورة الصناعية، وفي أمريكا بعد الحرب الأهلية.. بحيث يترافق مع مرحلة التحولات التاريخية بعض ظواهر الفوضى والعنف.

إذن، فالمجتمع العربي طوال هذه الفترة قد يشهد أحيانا بعضا من مظاهر العنف والفوضى الشديدتين، بحيث يكاد أن يكون العنف صفة عامة لشرائح وفئات اجتماعية معينة، ولن يقتصر العنف على سلوك الآباء تجاه أسرهم، أو سلوك الذكور تجاه الإناث، والكبار تجاه الأطفال، أو في التناقض الحاد بين الأجيال، إنما سيشمل أيضا أشكالا

أخرى عديدة، بما فيها المجال السياسي، وأخيرا التعبير الصارخ عن العنف وهو "الجريمة".

وتبدو علامات العنف على مختلف نواحي السلوك سواء في سياقة السيارة بسرعة جنونية، أو بالتعامل العنيف مع أدوات وأثاث المنزل، وتخريب المرافق العامة والتعامل النزق والعصبي مع الآخرين، أو من خلال السلوك العدواني والسادي أثناء تنفيذ الجرائم، حيث لا يكتفي المجرم بالسلب والنهب بل تراه يسلك سلوك الوحوش في القتل والتعذيب والانتقام بلا مبرر.

ومن الجدير بالذكر أن هذا العنف إن كان قد بدا الآن بشكله الفج وتعبيره السافر، إلا أنه كان قد بدأ صغيراً، مثال ذلك نظرة البعض البدائية إلى النواحي الجمالية، بحيث تبدو له وكأنها معادية ومنفرة، فإذا رأى وردة برية يريد أن يغتالها ويقطفها لنفسه، وإذا شاهد عصفورا مغردا أو غزالا شاردا فأول ما يفكر به هو كيف يصيده ويقتله، وهذا ليس دليلا على الأنانية فقط، بل هي بوادر عنف ورغبة في القتل سوف تنمو وتكبر مع تزايد الأزمات والانهيارات وغياب البرامج الوطنية في التوعية والتثقيف والتربية على أسس وطنية إنسانية، وهذا العنف مرشح للاستمرار والزيادة، طالما بقيت نفس الظروف والمحفزات موجودة في المجتمع.

ويُضاف إلى ذلك العنف السياسي، سواء من قبل أجهزة الأمن والمخابرات التي تمارس شتى صنوف التعذيب مع المعتقلين، أو من قبل الجماعات المسلحة التي تفجر الأماكن العامة، وترهب الناس وتقتل دون تمييز، وأيضاً العنف الكلامي أثناء النقاشات

السياسية والفكرية، فنلاحظ حدة التطرف في الطرح وحدة التناقض في المفاهيم بين مختلف الأطراف.

ونكون مخطئين لو اعتقدنا أن الإنسان يمارس العنف في سبيل فكرة ما، مهما بدت له هذه الفكرة مهمة، أو كون هذه الفكرة جميلة ومُزخرفة بأوهام الجنّات والنعيم.. فمن يلجأ للعنف إنما يلجأ إليه أولاً لمصلحته الذاتية، وسيتوحش أكثر كون العنف ينسجم مع طبيعة عنيفة ساكنة فى داخله، تتوسم طريقاً للخروج.[154]

بمعنى آخر، فإن العنف هنا عبارة عن إستدعاء للهمجية الأولى المختبئة في دواخله، ولكن بعد تصعيدها تحت غطاء المقدس.. فالمقدس هنا سيقوم بالدور التاريخي الذى إبتدعه الإنسان من أجله، ألا وهو فى إيجاد وسيلة لتفريغ طاقات عنيفة وهمجية فى ميدان آمن نفسيا ويؤدى بنفس مستريحة.

الإرهابى لا يمارس العنف لأن النص الذي آمن به هيمن على عقله وطلب منه ذلك، فلا توجد فكرة تحرك الإنسان إلا إذا وجدت قبولاً أولياً وهوىً فى داخله، تفى بحاجات نفسية عميقة كامنة. فالإرهابى أساسا يمارس العنف والقتل لإخراج شحنة عنفه وهمجيته، ثم بعد ذلك يبحث عن النص الذى يبرر له ذلك، ويتيح له أن يمارس فعله بدم بارد ونفس متلذذة.

وللأسف فإن توظيف الدين هنا جاء ليوفر المظلة والحاضنة لكل العنف الكامن، وتحويل أي إختلاف في الرؤى والانتماءات إلى مبررات لممارسات عنيفة وشرسة، ما هي في حقيقتها إلا استدعاء لهمجية قديمة رابضة فى الأعماق فُتح المجال أمامها لتمارس شراستها.

---

[154] سامي لبيب، لماذا يؤمنون وكيف يعتقدون؟ الحوار المتمدن، العدد 3121، 10-9-2010.

ولا يقتصر العنف على الفئات التي تؤديه، أحيانا نجده لدى فئات اجتماعية واسعة، فكما إستمتع الإغريق والرومان بمشاهدة حلبات المصارعة الوحشية، سواء مع مصارعين بشر أو مع أسود حتى الموت، نجد البعض يستمتع بمشاهدة القصاص وتقطيع الرقاب والأيادى وتسميل العيون والرجم.. يشاهدونها فرحين، مهللين، كما لو أنهم متعطشين لنوافير الدم.

## الكبت الجنسي، والعنف المقدس

يشكّل "الجنس" جانبا مهما في أيديولوجية وممارسات بعض التنظيمات المتشددة، كما ظهر جليا مع تنظيم داعش مثلا، حيث تعتمد داعش على "الجنس" في عمليات الاستقطاب، والتحفيز والشحن النفسي، إلى جانب محفزات أخرى، ولذلك فإنها في أثناء القتال وقبله تنذر الجماعات المستهدفة (الأقليات) أن يختاروا بين السيف أو دفع الجزية، أو دخول الإسلام (على مذهب داعش، لأنها ترفض إسلام من لا يتفق معها أيديولوجيا) وهذا لا يشكل نهجا إقصائيا تكفيريا بقدر ما هو غطاء لممارسة العنف وتفريغ الكبت الجنسي، فهي ترفض وجود الرجال (تقتلهم وتنفيهم) ولكنها تقبل بوجود النساء (تأخذهن سبايا وجواري). ناهيك عن الحديث عن جهاد النكاح، وحالات الاغتصاب.

وهنا يجدر التذكير بأن العنف ضد النساء لم يكن مقتصرا على التراث الإسلامي، بل إنه مورس عمليا على مدى التاريخ، وكثيرا ما اقترن بالحروب، وكانت الجيوش الغازية بغض النظر عن ديانتها تستهدف النساء، لأنهن الحلقة الأضعف، أو نقطة ضعف الجهة المقابلة، أو لأسباب غريزية أخرى..

وفي المناطق التي تسيطر عليها، فإن أولى قراراتها (بل معظم قراراتها) تتعلق بالمرأة: إلزامها بالخمار، ثم فرض سُمك معين للخمار، وتغطية العينين، منعها من الخروج من البيت، فرض الختان، منع الاختلاط... (كما حصل في الموصل).

ولدراسة القضية بشكل منهجي، تبرز الحاجة لفهم الكبت الجنسي أولاً، ومن ثم فهم آليات توظيفه في تصعيد العنف.

يجمع كثير من علماء النفس على أنه من ناحية بيولوجية تعتمل في داخل كل إنسان طاقة داخلية هائلة، تأخذ أشكالا عديدة، لعل أهمها الطاقة الجنسية؛ وحين تُكبَت أيٍ من هذه الطاقات بشكل تعسفي، تتحول إلى طاقة سلبية؛ فتبدأ بالضغط على نفسية الإنسان، وبالتأثير السلبي عليه من الناحية الروحية والجسدية والفكرية، وفي أغلب الأحيان يتحول هذا الضغط إلى كبت، ومن ثم يبدأ هذا الكبت بالضغط أكثر فأكثر على الطاقة الحبيسة لتجد لها متنفسا في الخارج، حتى تُتَرجم إلى سلوك عنيف، أو إلى إسقاط ديني يأخذ طابع الهوس والتعصب.[155]

ولما كانت الطاقة الجنسية تحتل مساحة شاسعة من الطاقة الداخلية، فإن الكبت الجنسي سيكون هو الأخطر، ويصبح شكلا آخرا للكبت العاطفي والفكري والاجتماعي؛ وبالتالي سيضعِف هذا الكبت المناعة النفسية لدى الفرد، لأنه يتطلب استنزاف طاقة داخلية حيوية كبيرة، حتى يتحكم بها، أو يكتمها، وإذا ما أخفق في ذلك، وغالبا ما يخفق، تتحول شخصية المكبوت إلى شخصية مزدوجة، تعيش حالة من الانفصام عن الواقع، فتبدأ التناقضات الداخلية بالظهور؛ بين ماتريده أحاسيسه ورغباته وعواطفه، وبين ما يعتقده ويؤمن به من قيم ومعارف ومسلّمات، التي تلزمه بفعل الكبت، وفي هذه الحالة يصبح الكبت الجنسي كتمان عاطفي مزمن، وهكذا يتحول الشخص المكبوت جنسيا إلى مجرد "ذكر" ينتظر أي فرصة سانحة للتعبير عن ذكورته، (أو إلى "أنثى" تنتظر فرصتها). وتتفاقم المشكلة أكثر في المجتمعات التي تربط بين الذكورة والرجولة، وتعلي من شأنهما على حساب القيم الإنسانية الأخرى.

---

[155] وليد يوسف عطو، الجنس والكبت الجنسي، الحوار المتمدن، العدد 4491، 23-6-2014.

وفي هذا السياق يقول "بو علي ياسين" في الثالوث المحرم:[156] "إن إخضاع الإندفاعات الجنسية يتطلب الكثير من الطاقة والانتباه وضبط النفس، وبقدر ما تصبح القوى البيولوجية للإنسان عاجزة عن التوجه إلى العالم الخارجي، وإلى إرضاء الدافع الجنسي، فإنها تفقد من قدرتها المحركة، وتفقد حريتها الشخصية، ويتولد الكبت، وفي مركز هذا الكبت يتم حبس النشاط العاطفي والذهني، ويتوقف النمو النفسي السليم لدى الإنسان، وبالتالي فإن هذا الكبت سيدفعه إلى الإنحراف والشذوذ، وإلى تكون ميول إجرامية وعدوانية واستبدادية".

وتوعز "نوال السعداوي"[157] الصفات الدكتاتورية والتسلطية عند الحكام الظلمة إلى الكبت الجنسي، وتقول: "إن طاقتهم النفسية والجنسية المكبوتة انحرفت عن طريق الحب والعلاقات الحميمة إلى البطش والسيطرة والعدوان، وهذه الصفات هي دعائم الوصول إلى الحكم". وعلى مستوى الأفراد يولّد الكبت الجنسي عدوانية وكُره للآخرين.

ويقول "علي الوردي" في كتابه وعاظ السلاطين:[158] "تتناقض القيم الدينية والمواعظ الأخلاقية مع ما يذاع على الناس في وسائل الإعلام المختلفة، التي تعرض آخر ما توصلت إليه في تجارة الإغراء والإثارة، وما يشاهدونه على أرض الواقع، هذا التناقض سيولد لدى الشباب شخصيتان: إحداهما مخصصة لسماع المواعظ وتردادها، والثانية لممارسة النـزوات والمغامرات الجنسية".

---

[156] بوعلي ياسين، الثالوث المحرم، ط6، دار كنوز الأدب 1996، دمشق.

[157] د. نوال السعداوي، المرأة والجنس، دار الطليعة، ط1، 1975، بغداد.

[158] د. علي الوردي، وعاظ السلاطين، ط1، 1996، دار كوفان، لندن.

ومن ناحية ثانية، يقول "عماد سلمان"، في كتابه "الوطن العالمي الإنساني"[159]: "إن الكبت الجنسي يخلق شخصية خاضعة؛ فمن يسمح لنفسه بكبت مشاعره وأحاسيسه الذاتية زمنا طويلا، يسمح للآخرين بجعله شخصا يمكن استغلاله، ويتحول إلى فرد آلي مسيطَر عليه من الخارج، ولكن في داخله طاقة عنيفة، فيغدو إنسانا مطيعا من الخارج، سهل الانقياد، وعصابيا من الداخل، وجاهزا لأن يكون آلة قتل يحركها الآخرين".

لهذا السبب تقوم الميليشيات الدينية بالتركيز على استقطاب الشبان المكبوتين، الذين تفيض بهم المدن العربية، أو بعبارة أخرى تصبح هذه التنظيمات العنيفة نقطة جذب لهم، لأنها تلبي حاجاتهم المكبوتة، وتعطيهم الفرصة لتخريج طاقاتهم الحبيسة (العنيفة) بعد أن تغطيها بغلاف ديني يعطيها جرعات مضاعفة من العنف.

الأمر الآخر الذي لجأت إليه الميليشات والأنظمة الدينية، هو حبس كافة المنافذ الطبيعية التي يمكن للكبت الجنسي أن ينفذ منها، أي تحريم الجنس نفسه، حتى داخل إطار الزوجية، الفيلسوف البريطاني "برتراند راسل" يقول:[160] "إن أسوأ خاصية للديانة المسيحية هو موقفها من الجنس"، وقد اعتبره موقفا مَرَضياً وغير طبيعي، لدرجة أنه لا يمكن فهمه إلا في إطار فهم الأمراض الاجتماعية السائدة في العالم في فترة انحطاط الإمبراطورية الرومانية؛ أي الفترة التي صارت فيها المسيحية دين السلطة. في هذه الفترة صورت الكنيسة الجنس وكأنه من صنع الشيطان، ووضعت الأخلاق الحميدة في

[159] عماد سلمان، الوطن العالمي الإنساني، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2013.

[160] هل قدمت الأديان بمساهمات مفيدة للحضارة، برتراند راسل، ترجمة: مازن كم الماز، الحوار المتمدن – العدد: 3483 – 2011 / 9 / 11

جهة، وجعلت الجنس في الجهة المعاكسة، وجعلته قرينا للقذارة والعهر، والشكل الأقبح للخطيئة، وبالتالي مجدت التخلف الجنسي، واحتقرت رغبات الإنسان، وعملت على كبت مشاعره، حتى أنها احتقرت الفرح والجمال. وفي النهاية لم يكن أمام المكبوت جنسيا إلا أن يفرغ كبته بصورة سادية عنيفة، وفي هذا الصدد اعتبر "راسل" أيضا أن فكرة "الخطيئة" التي تقوم عليها القيم المسيحية، تسببت بقدر استثنائي من الأذى، منذ أن وفرت للناس مخرجا لساديتهم التي يعتقدون أنها شرعية، وحتى نبيلة. وبالطبع جعلت المؤسسة الدينية الجنس والمرأة في صف واحد، أي قرنت كل خطايا الجنس بالمرأة، وجعلت منها صورة أخرى للشيطان والرذيلة.

وفي حقيقة الأمر فإن نظرة الكنيسة للمرأة والجنس كانت من نفس الزاوية التي رأتهما فيها الديانة اليهودية من قبل، بل وامتدادا لها، وفي مرحلة لاحقة، حمل الإسلام السياسي على يد بعض الفقهاء ومنذ وقت مبكر نفس المفاهيم، وهنا سنجد التعبير الأوضح متجسدا بالفقه "الوهابي"، الذي اختزل الإسلام العظيم بمجموعة من فتاوى المرأة، كانت فيه المرأة دوما متهمة ومدانة ومدنسة، وجعل من جسدها مجرد وعاء للشهوة، بعد أن فرغها من كل مضامينها الإنسانية.

لذلك، لم يكن غريبا أن الجماعات الإسلامية المتشددة تعطي جل اهتمامها لكل ما يتصل بالمرأة: فرض نوع محدد من الملابس، أو فرض تحريمات معينة عليها في كافة مناحي الحياة، لكي تفرض على المجتمع منظومتها الفكرية القسرية بالقوة.

تاريخيا، تمكنت المنظومة الأخلاقية للكبت الجنسي من السيطرة على الإنسان، وشل قدراته وطاقاته الكامنة، وتشويه عاطفته، وتغييب قيم الجمال والحب في داخله، وحولته

من إنسان إلى هيكل بشري اجتماعي فقَدَ تفرده وحريته، وفي هذا الإطار نجحت السلطة الدينية من جعل المنظومة الأخلاقية للكبت بمثابة دين للجماعة، وقيم ومسلّمات تصل إلى حد التابو، وجعلت من هذا المرض فكر سياسي ديني له سلطة الأمر، ومن خلالها نجحت بالتحكم في المجتمع، وجعلت الفرد جزءاً من قطيع، تحكمه ثقافة القطيع، واستخدمت من أجل ذلك سياسة الترهيب والترغيب.

ليس لدي شك بأن المجتمعات الغربية الرأسمالية وظفت الكبت الجنسي لصالح منظومتها الاقتصادية الفكرية، واستفادت من الجنس في تجارة الدعارة والإغراء، والاتجار بالبشر، وأنزلت المرأة إلى الدرك الأسفل، وهذا موضوع آخر، ما نناقشه هنا هو كيف وظفت الميليشيات الدينية الكبت الجنسي لصالح مشاريعها السياسية، وكيف تحول هذا الكبت إلى نقطة جذب لأراذل الناس من كافة ربوع الأرض؛ أي بعد أن صار الجنس غير أخلاقي، ويلفه الكتمان والسرية، وتحول إلى تابو يحرم اختراقه، في نفس الوقت الذي ظل ماردا جائعا، يصرخ بشكل دائم وهستيري داخل الفرد ويطالبه بإطعامه، وإشباع حاجاته، وتحقيق رغباته.

فإذا كان الإنسان، أي إنسان، يلجأ بعد اصطدامه بالمنظومة الأخلاقية القسرية إلى الممارسات غير السوية لتفريغ هذه الطاقة، (لا نتحدث عن الحالات الطبيعية التي تنتهي بالزواج) فإنه في ظل الحروب سيلجأ إلى طرق أكثر وحشية، تحقق رغباته المريضة بطرق لا إنسانية.

في الأحوال العادية، أي في مجتمعاتنا التي تسود فيها الأمية الجنسية، وتشيع فيها الثقافة الجنسية الخاطئة، والنظرة الدونية للمرأة، حيث يحمل الفرد مفاهيم مشوهة عن الجمال

والحب، وحيث تربى على منظومة أخلاقية قسرية، مع مشكلة حقيقية في علاقته بجسده وبعواطفه وأحاسيسه، سيتحول الكبت الجنسي إلى حالة مرضية مدمرة، تأتي على العلاقة العاطفية، فيكون الفرد هو أول ضحايا التخلف الجنسي، ويكون الطرف الثاني هو الضحية الثانية، ويكون الحب الذي جمعهما هو الضحية الثالثة. في هذه الحالة تكون الممارسة الجنسية أشبه بالاغتصاب، ويكون الرجل أنانيا وربما ساديا، والمرأة مكبلة بشعور مزدوج من الشهوة الممزوجة بالخطيئة والشعور بالذنب، فتحل الكراهية محل الحب، والتعاسة محل السعادة، لأن المكبوت لا يمكن له أن يختبر السعادة الحقيقية، ويصبح الفرد عدوانيا مع ذاته ووديعا مطيعا مع الآخرين، ومجرد شخص عصابي، متنكر لحاجاته الإنسانية الفطرية، يكذب على أحاسيسه الطبيعية، ويخدع نفسه بالانقياد للأعراف والعادات السائدة، وفي نهاية المطاف يصبح الفرد والأسرة والمجتمع بأسره منقادا للسلطات الدينية والدنيوية الحاكمة.

أما في حالات الحروب والاضطرابات السياسية، فللكبت الجنسي مفعول آخر، أشد خطرا وأكثر شرا؛ الحرب تُخرج من الإنسان أسوأ ما فيه، تحوله إلى وحش، إلى حطام بشري كل همه إشباع غرائزه وبأشد الطرق بدائية.. في الحرب يسيطر شبح الخوف والجوع وانعدام الأمن، وتصبح الغرائز هي المحرك والدافع، وتختفي معالم الإنسان شيئا فشيئاً، وتضمحل روحه المحبة والطيبة لتأتي مكانها نفسية مضطربة شريرة خائفة شرهة، عدوانية، لا تتورع عن فعل أي شيء.

لا يقتصر الأمر على الضحايا المدنيين الذين يجدون أنفسهم فجأة، ودون رغبة منهم في خضم الحرب، وطرفا فيها، ولا على الجنود الذين يضطرون للغياب عن زوجاتهم

لشهور طويلة؛ بل يشمل بشكل أساسي الجنود المتطوعين الذين أتوا من آخر الدنيا لخوض حرب من المفترض أنها لا تعنيهم، هؤلاء بالضبط حركت فيهم أخبار الحرب شهوة الجنس، لتعويض كبتهم من خلال سبايا الحرب.

وإذا عرفنا أن أعدادا كبيرة من هؤلاء "المتطوعين" أتوا من بلاد بعيدة، الجنس فيها في متناول اليد، سيكون السؤال المنطقي: لماذا يترك هؤلاء أوطانهم ويأتوا لبلاد يسود فيها الكبت الجنسي، وتحرم العلاقات الجنسية خارج إطار الزوجية؟! الجواب سنجده مرة ثانية في الكبت الجنسي، الذي حولهم إلى أناس ساديين، فحتى في تلك البدان (المنفتحة على الجنس) سنجد أشخاصا غريبي الأطوار، يجدون متعة خاصة في الممارسات السادية والماسوشية والشاذة.

أي إنسان طبيعي يستهجن ممارسة الجنس مع إمرأة مسبيّة مكسورة ذليلة، لأن الجنس في الأحوال الطبيعية يتطلب الحب والمشاركة أولا، ويتطلب حالة نفسية ومزاجية ملائمة، وأجواء معينة، أما لدى المكبوتين والشاذين جنسيا فإن أجواء الحرب تجعل الأدرينالين والهرمونات الجنسية تتدفق بمستويات عالية في دمائهم، لدرجة اشتهاء إمرأة حطمتها الحرب.

هؤلاء الأشخاص مريضون بداء العنف، يبحثون عن المغامرة، عن تدفق "الأدرينالين" و"التستوستيرون" إلى أقصى مدياتها، يبحثون عن أي نصر على ذاتهم المريضة، لتعويض ما ينقصهم، يبحثون عما يحاكي نزعاتهم العدوانية، عن فرصة لتخريج الغضب من دواخلهم، لتنفيس كل هذا الكبت الذي كبلهم منذ طفولتهم، ولا يجدون هدفا أسهل

من المرأة، لأنها الحلقة المستضعفة في المجتمع، وتشكل نقطة ضعف للأسرة والقبيلة، ولأنها تعاني من نظرة دونية.

وإذا كانت المرأة "المسبيّة" تشكل تعويضا جزئيا للكبت الجنسي، فإنها أصبحت بحد ذاتها هدفاً من أهداف الحرب، ومن هنا كانت بداية وجود ظاهرة السبايا والجواري، حيث أصبح الجنس دافعاً ذكورياً للحرب، وتحول البحث عن الجنس إلى هدف وغاية، وأصبح القتال له بعد آخر: تحويل الغريزة الجنسية إلى نزعة عدوانية من أجل استردادها بشكلها الأصلي؛ أي جنس يمارَس بشكل عنيف يمنح المقاتل حالة متوهمة من الإنتصار.

وهنا يصبح الشخص المكبوت جنسياً، بيئة خصبة في عقله الباطن لاستقبال نوع التوجيه المناسب لهذا الكبت، وطالما أن تعويض هذا الكبت أمرا ملحاً، فإن توجيه هذا الكبت هو الخطوة التالية، أي توجيه الجماعات الدينية، التي سيكون لها دورا مضاعفا: الكبت والتوجيه. وبالتالي ستصبح الغريزة الجنسية في خدمة عنف الجماعات الدينية. ولن يتوقف الأمر عند الجنس الدنيوي، فلدى المقاتلين دافعا جنسيا آخر، ربما أكبر، هو الجنس ما بعد الموت، أي الحور العين، اللواتي يزدن جمالاً و شهوةً بأضعاف عن نساء البشر.

إذن، نتحدث هنا عن بُعدين مختلفين لتوظيف الكبت الجنسي في خدمة الأهداف السياسية للجماعات الإسلامية المتشددة: البعد السيكولوجي والاجتماعي، والبعد الأيديولوجي، وهما يكملان بعضهما البعض. في البعد الأول لاحظنا أن الكبت الجنسي لدى فئة من الناس العاديين في مختلف أنحاء العالم حولهم إلى أناس عنيفين (بغض النظر

إذا كانوا متدينين أم لا، وهم في الأغلب غير متدينين على الأقل في البداية)، هذه الفئة من الناس تحمل في داخلها (بفعل الكبت الجنسي ونتيجة له) بذرة الشر والكراهية، وجرعات كبيرة من العنف، والغضب الداخلي، والميول الإجرامية، إنهم أناس لم يتلقوا تربية سليمة، مفتقدين للحنان، عاشوا في بيئات غير سوية، سلبتهم الكثير من المشاعر الإنسانية، فكانوا يبحثون عن أي فرصة لممارسة العنف، فوجدوا ضالتهم في الحروب المشتعلة في المنطقة العربية (وبالذات في سورية والعراق)، وفي هذه المرحلة دخلوا تحت تأثير وتوجيه البعد الثاني للكبت الجنسي: البعد الأيديولوجي، الذي سيوفر لهم الغطاء الديني والمبررات الأخلاقية والأرضية الخصبة، وطبعا البقعة الجغرافية شبه الآمنة، التي سيمارسون عليها مغامراتهم الجنسية، ويتمتعون فيها بإراقة الدماء، وممارسة العنف بأفظع أشكاله.

# العنف، والحرب المزعومة على الإرهاب

بعد انتهاء الحرب الباردة بتفكك الاتحاد السوفييتي وانكفاء الحركات الثورية التي كانت تدور في فلكها، وجدت أمريكا نفسها متفردة في الهيمنة على العالم، وهي المرة الأولى في التاريخ ينشأ فيها نظام أحادي القطبية، وهذا أمر تعلم أمريكا أنه لن يدوم طويلا، لأنه يتناقض مع نواميس الطبيعة وحركة التاريخ. لذا، وفيما كانت الدول الكبرى تتجهز لتأخذ مكانتها على الخارطة السياسية الجديدة، وقبل أن تشكل دول شرق آسيا والاتحاد الأوروبي تكتلات اقتصادية كبرى، وقبل أن تتمكن روسيا من استعادة بعض مكانتها، بادرت أمريكا بخطوة استباقية لاحتلال منابع النفط في الشرق الأوسط، كمدخل أساسي للتحكم في الأسواق العالمية، وشرط للإمساك بشريان العالم الاقتصادي.

في هذا السياق بدأت أمريكا بالبحث عن عدو استراتيجي يغطي الغياب المدوي لغريمها السابق، خاصة وأنها فقدت مبرراتها الأخلاقية التي كانت تسوّقها للعالم (مكافحة الشيوعية والأنظمة الديكتاتورية)؛ فوجدت ضالتها في الإسلام، ومع صعود المحافظين الجدد لسدة البيت الأبيض أواخر التسعينات، والذين هم في الأساس يمثلون شركات نفطية، ويحملون أفكارا يمينية متطرفة، وأطماعا توسعية، شرع هؤلاء على الفور بوضع الخطط والاستراتيجيات، وخلق المبررات السياسية والأخلاقية لحربهم الجديدة.

والحرب الجديدة التي ستشنها أمريكا تحت شعار مكافحة الإرهاب، وستضع المسلمين فيها خصما رئيسا، هي في جوهرها حرب سياسية اقتصادية بحتة، لا علاقة للدين بها، إلا بقدر ما تستغله كغطاء وذريعة لتغطي على أهدافها الحقيقية المتمثلة في السيطرة على

موارد الشعوب، وإقامة قواعد عسكرية في المناطق الساخنة من العالم، لإدارة حربها الكبرى للسيطرة والهيمنة على العالم أجمع.

وقد احتل مفهوم الإرهاب المرتبة الأولى بين المفاهيم الفكرية والسياسية المختلف عليها في الآونة الأخيرة؛ فتعددت تعريفاته تبعا لكل جهة أرادت تعريفه، ويمكن القول أن معظمها قد تقاطع عند نقطة مفادها أن الإرهاب هو أية أعمال عنف أو تخريب يقوم بها أفراد أو منظمات أو دول لتحقيق أهداف سياسية، تؤدي لإثارة الرعب في نفوس المدنيين، وعادة ما تكون ضحايا الإرهاب عشوائية، دون أن تكون طرفا ضالعا في الصراع، أو تمتلك أية فرصة للرد.

ووفقا لهذا التعريف؛ فإن أمريكا بسبب قيامها بعمليات إبادة جماعية، ودعمها للعديد من الأنظمة الشمولية، وحربها على أفغانستان والعراق، ومن قبلها فيتنام وكوريا وغيرها تعتبر راعية الإرهاب المنظم؛ بل هي سبب ومبرر وجود العنف والتطرف والإرهاب في كل بقاع العالم.

كما أن الاحتلال الإسرائيلي بحد ذاته يعد أعلى مراتب الإرهاب، وما تقترفه إسرائيل من استهداف للمدنيين وعقاب جماعي وعمليات الإستيطان وغيرها، تعتبر جرائم ضد الإنسانية، ومع ذلك وبسبب الماكينة الإعلامية الصهيونية تمكنت إسرائيل من خداع العالم، وتصوير الكفاح الوطني الفلسطيني ضد الاحتلال بأنه إرهاب، تماما كما نجح الإعلام الأمريكي بقلب الحقائق، وجعل إرهابها حربا على الإرهاب!!

وبالطبع؛ فليس كل ما تعتبره أمريكا إرهابا هو كذلك بالضرورة، فقد استغلت أمريكا مصطلح الإرهاب لأقصى حد، خاصة بعد أحداث 11 أيلول، بقصد التغطية على

سياساتها العدوانية، وتشويه صورة الشعوب والحركات التي تناضل ضدها، وبهدف تمرير مشاريع وقوانين داخلية، ولزيادة قدرتها على التحكم بالمجتمع، وحصول أجهزتها الأمنية على موازنات خرافية لتمويل حربها المزعومة، وهي أمور كان من الصعب تمريرها في الأحوال الاعتيادية، لذلك، كان لزاما عليها تضخيم هذا العدو، أو حتى إختلاقه إذا لزم الأمر.

ومن أجل ذلك، تبنت أمريكا ما يُعرف بسياسة "صناعة الرعب"؛ فعمدت إلى إيجاد مجموعات إرهابية تحت مسميات إسلامية، أو اختراق ودعم جماعات إسلامية متشددة، وافتعال أعمال تخريبية ونسبها إليها، وخلق البيئات الملائمة لنمو هذا "الوحش"، طبعا هذا كان في البداية، وفيما بعد كبر هذا الوحش، وصارت له آلياته ومحدداته وأساليبه المستقلة، وجماعاته التي صارت تتسابق فيما بينها على ممارسة الإرهاب. وفي النهاية، قدمت تلك الجماعات خدمة كبرى لأمريكا، وسهلت عليها مهامها بأكثر مما كانت تحلم، ووفرت لها كل الذرائع اللازمة.

وإذا اعتبرنا أن هجمات 11 أيلول، مثلت نقطة التحول الرئيسة، أو شرارة البدء في ما يسمى الحرب على الإرهاب، والاعتداءات التي تلتها في المدن الأوروبية مثلت ذروة التهديد للمجتمعات الغربية (الكافرة)، فإنها في نفس الوقت قد سلطت الضوء على التنظيمات الأصولية، وطرحت أسئلة جوهرية تتطلب إجابات متأنية معمقة، وهي: هل ما يقوم به هؤلاء الإنتحاريون هو مجرد عمل عبثي من قبل شبان ملأ اليأس قلوبهم، ولم يجدوا وسيلة للدفاع عن قضيتهم العادلة سوى التفجير!؟ ثم ما هي هذه القضية العادلة!! وهل هؤلاء مجرد ضحايا للتضليل الأمريكي، لدرجة أنها ساقتهم للموت

وهم فرحون بما يفعلون؟ أم أنهم أصحاب رؤية ورسالة؟ بغض النظر عن محتوى تلك الرسالة.

ولو اقتصر الأمر على مهاجمة "المدن الكافرة" لركزنا الإجابات باتجاه محدد، لكن أعمال القتل والتفجير قد شملت مختلف الدول الإسلامية، وامتدت في الساحات والأسواق وحتى المساجد، الأمر الذي سيغير مجرى الإجابات كليا، وهذا يستوجب منا أن نعرف دوافعهم، ومبرراتهم أولا، ثم نضع إجاباتنا بعد ذلك.

وبالبحث في خطابهم يرى الكاتب "حسن خضر" أنهم يصفون تلك الهجمات الإرهابية بالغزوات، وهي تسمية لها دلالة رمزية تحاول أن تضفي صفة القداسة على أعمالهم، ضمن محاولة مكشوفة للإنخراط في التاريخ المقدس للمسلمين، حينما كانت غزواتهم تحت شعار نشر الإسلام والعدل في ربوع الأرض، أي أنها عملية ردم للهوة الزمنية السحيقة بين تاريخين وزمنين، بقصد إسقاط الدلالات الرمزية التاريخية على الحاضر، والربط بين الحركتين، حركة الإسلام الأولى وحركة تنظيم القاعدة، والإيهام بأن الأخيرة إمتداد طبيعي للأولى. [161]

وقد دأب منظّروا هذه الجماعات – شأنهم شأن كل الأصوليات الأخرى في المسيحية واليهودية – على تبرير أعمالهم ومنْحِها مسوّغات أخلاقية أمر بها الله سبحانه مباشرة، والإيحاء بأن خطابهم مستمَد من السماء لا من الأرض، وهو فوق حسابات البشر، ويتسامى فوق نزعاتهم الدنيوية، ويتعالى على حساباتهم السياسية، ويتجاوز ما يدركونه بعقلهم المحدود، وأن أصحاب هذا الخطاب هم وحدهم من يملكون الحكمة الإلهية، ووحدهم القادرون على فهمها، ولهم الحق الحصري في تفسيرها.

[161] حسن خضر، نقطة ضوء، جريدة الأيام الفلسطينية، 11-9-2007.

هذا الفهم الإطلاقي للدين – حسب حسن خضر - يقود أصحابه على جعل الصراع في مضمونه يتجاوز ما نعرفه نحن عن أسس الصراع ومحاوره التقليدية، كالصراع العربي الصهيوني، أو صراع الجماهير الشعبية ضد الاستعمار، أو صراع الإنسانية لكسر المعادلة المختلة بين الشمال والجنوب، أو صراع الطبقات المسحوقة ضد الفساد والبنى المهيمنة عليها.. إنها من وجهة نظرهم أكثر من ذلك بكثير.. إنه صراع بين مثاليات ومطلقات متناقضة، أي صراع الإيمان ضد الكفر، والخير ضد الشر، والعدل ضد الظلم.. وفي المحصلة سيكون صراع بين أنموذج الإسلام الذي تراه القاعدة ضد كل ما لا يشبهها في العالم. [162]

وهذا الفهم الخاطيء للإسلام واستبداله بأيديولوجيا متشنجة، ليس لها من مشروع سوى الموت وبأبخس الأثمان، سيؤدي إلى تشويه الإسلام وجعله في معاداة البشرية برمتها: بوجودها ومنجزاتها ومستقبلها، وسيتحول تدريجيا إلى مرجعيات دينية لاهوتية تنتج الإنتحاريين، وتهدد السلم العالمي ككل.

بالمختصر، إن استغلت أمريكا موضوع الإرهاب لتبرير إعتداءاتها، وتقديم الذرائع لاحتلاها بلاد المسلمين، وإن دعمت جماعات أصولية معينة، أو حتى اخترقتها بالكامل، فهذا لا يعني أن ما يجري في البلدان العربية والإسلامية من قتل وخطف وترويع وتفجير وقطع للرؤوس وسبي للنساء.. هو ليس إرهابا، لمجرد أن أمريكا تصفه كذلك، أو لمجرد أن أمريكا تحاربه!!

[162] حسن خضر، نقطة ضوء، جريدة الأيام الفلسطينية، 11-9-2007.

# جذور العنف في التراث الأصولي الإسلامي

في الحقيقة إن ظاهرة الإرهاب في التراث العربي لها تاريخها ودوافعها وأمثلتها العديدة وتجلياتها المختلفة.. ولدراسة الظاهرة لا بد من التعرف على جذورها وأسبابها ومبرراتها، ومن أجل ذلك سنميز ما بين الإطار النظري للظاهرة (الأيديولوجيا المحركة) وبين التطبيقات الموضوعية لها (البيئة الإجتماعية للإرهابيين أنفسهم).

وسنحاول أن لا نستخدم مصطلح "الإرهاب" حتى لا نقع فريسة غزو المصطلحات الأمريكية، وسنستخدم عوضا عنه مصطلحات العنف والتطرف والغلو. والغلو أول ما ظهر في التاريخ الإسلامي كان على يد القرّاء وحفظة القرآن (الخوارج) الذين عجزوا عن فهم معانيه واستيعاب مراميه بسبب جذورهم البدوية، فافترستهم سطوة تقديس النصوص[163]، وفي النهاية فقدوا ثقتهم في حُكم الإمام "علي" عندما قبل التحكيم، فشرعوا في وجهه السيوف وقتلوه بالفعل، فصار الخوارج مثلا في التطرف والغلو..

بعد الخوارج، تواصلت حلقات العنف في فترة الخلافة الراشدة، بدأت في الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الثالث "عثمان بن عفان" على يد الجماعات الغاضبة التي أتت من مصر والعراق، ثم حدثت معركة "الجمل" بين أنصار "علي" و"عائشة"، ثم معركة "صفين" بين جيش "علي" وجيش "معاوية"، ثم معركة "النهروان" التي قصمت ظهر الخوارج، ثم ثورة العباسيين العنيفة ضد الأمويين، إضافة إلى الثورات الشعبية التي خرجت ضد السلطتين الأموية والعباسية والتي اتسمت بالعنف، وجوبهت بعنف أشد.

---

[163] أنظر: د. محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، دار الوحدة 1985.

إلا أن الإرهاصات الفكرية للتشدد كانت قد تبلورت فيما بعد على يد الفقيه "أحمد بن حنبل" في نهاية العصر العباسي الأول، عندما تحزب الخلفاء لفكر المعتزلة وحاولوا إجبار الفقيه على القول بخلق القرآن، فما كان منه إلا الرفض والصبر على سياط الخليفة[164]، فكان خوفه من فكر المعتزلة، وشيوع علم الكلام، وقلقه من انتشار كتب الفلاسفة، التي اعتبرها هرطقات تؤدي للكفر دافعا ومبررا للتشدد والدفاع عن المدرسة الفقهية التقليدية.

بعد "إبن حنبل" جاء تلميذه "أحمد بن تيمية" في فترة تعرض فيها الإسلام لمحنة كبرى، وغزو تتري أكل الأخضر واليابس، فأسقط المغول حينها الخلافة العباسية، ودمروا بغداد ثم أعلنوا إسلامهم، ولكنهم أرادوا أن يحكموا البلاد بشريعة "تيمورلنك"، وبدستور الياسق، فتصدى لهم الشيخ وكفّرهم وطالب بالخروج عليهم، فزُج به في السجن، حيث أمضى شطرا من حياته، وهناك في الأسر، وضمن ظروف معادية بالغة القسوة كتب أهم مدوناته، ودعا الناس للعودة إلى جذور الدين والعقيدة من منظاره السلفي، حتى مات تاركا وراءه تراثا أصوليا بنت عليه الحركات الجهادية المعاصرة فكرها الخاص.[165]

فإذا كان "إبن حنبل" قد شهد بدايات انهيار الدولة العباسية، فيما شهد "ابن تيمية" انهيارها الفعلي، فقد شهد "محمد بن عبد الوهاب" بدايات انهيار الإمبراطورية العثمانية، ومعها شهد ما اعتبره عصر فساد المجتمع الإسلامي وتفشي ما رآه موبقات وخزعبلات، فأعلن الجهاد على التصوف والصوفيين، وكل من اعتبرهم من المشركين،

---

[164] محمد محفوظ، الذين ظلموا، رياض الريس للكتب، 1988، ص 234.

[165] محمد محفوظ، الذين ظلموا، رياض الريس للكتب، 1988، ص 235

ودعا إلى نقاء العقيدة حسب منظوره وفكره الخاص، كما دعى لها شيخيه من قبل، فقام الموحدون والإخوان بغزواتهم على القبائل المجاورة، والتي ثبّتت في النهاية حدود دولة آل سعود الجديدة، وثبّتت معها فكرهم وأيديولوجيتهم الخاصة.

وفي وقت لاحق من القرن التاسع عشر برز مسار فكري آخر ومختلف، وتحديدا في مصر المحروسة، وقد دشنه بداية "جمال الدين الأفغاني" القادم من الهند، ثم تلاه الشيخ "محمد عبده" تلميذه وحلقة الوصل مع تاليه الشيخ "محمد رشيد رضا".

وقد حمل "الأفغاني" مفاهيم الحرية ومقاومة الظلم ومشاركة الشعوب في شؤون الحكم والسياسة والكفاح الوطني، وهي أمور لم تكن مألوفة حتى ذلك الوقت، فالشعب قد استكان للخنوع وتكيف مع الواقع. فيما حمل "محمد عبده" مفاهيم الإصلاح القائم على تحرير الفكر من كل قيد، وعلى تجديده على أسس عقلانية، وشن حملة على الخرافة والتقليد. أما "رشيد رضا" فكان استمرارا لذات النهج مع تحويرات هنا وهناك، متأثرة بالفكر الوهابي، إذ أخذ بأسلوب التربية طريقا للإصلاح، واهتم بتكوين جمعيات إصلاحية، وابتعد قليلا عن السياسة مع اهتمامه ببناء علاقات وثيقة مع آل سعود والهاشميين.[166]

[166] زياد سلامه، الشيخ حسن البنا، دار البيارق، 2001، ص 31 ~ 79.

# العنف في فكر وممارسة الإخوان المسلمين

تتبعنا كيف تأثر الشيخ "حسن البنا" بأفكار رشيد رضا، وهي إلى حد ما مختلفة عن أفكار رواد الحركة الإصلاحية (الأفغاني، وعبده، والكواكبي) وأخذ منه مبدأ الغاية تبرر الوسيلة (التقية)، عند تأسيسه جماع الإخوان المسلمين، فتحالف مع الملك "فاروق"، وأشاد به، وتحالف مع "النحاس" و"السعديين"، واتصل بالألمان، وهادن الإنجليز، وحاول دخول البرلمان غير مرة. [167]

أي أن الشيخ "البنّا" آمن بالتقية أسلوباً ومارسها فعليا، فهو من ناحية يدّعي أن جماعته ما هي إلا جمعية خيرية مسالمة، تنأى بنفسها عن الدخول معترك السياسة، ومن ناحية أخرى تجده ينثر بذرة العنف في صفوف الجماعة، ويؤسس التشكيلات التي سيوكل إليها تنفيذ المهمات السرية، والتي تتخذ طابع العنف، كالفرق الرياضية والجوالة وفرق الرحلات ومعسكرات التدريب، ثم التنظيم السري، وهي بمجملها تشكيلات شبابية تختفي تحت شعارات رياضية وكشفية، ويتم خلالها التدريب والتحريض والتهيئة لتنفيذ ضربات معينة، وهذه التشكيلات وما تحمله من أفكار عنف كانت مستترة في الخفاء، ولكنها كانت بندا أساسيا من بنود خطة مرحلية أعلن عنها صراحة الشيخ "البنا" في المؤتمر الخامس للجماعة[168]، فقد أسند للجهاز السري فيما بعد مهمات عديدة، ومن بين المهمات التي أُتهم بها (قد تكون مجرد اتهامات من قبل خصوم الإخوان): تفجير مساكن لليهود، وقتل أحد القضاة، وقائدا للشرطة، وحيازة متفجرات، ثم دعم الإنقلابيين على

---

[167] زياد سلامه، الشيخ حسن البنا، دار البيارق، 2001، ص 31 ~ 79

[168] خليل عبدالكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، دار مصر المحروسة، ص 39.

ملك اليمن، وضلوعهم بقتل رئيس الوزراء "النقراشي"، والذي كان سببا بمقتل "البنا" نفسه[169]، ثم ضلوعهم فيما بعد الثورة بمحاولة إغتيال الرئيس "جمال عبد الناصر" في حادثة المنشية 1954..

ولم تتوقف الجماعة عن ممارسة العنف عند تلك الحقبة من الزمن؛ ففي وقت لاحق، بعد الإطاحة بحكم الرئيس "محمد مرسي" مارست الجماعة أنواعا عديدة من العنف، بهدف إعادة الرئيس "محمد مرسي" للحكم. وفي دراسة منشورة في كتاب صدر عن مركز المسبار للدراسات حمل عنوان "منصات الميديا الجديدة والعنف المقدس"،[170] أكد الباحث على أن جماعة الإخوان المسلمين توظف الدين لصالح السياسة، وتعمد إلى العنف لتحقيق أهدافها، وتوصل الباحث إلى هذه الإستنتاجات من خلال دراسة وتحليل آليات استخدام الإخوان المسلمين لصفحات "الفيسبوك" عبر مواقعها الرسمية، في عملها التنظيمي ونشاطها الدعوي، حيث كتب: "الجماعة في أساسها وبنيتها قائمة على مبدأ توظيف الدين لصالح السياسة، وهي تطبقه في وسائل إعلامها كافة، وفي التربية الحزبية، والتعبئة الجماهيرية، وفي تبرير مواقفها السياسية". أما عن نزعة العنف في الخطاب الإعلامي للإخوان، فكتب: "في صفحات الإخوان على "الفيسبوك" تبدو نزعة العنف واضحة في كثير من الأحيان، وكذلك التحريض الجماهيري، سواء من خلال "البوستات" ذات الشكل والمضمون الديني، أم في نشر الأخبار، بحيث تصيغ الخبر وتعلق عليه بأسلوب تحريضي تعبوي".

---

[169] زياد سلامه، الشيخ حسن البنا، دار البيارق، 2001، ص 31 ~ 79.

[170] منصات الميديا الجديدة والعنف المقدس، مجموعة باحثين، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الإمارات العربية المتحدة، آذار 2015. ص 157 ~ 181.

ولكن مثل هذه الممارسات، قد تكون مجرد أعمال عصيان مدني مشروع، طالما أنها لا تلحق أضرارا بالممتلكات العامة والأفراد من حق الأحزاب المعارضة اللجوء إليها، خاصة ضد النظم الاستبدادية، وفي حالات انغلاق الأفق السياسي، وانعدام الحوار.

كما أكد الباحث على أن دعوات الخروج للتظاهر تكررت في مناسبات عديدة، وطُلب من المتظاهرين رفع المصاحف في وجه رجال الأمن، تحت شعار ثورة إسلامية بهدف إسقاط النظام، وإرجاع الرئيس المعزول "مرسي". وقد حددت خطة التحرك من خلال العديد من المنشورات بحيث تشمل مظاهرات تجوب الشوارع كالطوفان، قطع الطرق السريعة، قطع خطوط السكك الحديد، الإضراب عن العمل وعن الدراسة، استخدام المولوتوف، حرق سيارات الشرطة.. وبتحليل المنشور سنرى أنه بالنسبة للجماعة كل شيء دون الرصاص سلمي؛ قطع الطرق، وحرق سيارات الشرطة، وعبوات المولوتوف الحارقة وتعطيل البلد، وشل الاقتصاد.. كل هذا سلمي، ولا علاقة له بالعنف!!

وكانت حصيلة المظاهرات خلال تلك الفترة عشرات القتلى من مدنيين وضباط من الجيش والأمن، وإحراق محلات ومقرات للدولة..[171]

وحتى لو مورس ذلك العنف من قبل متظاهرين (مواطنين)، إلا أن لغة منشورات وتعليقات الإخوان عليها تدل على تأييدهم ما يحدث، بل واعتباره نوعا من الجهاد المشروع والتحريض على الانتقام.[172] ونفس الشيء يمكن قياسه على العنف الذي تمارسه جماعة "أنصار بيت المقدس" في سيناء، والتي شنت العديد من العمليات ضد

---

[171] موجز الأنباء، 29-11-2014. http://www.mojaznews.com/egynews/42951

[172] https://www.facebook.com/LOVERS.OF.IKHWAN/posts/756993021040520

الجيش المصري وضد أهداف حكومية، وضد مدنيين، وصلت حد قتل أكثر من 300 مصلي في جامع في العريش، في تشرين ثاني 2017، ضمن عملية إرهابية حملت توقيع داعش. وهناك إشارات تدل على أن الجماعات الإرهابية في سيناء تعمل بدعم وغطاء من الإخوان، وما يبدو واضحا هو تأييدها للعمليات الهجومية التي تحدث في سيناء، وحتى في المدن المصرية نفسها، والذي تعبر عنه في خطابها الإعلامي، وبالذات على مواقعها في "الفيسبوك"، إضافة لما نشرته وسائل الإعلام الرسمية عن اعترافات منسوبة لمعتقلين من الإخوان، أو بتحليل العلاقة بين الإخوان وما يجري في سيناء من خلال التصريح الشهير الذي أدلى به "محمد البلتاجي" بعد اعتقال "محمد مرسي"، حين ربط التوقف عن العنف في سيناء بمجرد الإفراج عن "مرسي".[173]

وهكذا، لاحظنا كيف حوّل "البنّا" المدرسة الإصلاحية (الأفغاني، عبده، الكواكبي) إلى جماعة تؤمن بالعنف، وسنلاحظ كيف ستخرّج من تحت عباءتها أكثر التنظيمات تطرفا وغلواً (التكفير والهجرة، الجهاد، القاعدة).

وفي الحقيقة فإن بذور العنف لدى الإخوان وغيرهم من الجماعات الإسلامية مردها الأيديولوجي عائد لإيمان أتباعها بأن الله قد ميز أتباع الدين الإسلامي على غيره من الديانات الأخرى، وأن هذا الدين يمثل الحقيقة المطلقة، ويحتكرها دون سائر الأديان والمعتقدات، وبالتالي فإن من يحملون راية هذا الدين هم ظل الله على الأرض، والقيمون على دينه.. ثم يأتي الإعتقاد التالي بأن أهل السنة والحديث هم ممثلوا الإسلام الصحيح، وهذه الإصطفائية التراتبية والإيمان الجازم بامتلاك الصواب سيمنح بالضرورة الشعور بالإستعلاء والسمو عن باقي البشر، وستغذي بالضرورة اتجاهات

[173] تسجيل صوتي للبلتاجي، تلفزيون On Live، https://www.youtube.com/watch?v=Flng2f0NdCw

العنف والتعصب، وستجعل من المسلم المنضوي تحت راية الجماعة يؤمن بأن جماعته بالذات هي من يمثل هذا الدين التمثيل الصحيح، ومن شذ عنها شذ عن الدين وضل سواء السبيل،[174] ويتعين عليه أن يردّه إلى الصراط المستقيم.. وهذه النظرة الإستعلائية تجعل من الحركات الإسلامية تنظر إلى نفسها على أنها أكبر من النقد، بل وترفض أن يوجه لها أي نقد، وبأي شكل، لأنه سيعني هنا نقدا للإسلام ذاته، ولهذا السبب قلما تجد جماعة إسلامية تمتلك منهجا علميا للنقد والمراجعة، أو تعترف بأنها أخطأت ذات يوم!! فباستثناء المراجعات التي قام بها أمراء الجماعة الإسلامية داخل السجون المصرية، واعترافهم ببعض الأخطاء كقتل السادات، وبعض المراجعات الخجولة والمرتبكة للجماعة الإسلامية في الجزائر، لم نشهد أي مراجعة نقدية لأي جماعة أخرى. وبالبحث في أدبيات الإخوان المسلمين سنجد ما يدعم هذه الفرضية ويثبت مصداقيتها، فمثلا سنجد العبارات التي تزرع التعصب في نفوس الشباب مثل: "أيها الأخ العزيز: إن في نسبتك إلى الله تبارك وتعالى أسمى ما يطمح إليه الطامحون، وفيها كل معاني العزة والمجد، وأي شرف أكبر من أن ترى نفسك ربانيا بالله صلتك وإليه نسبتك"، كما سنجد أن مقارنتهم بين عضو الإخوان مع المسلم العادي أن الأول ربانيا قائما على الحق، أما الآخر فإن غايته في الحياة هي لقمة العيش كالأنعام بل أضل سبيلا.

وقد اعتبر "الهضيبي" المرشد العام (الأسبق) للجماعة أن دعوة الإخوان هي الإسلام نفسه، ولم يقل انها مقتبسة عن دعوة الرسول، أو تسير على هديها، أو أنها تُنسج على منوالها [175].. بل صورها على أنها الإسلام بحد ذاته وبصورته النقية الخالصة، وهذه

---

[174] خليل عبدالكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، دار مصر المحروسة، ص 35.

[175] خليل عبدالكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، دار مصر المحروسة، ص 41.

الرؤية ستقود صاحبها إلى أن يرفض كل الأشخاص أو الأفكار أو الاتجاهات التي لا تتبنى نفس الخط الإخواني، أي رفض الآخر والعمل على إقصائه لأن ذلك بحد ذاته ضرب من ضروب الجهاد وإعلاء لكلمة الحق ومحاربة للفئة الضالة!! ولا شك أن هذا النهج في التنشأة من شأنه أن ينتج أفرادا متعصبين منغلقين مندفعين برؤيتهم للحد الأقصى، ومستعدون لعمل أي شيء.

المصدر الآخر لجذور التشدد في الفكر الاخواني متمثل بالأيديولوجيا الوهابية / السعودية، وهي أيديولوجيا مستمدة من الفقه الأصولي المتشدد المنغلق، والتي تأخذ موقفاً متزمتا من القضايا الاجتماعية، وموقفا متخلفا من موضوعات الحب والجمال والفن، وموقفا ديماغوجيا من القضايا السياسية، والتي نشأت بداية على يد "محمد بن عبد الوهاب" ذو الأصول البدوية، ويشير المفكر المصري "طارق حجي" إلى هذه النقطة بعمل مقاربة بين أسلوب تفكير ونمط حياة سكان الخليج العربي المطلين على البحر، وما في ذلك من انفتاح نسبي على العالم، وبين سكان صحراء نجْد المغلقة، حيث الكثبان الرملية تحيط بالبشر من كل جانب على امتداد مئات الأميال، مما يعطي مناخا مجافيا قاسيا يولد شعورا بالضيق، وحدة بالتصرف، قد تنعكس على أفكارهم وأنماط معاشهم.

فبعد أن أعطى "ابن عبد الوهاب" الفقيه الشرعية الدينية لآل سعود، وأصبحت الوهابية هى مصدر الشرعية للنظام، تمكن الملك "عبد العزيز" من تأسيس مملكته بمساعدة البدو، الذين شرّبهم تعاليم الوهابية، ولقّنهم مفاهيم الجهاد وتكفير الآخرين، كمبرر لغزوهم واحتلال أراضيهم، فكل من ليس وهابيا من المسلمين مشرك، وكل

يهودي ونصرانى كافر، ولا بد من جهاد الجميع، هؤلاء البدو الوهابيون اشتهروا باسم "الإخوان"، وكان اسمهم كافيا لدب الرعب في قلوب الناس، لما اشتهروا به من مذابح مروعة، اقترفوها في فترة ما قبيل تأسيس المملكة.[176]

أراد الملك بعدها تكوين تنظيمات إخوانية خارج الجزيرة العربية، عوضا عن الإخوان البدو المشاغبين، بهدف نشر الوهابية فى بلاد المسلمين مع التركيز على مصر والهند، والعمل على تحويل الصوفية فى مصر إلى الوهابية.

وقد دعم النظام إنشاء حركات وتنظيمات للشبان المسلمين، وكان من بينها جماعة أنصار السنة، وهى حركة وهابية خالصة يقودها الشيخ الأزهرى "حامد الفقى" صديق الملك "عبد العزيز"، وفى النهاية أنشأت حركة الإخوان المسلمين بديلا عن إخوان عبدالعزيز، ولكنها تحمل اسمهم ونفس شعارهم[177]، وكان هدفها المعلن هو التربية الإسلامية، وهدفها المستتر هو الوصول للحكم لإقامة دولة وهابية.

الكاتب "خالد الحروب"، يقول إن هذه النظرية غير دقيقة، وأنه لا علاقة بين الإخوان المسلمين، وبين إخوان عبد العزيز سوى التشابه بالاسم، وأن الإخوان المسلمين بدؤوا يتبنون الأيديولوجية الوهابية في فترة الستينات، خاصة بعد أن فر عدد كبير من قيادات الإخوان من وجه النظام المصري ولجؤوا إلى السعودية، ثم تقوى هذا التيار في السبعينات متأثرا بمعطيات تلك المرحلة، التي شهدت الطفرة النفطية، وبداية صعود موجة الأسلمة، برعاية سعودية، إلى أن صارت العقيدة الوهابية تمثل ركنا مهما من الأيديولوجيا الإخوانية.

[176] نظام المهداوي، الإخوان أول نسخة من داعش، قناة العالم، 5-7-2017. http://cutt.us/teuce

[177] محمد محفوظ، الذين ظُلموا، رياض الريس للكتب، ص 36.

وثمة وجهة نظر أخرى مفادها أنه عن طريق الدعم السعودى استطاع "البنا"، وهو المدرس البسيط، أن ينشئ آلاف الشُّعَبْ والفروع للإخوان فى العمران المصرى، من الإسكندرية إلى أسوان، واستطاع إنشاء الجهاز السري العسكرى إلى جانب التنظيم الدولى للإخوان. [178]

عن طريق الإخوان المسلمين المصريين انتقلت الوهابية والنفوذ السعودي إلى شمال أفريقيا غرباً، وإلى الشام شرقا، وإلى الجاليات الإسلامية فى أوروبا وأمريكا فضلا عن الهند والباكستان، حتى أنها حلت محل المذاهب الأربعة.

واليوم فإن مجمل ما أنفقته المملكة العربية السعودية على نشر ثقافتها الدينية في ربوع العالم كبناء مساجد تتبعها، ودعم فقهاء ووعاظ موالين لها، وغير ذلك من مواد دعائية وإعلامية وصل إلى ملياري دولار، وبهذه الأموال استطاع الإخوان تقديم الفكر الوهابى للمثقفين المسلمين والطبقة الوسطى بأُسلوب عصرى مفهوم، يختلف عن أسلوب "محمد بن عبدالوهاب" الفقهي الأصولي الجاف، ثم صاغوا الوهابية فى شعارات سياسية مقبولة لجماهير المسلمين مثل الإسلام هو الحل، وتطبيق الشريعة، دون الخوض فى التفصيلات.

وفي تقرير مطول عن الدور السعودي بعنوان: "السعوديون والتطرف، مشعلو النار ومخمدوها"، جاء فيه: "في العام 1964، عندما تولى الملك فيصل العرش، التزم بنشر الإسلام. وعلى الرغم من أنه اعتمد منهج التجديد في العديد من النواحي وأقام علاقات وثيقة مع الغرب، بيد أنه لم يتمكن من إصلاح المذهب الوهابي الذي أصبح يشكّل وجه الكرم السعودي في العديد من البلدان. على مدى العقود الأربعة التالية،

[178] زياد سلامه، الشيخ حسن البنا، دار البيارق، 2001، ص 89 ~ 102.

قامت المملكة، في البلدان ذات الأغلبية غير المسلمة وحدها، ببناء 1359 مسجدًا، و210 مراكز إسلامية، و202 كلية و2000 مدرسة. كما ساعد المال السعودي على تمويل 16 مسجدًا في الولايات المتحدة، وأربعة في كندا، وغيرها في لندن ومدريد وبروكسل وجنيف، وفقًا لتقرير صادر في مجلة "عين اليقين" السعودية الرسمية الأسبوعية. وأفاد التقرير بأن إجمالي الإنفاق، بما في ذلك إرسال الأئمة والمعلمين أو تدريبهم، بلغ "العديد من مليارات" الريال السعودي". [179]

وبالعودة لدور الإخوان المسلمين، سنجد أهم من ذلك كله أنهم أجهضوا المشروع الإصلاحى التنويرى للشيخ "محمد عبده"، لصالح الهدف السياسي السعودي، واستطاعوا نشر الكثير من المفاهيم الوهابية المتشددة والتي تأخذ طابع العنف والتعصب ضد الغرب والمسيحيين واليهود، وطابع التخلف والتزمت في قضايا المرأة والمجتمع.

الدليل على ذلك أن ما كان "محمد عبده" يقوله منذ قرن من الزمان فى دعوته الإصلاحية أصبح هرطقة وكفراً فى عصرنا الحالى يستوجب القتل!! فإذا بدأ القرن العشرين بأفكار "الكواكبي" و"قاسم أمين" و"هدى شعراوي"، فإن القرن الحادي والعشرين قد بدأ بفتاوى تحريم استخراج شهادة ميلاد لأطفال الإسلاميين في القاهرة، وتحريم استخدام الثلج في بغداد، وتفجير مقاهي الإنترنت في غزة!!

---

[179] نيويورك تايمز، 26-9-2016. http://www.nytimes.com/interactive/2016/09/26/world/middleeast/arabic-language-saudi-arabia-islam.html

## الإخوان المسلمين، العباءة التي خرجت منها الجماعات الأصولية

إذاً، لاحظنا من خلال هذا التحليل السسيولوجي، كيف نما وتشكل هذا التراث الأصولي، وكيف كانت أفكار "إبن تيمية" التي ورثها "بن عبد الوهاب" ثم حملها "المودودي" و"سيد قطب" هي الحاضنة الفكرية التي نمت فيها أفكار التطرف والغلو وتكفير الآخرين، والتي صارت أساس بنية الحركات الجهادية فيما بعد، بدءًا من التكفير والهجرة والجهاد الإسلامي حتى تنظيم القاعدة، ومن بعدها جبهة النصرة وداعش، وكان للإخوان المسلمين الدور الخفي والداعم والحاضن لكل تلك الأفكار.

فالإخوان المسلمين إذاً – وهم أول وأكبر وأهم جماعة إسلامية في العالمين العربي والإسلامي – ليسوا مجرد تنظيم سياسى بقدر ما هم ثقافة دينية وأيديولوجيا يجرى اعداد المجتمع على مهل للايمان بها وللتضحية فى سبيلها باسم الإسلام، وبهذه الأيديولوجيا وهذه الرؤيه الدينية يتم تقسيم الوطن والعالم كله إلى معسكرين: معسكر الإسلام ومعسكر الكفر، وتقوم فلسفة الحاكمية لله وتكفير المجتمع وضرورة الجهاد لإقامة الدولة الإسلامية، وبالتالي فإن الخطاب الإخواني والإسلاموي عامة لن يحمل في طياته مفاهيم العفو والصلح والمسالمة؛ بل سينادي بالعنف وحمل السلاح والقتال في سبيل الله.. وهذه الأفكار يسهل تسويقها في ظل تربية دينية للفرد تصل به إلى حد إلغاء عقله وإخضاعه للسمع والطاعة، بدون مناقشة.

في هذا المجال، وللتمييز بين الإخوان من جهة، وبين الجماعات الأصولية التي انبثقت عنها، يجد الكاتب "محمد جمال باروت" في كتابه "يثرب الجديدة"، أن هنالك ثمة فرق

مهم بين الحركات الأصولية الإخوانية وبين الحركات الجهادية[180]، بل ويرى ثمة فرق واضح بين تيارات داخل التنظيم الواحد تجاه العديد من القضايا كتكفير المجتمع أو تكفير النظام، وهل الغاية دولة إسلامية أم دولة دينية؟ وهل الحاكمية لله أم للجماعة المسلمة؟ وهل يستمد الخليفة سلطانه من الله، أم من الشعب؟ وللدلالة على هذه الفروقات يقارن بين أطروحات "مصطفى السباعي" الإخواني الإشتراكي وبين "جند الله" ل"سعيد حوى" الإخواني المتشدد، وكلاهما سوريان، وبين مذكرات الدعوة والداعية المنفتحة المرنة ل"حسن البنا" نفسه، وبين مشكلات الدعوة والداعية للإخواني المتشدد "فتحي يكن"، وهذه كلها داخل تنظيم الإخوان، وإذا ما انتقلنا إلى مستوى آخر من المقارنة سنجد البون شديد الاتساع، كما هو بين "دعاة لا قضاة" ل"حسن الهضيبي" وبين "توسمات" "شكري مصطفى" أمير التكفير والهجرة، ويصل التناقض إلى مداه الأقصى في "الحصاد المر" ل"أيمن الظواهري" الذي ينتقد فيه الإخوان ويهاجمهم بمنتهى القسوة التي تصل لدرجة التخوين!

ويرى "باروت" أن "رشيد رضا"، هو الأب النظري للخطاب الإخواني، بينما "أبو الأعلى المودودي" هو الأب النظري للخطاب الجهادي، ونظريته الثيوقراطية للدولة الدينية التي تتخطى نظرية تطبيق الشريعة الإخوانية.

[180] محمد جمال باروت، يثرب الجديدة، رياض الريس للنشر، 1994، ص 14 ~ 17.

## عوامل إضافية في إزكاء العنف

ثمة عوامل أخرى هامة أسهمت في تشكل ظاهرة العنف والتطرف في المجتمعات العربية والإسلامية، من ضمنها التنشئة الدينية، والمناهج المدرسية، والدروس الدينية التي يتلقاها الشباب في المساجد، وطبعا ليس المقصود هنا الإسلام بحد ذاته، بل طريقة فهمه وطريقة تناقله من جيل لآخر، فالمسلم ينشأ في ظل تربية دينية تقليدية تحمل في طياتها مفاهيم متوارثة - بعض منها غيبية ومشوهة - عمرها مئات السنين الأمر الذي أكسبها مزيدا من الثبات والتسليم، ثم يشب الطفل عن الطوق ومعه تلك المفاهيم، دون أن يفكر بمناقشتها أو نقدها، لأنها في نظره عبارة عن مسلّمات وثوابت نهائية، ثم تأتي المدرسة ومناهج التعليم، ومن بعدها الشيخ في المسجد، ليكرّسوا جميعاً تلك المفاهيم ويشرّبونها للأجيال بطريقة التلقين التي لا تعطي فرصة للمراجعة والتفكير والنقد البناء، فتنشأ الأجيال على الغيبيات والخرافات والبديهيات.

وغني عن القول أن تلك التربية تُعوّد الأبناء على التسليم والخضوع في جو من الإرهاب الفكري، وبذلك يتهيأ الشباب نفسيا وذهنيا لقبول الأفكار المتطرفة التي يطرحها عليهم بعض مشايخ الدين، الذين نصّبوا أنفسهم قيّمين عليه وشارحين لمفاهيمه، قد أساؤوا فهم الإسلام، وصوّروه على أن دين حرب وجهاد متواصل ضد كل غير المسلمين (وأيضا ضد من هم خارج الطائفة أو الجماعة) وأن آيات القتال في القران الكريم قد جبّت ونسخت كل آيات العفو والسلم والتسامح، وأن المسلم يجب أن يبقى في حالة قتال مستمرة إلى أن يدخل آخر إنسان على الأرض في دين محمد.[181]

[181] أنظر، جمال البنا، الجهاد، دار الفكر الإسلامي، 2002، القاهرة.

وبعد الحاضنة الفكرية تأتي الظروف الموضوعية القاهرة، مثل الاستبداد والفقر، فتكتمل الدائرة وتدور عجلة الإرهاب، لتطحن بين رحاها طموحات الشباب وتسحق إقبالهم على الحياة، التي سيرونها بصورتها القاتمة الكئيبة، ولهذا السبب من الخطأ أن نرد ظاهرة العنف في الجماعات الإسلامية إلى الأسباب الاجتماعية وحدها، رغم أهميتها القصوى، ف"أسامة بن لادن" مثلا مليونير من أصل بدوي، ولم يختبر الفقر قبل لجوئه إلى أفغانستان، وكذلك "الظواهري" إبن مدينة وسليل عائلة برجوازية مثقفة، ولكن تجدهم مصدرين لأكثر الأفكار تخلفا وتطرفا.. وكذلك فليس كل من جاع أو نشأ في الفقر لجأ للحركات الجهادية، وليس كل أتباعها من الجهلة والأميين أو أنصاف المثقفين.. فظاهرة الإرهاب التي نتحدث عنها معقدة ومتشابكة، ولا يمكن الإحاطة بها بتلك السهولة والتسطيح، ولا يجوز تفسيرها استنادا لسبب واحد فقط، فكما لها إرهاصات فكرية موغلة في القدم، لها أسباب سياسية ودوافع اجتماعية وعوامل نفسية، تتغير على الدوام، وتختلف من بلد لآخر.

في السعودية مثلا نشأ جيل جديد من الوهابيين متأثراً ب"سيد قطب" وآرائه الحادة، أكثر من تأثّره بالفقهاء الرسميين فى النظام السعودى، هذا الجيل السعودى الوهابى أخذ التقية عن الإخوان المسلمين، وتحرك فى هدوء تحت السطح، ومع تراكم الفساد والانحلال فى الأُسر الحاكمة، وتحالفها مع أمريكا، أثمر الطرح الإخوانى تطورا فى عقلية هذا الجيل، فأخذ يصرّح بتكفير الحكام، طبقا للتكفير العام الذى نادى به "سيد قطب"، ثم جاءت الفرصة لهم بالجهر بالمعارضة بعد احتلال "صدام" للكويت، وصرخة الأسرة السعودية تستنجد بأمريكا لتنقذها من غزو "صدام"، لتؤكد عدم

أهليتها للحكم، بعد عجزها عن حماية الشعب رغم كل ما أنفقته من بلايين فى شراء السلاح، إذاً فقد تولدت المعارضة السعودية من رحم حرب الخليج متأثرة بالانفتاح على الإخوان. وهكذا يرتد مرة ثانية كيد الدول إلى نحرها.

كما كان للعرب الأفغان دورا هاما في تصدير فكر التطرف والإرهاب في البلدان العربية، خاصة بعد أن تكشف الوجه الحقيقي للحرب الأفغانية الأهلية، وعاد المجاهدون من حيث أتوا، حاملين معهم تجربتهم وخيباتهم وأفكارهم وإحباطاتهم، لتستقبلهم بعد ذلك بلدانهم بالسجون والمطاردة ونظرات الشك والريببة والاتهام، فلا يجدون مناصا من التقوقع والإنكفاء، أو مزيدا من التطرف والهجوم المضاد على المجتمعات التي نبذتهم سابقا، وها هي تنبذهم الآن مجددا، ثم يجد البعض منهم في العراق الجديد القابع تحت الاحتلال الأمريكي، وفي سورية التي تشهد حربا داخلية، يجدوا مهربا أخيرا، أو فرصة لتجديد ذاتهم والتعبير عنها، ولكن هذه المرة في ظل إعلام فضائي يبحث عن الإثارة ويضخم من أراد ويلمّع من يشاء لحسابات سياسية معقدة.

وباعتقادي، فإن المدخل السليم لتفكيك لغز الإرهاب، هو إيجاد قاسم مشترك أعظم يربط بين كل العوامل السابقة، بل ويتفوق عليها بأهميته وحضوره، وقبل ذلك نحتاج تفنيد كل عامل على حدة؛ فمثلا، إلصاق التهمة بالفقر، فضلا عن كونه إساءة للفقراء، الذين يتحملون بصبر ونبل أوزار المجتمعات والأنظمة، هو فهم قاصر، لأن الفقر لا يساوي الإرهاب بالضرورة. وبالمثل سنجد أن العشوائيات أنتجت أدباء وعلماء وفنانين، وأيضا فإن مئات الآلاف من المتعطلين عن العمل، والفاقدين كل أمل، القابعين على هوامش المجتمعات، وعلى حواف اليأس لم يدفعهم كل ذلك لأي عمل

عنيف، بل ورفضوا بوجدانهم وضمائرهم كل المنظمات الإرهابية، وكذلك ملايين الأميين والمحرومين من مدارسهم وضحايا الحروب والفارين من جحيم المعارك واللاجئين كل هؤلاء لم يتخلوا عن إنسانيتهم، وظلوا أناسا طيبين. وحتى الجاليات المسلمة وغير المسلمة في المدن الأوروبية، ورغم عدم اندماجها في الحياة الغربية، إلا أنها لم تلجأ بالعموم للتطرف والإرهاب. فمن أين جاء هؤلاء؟ وأية بيئة أنتجتهم؟

وبتحليل إحصائي سنجد أن غالبيتهم جاؤوا من تونس والسعودية، بالإضافة لعشرات الدول الأخرى، أكثرهم عازبون، وأعمارهم دون الثلاثين. منهم جامعيون، معدمين وأثرياء، من عائلات برجوازية ومتعلمة، من العشوائيات والأحياء الفقيرة والراقية، من الصحارى، ومن قلب المدن الأوروبية، حِرفيين ومهندسين وخبراء اتصالات وأطباء، وعاطلين عن العمل، عرب وأجانب، من بيئات مكبوتة جنسيا، ومن أخرى مفتوحة على مصراعيها على الجنس..

وذكرت صحيفة "ديلي تلغراف" أن عدد المقاتلين الأجانب الذين سافروا إلى العراق وسوريا منذ نشوب القتال في عام 2011 يقدر بأكثر من 27 ألفا.

وتشير مجموعة سوفان، وهي منظمة بحثية مقرها في نيويورك، إلى أن ما بين 27 ألفا و31 ألف شخص قد سافروا إلى سوريا والعراق للانضمام إلى داعش، والجماعات المتطرفة الأخرى، وهذا العدد أكثر من مجموع الذين سافروا إلى أفغانستان. وذكرت المنظمة أن المقاتلين الأجانب الذين ينضمون إلى هذه الجماعات يأتون مما لا يقل عن 86 دولة، والدول العشر التي تتصدر قائمة المقاتلين الأجانب في العراق وسورية تشمل تونس (6500) والسعودية (2500) وروسيا (2400) والأردن (2250) وتركيا

(2100) وفرنسا (1700) والمغرب (1350) ولبنان (900) ومصر (800) وألمانيا (760).[182]

بتتبع القاسم المشترك، سنجد أن جميع هؤلاء تعرضوا لأشكال ومستويات متباينة من غسيل الدماغ، بدأ منذ نعومة أظافرهم، وتطور في مراحل لاحقة، بدأ في المناهج التعليمية في المدارس والمعاهد الدينية، بدأ بجمل بسيطة لا ينتبه إليها أحد؛ مثلا: "المسلم نظيف، يغسل يديه بعد تناول الطعام"، فينمو في عقل الطفل الباطن أن المسلم نظيف، وغير المسلم قذر، ثم يتطور الأمر في المعاهد الشرعية لنقرأ مثلا: "يجوز للمسلم سبي نساء العدو واستعباد أطفالهم"، ثم تكتمل العملية في المساجد، حيث يدعو الخطيب بكل فصاحة اللغة: "اللهم عليك بالصابئة والرافضة والشيعة والنصارى واليهود ووو.. اللهم شتت شملهم، واجعل دماءهم تجري بين أيدي المسلمين".

باختصار، منابع وجذور التطرف والإرهاب ليست المناطق المهمشة، بل هي في الأساس من الأيديولوجية الوهابية التي استطاعت أن تتغلغل في العقود الماضية إلى المناهج المدرسية، والمساجد والجامعات وعشرات الجمعيات التي تتسربل بتحفيظ القرآن، حتى أنتجت جيلاً كاملاً لا يعرف إلا منهج الطائفية والولاء والبراء والتكفير ونبذ الآخر وشيطنته. وكل من تجد هذه الأفكار المتطرفة صدى في نفسيته المضطربة، أو يجد لها قبولا في عقله المريض، وتعبيرا عن شخصيته الموتورة والمكبوتة والمأزومة، وكل من يبحث عن الشهرة والمغامرة والانتقام، أيٍ من هؤلاء، كل ما عليه أن يعبر الحدود التركية ليصبح إرهابيا، بغض النظر عن بيئته الاجتماعية.

[182] إحصاء لأعداد المقاتلين الأجانب في العراق وسورية، تقرير قناة الجزيرة، 25-3-2016. http://cutt.us/vQWsX

المخابرات "العدوة" ممكن أن تنظم أشخاصا وقيادات، وتقدم تسهيلات لوجستية؛ لكن الأفكار المتطرفة إنتاج محلي بشري صرف.

## ثقافة الموت

إذاً، في ظل الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السيئة التي أشرنا لها، والتي باتت تُطْبق على صدور الناس، وتصوِر المستقبلَ للشباب في أحلك صوره، وتجعلهم يفقدون بدورهم مع هذه الصورة السوداوية أي بارقة أمل بـه، وبالتالي ستنسدُّ في وجوههم الآفاق، وتصبح حياتهم بلا معنى وبلا قيمة، وبوحي من هذه الأيديولوجيا الأصولية المتزمتة، التي تواسي يأسهم، وتداعب عواطفهم بأماني غيبية، وتمنّـيهم بالخلاص الآخروي من هذا الهوان، بشعارات براقة وخطاب ديماغوجي يصور لهم الدنيا بأنها فانية وزائلة، وما عليهم سوى الزهد بها، والإقبال على الآخرة، حيث النعيم المقيم، والحور العين، والقطوف الدانية... في هذه البيئة الاستثنائية كان من الطبيعي أن ينشأ ما سيُعرف "بثقافة الموت".

وفي ظل ثقافة الموت يدب اليأس محل الأمل، وتموت الرغبة، وتضمحل قيمة الحياة، لأنها باتت بلا جدوى، ومن هنا على المرء أن يستعجل الموت للخلاص من جحيم الدنيا وخطايا البشر، وبالتالي فإن قيمة الحياة ستتساوى مع الموت. ثم تأتي ثقافة المجتمع التي تكرم الشهيد، وتجعله في مصاف الأنبياء، وتخلق منه أسطورةً للبطولة والفداء.. بعد كل هذا يجب أن لا نستغرب من تكاثر أعداد الإستشهاديين والإنتحاريين الذين تسول لهم نفسهم سهولة الموت، وسهولة قتل الآخرين.

مع قناعتنا بأن الموت حالة طبيعية وحلقة من حلقات الحياة، ومنه تُولد الكائنات.. إلا أن الإنسان بفطرته ينفر منه، ويتحاشاه بشتى السبل، ويتشبث بالحياة بكلتا يديه، بل ويقبل عليها بنَهم وشغف.. إلا أن أولئك المضطربين نفسياً والمكبوتين والمقهورين،

الذين ضاقت بهم الأرض بما رحبت، حتى استبد بهم القنوط، وانحرفت فطرتهم وتاهت بوصلتهم، سيجدون في الموت عزاءً وخلاصا.. أما الشهداء الذين قضوا نحبهم دفاعا عن مبادئهم وأوطانهم ومقدساتهم وعقيدتهم، وهم ممتلئون حباً بالحياة ومفعمون بالحنين لأهلهم وأحبتهم، فهم يمثلون أعلى درجات الشجاعة والتضحية.

ومع تأكيدنا أيضا على أن الإسلام الصحيح - والذي هو في جوهره دين تسامح ومحبة - يدعو للحوار والتعايش السلمي بين بني البشر، وقد أعطى للحياة قيمة عليا، وكرّمَ الإنسان، وأعتبر أن حرمة دمه لا تدانيها حرمة، وهو قبل أي شيء آخر، دين رحمة وإنسانية ينبذ العنف والإكراه ويحرم القتل والاعتداء، ويدعو المسلم للإقبال على الحياة وإعمار الأرض، ويحثه على البحث والتفكير والتأمل في جمال الخلق وعظمة الخالق..

إذاً، من أين جاء هؤلاء الغلاة بهذه الأيديولوجيا العنيفة؟ ومن أين يستمدون فتاويهم بالقتل والتفجير؟! وكيف يحللون دم المسلم (أو غير المسلم) لمجرد مخالفته رأيهم؟!

للإجابة على هذه الأسئلة سنميز مرة ثانية بين قادة تلك التنظيمات التي تؤمن بالعنف، وتعتبره الوسيلة الأساسية لنشر الإسلام، وبين أتباع هؤلاء القادة من الشبان والفتية..

فإذا كان قادة التنظيمات الذين يمثلون رأس الهرم التنظيمي هم الذين يشرّعون العنف، ويصدّرون الفتاوي، ويحرّضون الشبان، ويعبئونهم بأفكارهم، مستندين إلى تراث أصولي يضرب جذوره عميقا في التاريخ، ويستحضرون أمثلة تطبيقية لهذا التراث لا حصر لها من تاريخ الدولة الإسلامية[183]، فإنهم يشتركون مع قاعدة الهرم التنظيمية من الشبان المندفعين بصفات وطباع محددة، وَسَمَتْها ظروف اجتماعية وسياسية معينة، خَلَقت منهم شخصيات مضطربة، ونفسيات موتورة، ذات مخزون كبير من الكُرْه،

[183] للمزيد أنظر، فرج فودة، الحقيقة الغائبة، ط1 مطابع المستقبل بالفجالة، مصر 1985.

ونظرة سلبية تجاه المجتمع والناس، وتجد ضالتها في العنف، وتنسجم مع ذهنية التحريم، ومع التربية الحزبية الصارمة التي تتسم بالسرية والتراتبية القائمة على مبدأ الطاعة العمياء، والتسليم بصحة كل ما يُقال، وتنفيذ كل ما تُؤمر به، فإن قادة التنظيمات ينجحون في نهاية المطاف بتضليل الشبان والقضاء على آخر ذرة رحمة في قلوبهم، ليحيلوهم إلى قتلة، وأداة تنفيذ، لا تملك إلا السمع والطاعة.

وهذا النمط من العقلية المستلَبة التي تقودها عقليات غاية في الذكاء الموجه، أو في الغباء - لا فرق بينهما في هذه الحالة – من الطبيعي أن تعمي عينيها عن الآيات الكريمة من القرآن الكريم التي تفتح الآفاق رحبة أمام الإنسان ليتقدم ويتطور، وتغض الطرف عن الأحاديث الشريفة التي تدعو للتواضع والرحمة، وتفتح عيونها فقط على تفسيرات مغلوطة لآيات الجهاد، وأحاديث منسوبة للنبي الكريم تتحدث عن القتل وسفك الدماء، وبوحي من هذا الفهم المشوه تنشأ عقلية التكفير والتخوين، وبالتالي معادة الآخرين وهدر دمهم لأن ذلك من وجهة نظرهم هو الجهاد في سبيل الله.

وقد استغلت التنظيمات الجهادية هؤلاء الشبان المعبئون بثقافة الموت إلى أقصى درجة، وجعلت منهم قرابين رخيصة، تُذبح على عتبة طموحاتها السياسية وأهدافها الخفية، بنفس الدرجة التي تم فيها استغلال تلك التنظيمات نفسها لتنفيذ أجندات سياسية خارجية، على يد نفس الجهات التي تدعي محاربتها.. وعلى رأس تلك الجهات تأتي الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل وإيران.

فإذا كان هذا التحليل ينطبق على التنظيمات الإسلاموية في العالم بشكل عام، فإنه أشد وضوحا في فلسطين؛ حيث سنضيف إلى جانب القهر الاجتماعي والاقتصادي

والسياسي الذي يتعرض له عامة المسلمين سنضيف قهر الاحتلال وقمعه، حيث أن ممارساته الوحشية اللاإنسانية بحق المواطنين لها أبلغ الضرر على نفسياتهم ووعيهم، فإذا أردنا الحديث عن العنف في المجتمع الفلسطيني، وطبعا لا نقصد العنف الموجه ضد الاحتلال بل العنف الموجه تجاه بعضه البعض، فإن الحديث يشمل كافة التنظيمات ولا يقتصر فقط على أتباع حماس، أو أعضاء القوة التنفيذية، أو كتائب الأقصى والقسام.. ولكن ما يميز العنف الذي تمارسه حماس هو مبرراته الدينية ومنطلقاته الأيديولوجية، التي ستوسمه بالشدة والقسوة، لأنه من وجهة نظرهم جهاد في سبيل الله، ونهي عن المنكر، وقتال ضد الفئات الضالة، وإقامة حكم الله.. وتكمن خطورته أيضاً في أن مقترفي العنف من "القوة التنفيذية وشرطة حماس" سيقدمون على فعلتهم دون أن تهتز لهم قصبة، وسيسوّغون جرائمهم وسيبررونها بفتوى دينية.. ومن الممكن أن يصوروا الحرب الأهلية على أنها جهاد مشروع لإقامة دولة الإسلام!!

وفي الحقيقة فإن العنف في الأراضي الفلسطينية فضلا عن الأسباب التي أشرنا إليها، فإنه تعبير عن تكلس اجتماعي وإحتقان وكبت نفسي يُمارس تحت مظلات دينية أو ثورية، لذا نلاحظ زيادة حدته في قطاع غزة، حيث القطاع ذو كثافة سكانية هي الأعلى من نوعها في العالم، وحيث المخيمات والجوع والفقر والمجاري المفتوحة والبيوت الضيقة التي تتكدس فيها عائلات كبيرة فوق بعضهم البعض، وحيث الأطفال يهيمون في الشوارع والشباب لا يجدون متنفسا، وحيث البطالة والتخلف الاجتماعي.. كلها ظروف بالغة القسوة، وتعتبر مناخا ملائما لترعرع وإزدهار ثقافة العنف والتطرف..

# الدولة الإسلامية في العراق والشام - داعش

تعود جذور نشأة تنظيم داعش للعام 2000، حين أنشأ "أبو مصعب الزرقاوي" العائد من أفغانستان، تنظيم "جماعة التوحيد والجهاد" بالتعاون مع نشطاء سلفيين أردنيين آخرين، وكان ذلك بالتوازي مع بدء الاحتلال الأمريكي لأفغانستان، حيث نقل "الزرقاوي" مركز ثقل عملياته إلى العراق، ومنها بدأ بنسج شبكة من العلاقات مع ميليشيات "أنصار الإسلام" في الشمال، ثم صار أمير "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين" بعد مبايعته "أسامة بن لادن".[184] وبعد مقتل "الزرقاوي" في نيسان 2005، على إثر غارة أمريكية، بدأ تنظيم القاعدة بالتفكك، ثم نشأ محله في محافظة الأنبار تنظيم ما عُرف بِ"الدولة الإسلامية في العراق"، لكن هذا التنظيم أخذ بالتراجع تدريجيا، تحت ضربات ما سمي بالصحوات والعشائر، حتى اختفى من مسرح الأحداث تقريبا، ليعاود الظهور بقوة مرة ثانية بدءاً من العام 2009، (العام الذي انسحبت فيه أمريكا من العراق) وليمتد نشاطه بين العراق وسوريا.

في سوريا، التي ستشهد صراعا داخليا عنيفا، نشأت جبهة النصرة المنبثقة عن تنظيم القاعدة، ثم انشق عنها ما سيعرف بتنظيم داعش. وفي تموز 2014، دخل مئات المقاتلين من داعش إلى الموصل، واحتلوها، وأعلنوا عنها عاصمة لدولة الخلافة، التي ستحمل اسم "الدولة الإسلامية في العراق والشام"، وتعرف اختصارا من قبل خصومها باسم "داعش".

---

[184] عامر دكة، نشوء وتطور داعش، المصدر، 16-8-2014. http://cutt.us/O4wRj

واحدة من النظريات التي تفسر نشوء ظاهرة "داعش"، تدعى نظرية "عش الدبابير"، ومفادها أن المخابرات الغربية أوجدت "داعش" ومنحتها بقعة جغرافية واسعة لتستقطب كل الإرهابيين في العالم، وبالذات من الدول الغربية، ليتخلصوا منهم أولا، ولحصرهم في منطقة واحدة ثانياً، بحيث يسهل التحكم بهم. وبغض النظر عن مدى صوابية هذا الطرح؛ إلا أنه بالفعل صارت دولة "داعش" نقطة جذب لكل من لديه ميول عنف وعدوانية، وتستهويه مناظر المذابح الجماعية.[185]

ما يهمنا من تتبع المسار التاريخي لنشوء داعش هو إيجاد صلاتها الفكرية والأيديولوجية بتنظيم القاعدة الأم، التي انشقت عنها، وصارت خصمها فيما بعد، وتسليط الضوء على الأيديولوجيا العنيفة والمتطرفة التي تتبناها "داعش"، والكثير من الجماعات الإسلامية المتشددة، والتي تجد لها جذورا في تاريخ الحروب الإسلامية.

إزاء هذا الموضوع تبرز وجهتي نظر، كل منهما عكس الأخرى؛ الأولى تقول بأن "داعش" لا تمتّ إلى الإسلام بصلة، ولا تمثّله بأي شكل؛ بل أنها أساءت إليه، وقدمت أنموذجا مشوها، يختلف كل الاختلاف عن الإسلام الحقيقي، دين الرحمة والتسامح والتعايش بين البشر. أصحاب هذا الرأي هم ممن يسمّون بالمسلمين المعتدلين الوسطيين.

في المقابل، هناك من يقول إن ما يقوم بهم تنظيم داعش، هو عين الإسلام، ولا يغدو عن كونه عملية استنساخ أمين وحرفي لتاريخ طويل ممتد من عمر الدولة الإسلامية،

---

[185] نظرية عش الدبابير، رابطة العلماء السوريين، 18-1-2016. http://islamsyria.com/site/show_articles/7740

وفتوحاتها وحروبها ضد الكفار و"الروافض". [186]وغني عن القول أن أصحاب هذا الرأي هم أتباع داعش نفسها، وبعض التيارات الإسلامية المتشددة.

وبين هذين الرأيين، ثمة رأي ثالث مفاده أن أيديولوجيا داعش مستقاة من التراث الإسلامي، وأن هناك حشدا من الفتاوى تؤيد قتل الأسرى، وسبي النساء، وفرض الجزية، وأخذ الغنائم، وتطهير أرض الخلافة من غير المسلمين، وتحرّم كل ما حرّمته داعش، وتوافق على ما فرضته على الناس من مسلكيات ومحددات... إلا أن داعش راحت في ذلك إلى أقصى مدى، وطبقته بشكل سافر وعشوائي، ومبالَغ فيه. وأصحاب هذا الرأي الذي ينتقدون داعش على ممارساتها الفظيعة هم من تنظيم القاعدة، وتفريخاتها. ورأي رابع يقول أن أيديولوجيا داعش حتى لو كانت من صُلب الإسلام، وانعكاسا لتاريخه القديم؛ إلا أنها لم تعد صالحة في هذا الزمان؛ أي زمن العولمة وحقوق الإنسان والدولة الحديثة، وأصحاب هذا الرأي ممن يسمون الإسلاميين المتنورين، أو الحداثيين.

إذن، نحن أمام وجهات نظر متباينة ومتناقضة للحكم على أنموذج "إسلامي" تمثله "داعش"، فبين من يقول أنه لا يمثّل الإسلام، ومن يقول أنه يمثل جانبا مجتزئا منه، الحالة الأولى تعني نزع صفة الإسلام عنه، أي تكفيره. والحالة الثانية تعني الإقرار بإسلاميته؛ وهذا يقتضي من الإسلاميين "المعتدلين" الاعتراف بتعدد نماذج تطبيق الإسلام ذاته، وهو أمر يتناقض مع الصورة المثالية للإسلام، بوصفه دين واحد موحد.

[186] سامي لبيب، داعش الوجه الحقيقي للإسلام، الحوار المتمدن، العدد 4533، 4-8-2014.
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=426889

في حقيقة الأمر، الأنموذج الذي تقدمه داعش لا يختلف كثيرا عما تقدمه حركات الإسلام السياسي الأخرى، وبالذات ما يعرف بالتنظيمات الجهادية: (القاعدة، جبهة النصرة، أنصار بيت المقدس، أنصار الشريعة...)، هذا فقط ضمن إطار ما يعرف بأهل السنة والجماعة، وإذا ما وسعنا الدائرة قليلا سنجد عشرات التنظيمات الإسلامية الشيعية (لواء أبي الفضل العباس، فيلق بدر، الميليشيا الصدرية، حزب الله العراقي، عصائب الحق، الحشد الشعبي... وغيرها) التي تختلف عن مثيلاتها السنية في المرجعيات الدينية فقط، ولكنها تتفق معها في كثير من الأشياء الأخرى: ممارسة العنف، القتل، التشدد، التعصب المذهبي والطائفي، التزمت إزاء قضايا المرأة والجمال وأنماط الحياة العصرية وأشكال السعادة. وحتى عند الجماعات التي توصف بالاعتدال، سنجد أن الفرق الحقيقي يكمن في درجة التشدد، وفي اختيار المواقيت، وفهم الظروف السياسية، ودرجة المرونة في التعاطي مع الشأن العام، لكن جوهرها متشابه إلى حد كبير.

ورغم ذلك، فإن النهج المتبع من قبل هذه التيارات والأحزاب المختلفة هو منهج التكفير؛ أي تكفير كل من لا يشبهها؛ فبينما تستهجن التنظيمات "الوسطية والمعتدلة" منهج داعش في التكفير، نجد أن نفس التنظيمات تكفّر داعش، أي أنها وقعت في نفس الشّرَك، وبادلت التكفير بالتكفير، لأنه على ما يبدو المنهج السائد المهيمن على العقلية العربية.

في تاريخ البصرة، ما يُعرف بثورة الزنج (869~883م) وهي ثورة نفذها آلاف العبيد ضد والي الخليفة، وانتهت باجتياح المدينة والسيطرة عليها لسنوات عديدة، وبدلا من

أن يقدم الثوار أنموذجا للعدالة والمساواة وإلغاء العبودية، قاموا باستعباد الطبقة الحاكمة ومعها سكان المدينة، أي أنهم مارسوا نفس الظلم الذي وقع عليهم، لأنهم فكروا بعقلية العبيد، ولم يفهموا العالم إلا على شكل سيد وعبد.[187]

بعبارة أخرى، يسود منهج التكفير لأن لدى كل فئة فهماً معينا للإسلام، تزعم أنه روح الإسلام الحقيقي، وما عداه شطط وضلال، وبالتالي فإن كل فئة تؤمن أنها هي الفرقة الناجية.

وبعد التكفير، تأتي الحلقة الثانية؛ وهي العنف، وقتل كل من استحق صفة الكافر، وتاريخيا، تضمَّن كل دين في ثناياه عناصر العنف، وذلك بمجرد تحول أتباعه إلى طوائف، وبمجرد صعود رجال الدين للتحدث باسمه، مانحين أنفسهم سلطة السيطرة على البشر واعتبار أنفسهم يحكمون باسم الله، وعندما تعتبر كل طائفة نفسها محتكرة للسماء، وأنها تمثل الدين بصورته النقية الأصلية، وعندما تقحم السلطة أو الميليشيات الساعية للسلطة الدين بالسياسة، وتوظفه لصالح مشاريعها؛ آنذاك يصبح العنف والإرهاب باسم الدين من ضرورات السلطة ومقتضيات الحكم.

في عصور الظلام عانت أوروبا من تسلط رجال الدين، وعرفت المجتمعات الأوروبية أشكالا مروعة من الإرهاب الكنسي؛ في الحروب الدينية، ومحاكم التفتيش، والأساليب المرعبة التي استخدمتها الكنيسة، والعذابات التي كانت تذيقها للشعوب، والمذابح التي كانت تجري وسط التهليل بقتل الكفّار والمهرطقين؛ حيث كان القتل مباحا من كل فئة لأنها تعتبر نفسها معبّرة عن الدين المسيحي الحق، وما عداها من الطوائف كفار، يتوجب القضاء عليهم. كل ذلك رغم أن المسيحية في جوهرها تدعو للصفح والتسامح

[187] ثورة الزنج، موسوعة المعرفة، http://cutt.us/5Ypb

والسلام، إلا أن رجال الدين كانوا ينتقون من النصوص الدينية ما يريدون، ويضعون ما لا يريدون.

البعض يرى أن فقهاء "داعش" ينتقون من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية ما يقيمون عليها بنيانهم الفكري، ويأولونها بما يدعم رؤيتهم، أي أنهم أغفلوا أو تجاهلوا عشرات الآيات الكريمة التي تدعو للرحمة والتسامح والدفع والمجادلة بالتي هي أحسن، واختاروا آية السيف، وحديث الفرقة الناجية، واكتفوا بها، على مبدأ الولاء والبراء (وهذه أسس الفقه الوهابي). وفي المقابل فإن منظري داعش وبقية الجماعات المتشددة يعيبون على ما يسمونهم الإسلاميين الوسطيين انتقائهم لآيات معينة وتجاهل أخرى، وتجاهل سجل حافل من الفتوحات والحروب التي شنتها الدولة الإسلامية قديما. وهذه الانتقائية (الممارَسة من قبل الجميع) إنما تفضح خضوعها للاعتبارات السياسية والمصلحية، وسبل الوصول للسلطة.

ومن أجل فهم المشهد بطريقة موضوعية يقتضي الأمر نقل المعركة إلى داخل الفضاء الإسلامي نفسه، أي إلى داخل النصوص المقدسة ذاتها، واستحضار مقولة الإمام "علي بن أبي طالب" بأن القرآن حمّال أوجه. فإذا كانت الجماعات المتشددة تجد من النصوص ما يدعم أيديولوجيتها، فإن الجماعات المعتدلة ستجد نفسها في مواجهة نفس النصوص التي قد تطال الأسس التي تبني عليها اعتدالها. وفي هذه الحالة لن يختلف معسكرا التطرف والاعتدال في شيء جوهري، فكل منهما يزعم النطق باسم المقدس، وكل منهما يستند في معركته إلى النصوص، فيختلط الديني بالسياسي، والحركي بالفقهي.. إلى

درجة تؤكد أن كل ما يجري إنما هو محاولات للهيمنة على الإسلام، واختطافه، لصالح مشاريع سياسية تتغلف بالإسلام.

ومن ناحية ثانية، فإن فهم الإسلام استنادا إلى النص المكّي، لا يعطي "المعتدلين" إمكانية اختزال الإسلام في الجانب الإيماني المحض فقط، ومن ثم البناء عليه لوحده، أي حصره ضمن المستوى الفردي، لا على المستوى الجمعي والسياسي، لأن ذلك سيجعل منهم إسلاميين علمانيين، لا وسطيين فحسب، كما يوسمون أنفسهم. أما فهمه استنادا للنص المديني فإنه يعطي "المتشددين" إمكانية حصره في الجهاد والفتوحات، وتجاهل الأبعاد والمضامين الروحية للإسلام، وحصره في المستوى السياسي الجمعي.

وهكذا، وبعد أن استعرضنا المواقف المتباينة من داعش، وإذا تجنبنا أسلوب التكفير، وتجاوزنا منهج الانتقاء، لصالح رؤية أكثر شمولا، سنكون مباشرة أمام صور عديدة ومتباينة للإسلام. وحتى لا نقع في شَرَك "الفرقة الناجية" والزعم باحتكار الحقيقة، لن نكون مضطرين لانتقاء أنموذج محدد من بين النماذج المطروحة، سنكون بحاجة ماسة وملحة لتقديم رؤية جديدة عقلانية تلامس واقع المسلمين في العصر الحالي، أي بحاجة لتفسيرات حديثة للإسلام تعترف بأن حركة التاريخ تسير للأمام، وأن العالم متحرك ومتغير على نحو لا يسمح بالتعاطي معه بمفاهيم ونظريات موغلة في القدم، وتجاوزتها الأحداث، أي الاعتراف بمشروعية الخروج عن الفهم النمطي التقليدي لتعاليم الإسلام، وهذا يدعى بفقه "المصالح المرسلة"، وهو فقه توقف منذ قرون. بقول واحد مطلوب تقديم قراءة تاريخية ثورية للإسلام، تفتح باب الاجتهاد على مصراعيه بعقلية منفتحة تؤمن بالتعددية، متصالحة مع الإنسانية، ومنسجمة مع روح العصر.

اليوم، وبعد أن شوهت ممارسات داعش صورة الإسلام، وأساءت للمسلمين في شتى بقاع المعمورة، وجعلت المخيال العالمي يربط بين الإسلام وصور المذابح والدماء والعنف، تكون داعش بصعودها المفاجيء، وممارساتها الفظيعة قد وفرت فرصة مناسبة لتسليط الضوء على هذا العنف والإرهاب الممارَس باسم الله، وفرصة لتعرية كل الأيديولوجيات الإقصائية الدموية التي تتستر خلف عباءة الدين، وهنا لا تكفي حملات التبرؤ من "داعش" وتنزيه الدين الإسلامي من فكر هذا التنظيم وممارساته؛ رغم أهميتها في استعادة كل ما هو أخلاقي وإنساني وروحي وتسامحي في الإسلام، لكن هذا الاستنكار لا قيمة له ما لم تترافق مع تجفيف المستنقعات التي نشأت فيها داعش، أي القيام بعمليات إصلاح ديني حقيقي، وهذا يحتاج طرح أسئلة كبرى، ومراجعة نقدية شجاعة قد تطال الكثير من المسلّمات.

# حقيقة داعش

تعددت الآراء على نحو مربك بشأن حقيقة "داعش"، والجهة التي صنعتها، ودعمتها بالمال والسلاح؛ فريقٌ يقول إن أمريكا هي التي أوجدتها، لحاجتها إلى "فزاعة" تخيف بها دول المنطقة وتبتزهم بها، وتستخدمها ذريعة لاستمرار ما تسميه "مكافحة الإرهاب"، والتي هي في حقيقتها طريقة لحلبِ موارد المنطقة ونهب أموالها.. فريق آخر يقول إن إسرائيل هي التي صنعت "داعش"، وهي التي دربت "أبو بكر البغدادي" (اليهودي المتنكر)، وغايتها في ذلك تدمير جيوش الدول العربية، واستنزاف قدراتها، وجرها إلى حرب طائفية.. فريق آخر يقول إن إيران هي التي خلقت "داعش"، لفرض هيمنتها على العراق وسورية تحت حجة الدفاع عن الشيعة، ودليلهم على ذلك أن إيران هي التي ورثت تنظيم القاعدة، واحتضنت قياداته بعد الغزو الأمريكي، وأن إيران لم تشهد أية تفجيرات أو أعمال إرهابية.. وفريق يقول إن تركيا هي التي أوجدت داعش، بدليل أن جميع مقاتليها أتوا من الأراضي التركية وبتسهيلات من مخابراتها، وأنها تتبادل معها تجارة النفط، وغايتها في ذلك السيطرة على الإقليم ومنع إقامة دولة كردية.. وفريق يتهم حكومة "المالكي" بتسهيل مهمة "داعش"، وتسليمهم الموصل لتمكينهم من إقامة دولتهم، التي ستكون ذريعة لإقامة دولة شيعية في وسط وجنوب العراق.. وفريق يتهم الأكراد بالتواطؤ مع المالكي لإنجاح مشروع "داعش"، كمقدمة ضرورية لتقسيم العراق إلى ثلاث دويلات.. وفريق يقول إن "داعش" تكونت من بقايا نظام "صدام حسين"، وضباط كبار من جيشه، وفلول انشقت عن تنظيم القاعدة وجبهة النصرة أتوا لتخليص الموصل من فساد حكومة المالكي، ولنصرة أخوتهم "السنّة" المهمشين

والمضطهدين في الرمادي.. وفريق يتهم النظام السوري بخلق "داعش"، ويقولون إن النظام أطلق كوادرهم من السجون ودفعهم لمحاربة المعارضة، وتشويه صورة الثورة السورية، وتخويف الأقليات، وحتى يُقال إن النظام أفضل من داعش.. ودليلهم على ذلك أن النظام لم يتصادم مع "داعش"، بل إنه يتقاسم معها الأدوار، ويستعملها كتكتيكات ميدانية، كما حدث مثلا في سقوط وتحرير تدمر، والتي اعتبروها مسرحية.. فريق يقول إن قطر لها يد في إطلاق "داعش"، ظنّاً منها أن هكذا خطر ربما يشجع أمريكا على التدخل.. فريق يقول إن السعودية هي التي أوجدتها، بدعوى أن "داعش" تتبع المذهب الوهابي، وعدد كبير من مقاتليها سعوديون..

ولكن، ألا يمكن أن تكون "داعش" قد تكونت بفعل محلي محض؟ كوليد لنظم الاستبداد، ونتيجة تلاقح جملة من الظروف الذاتية والموضوعية! بمعنى أنهم مجموعة من الناس لديهم فهمهم المتزمت للدين، وأسلوبهم المتشدد والعنيف في تطبيقه، وكل ما في الأمر أنهم اشتغلوا بذكاء، واستفادوا من كل التناقضات الموجودة في المنطقة، وبنوا تحالفات تكتيكية خدمتهم بطريقة ما!

ولكن كيف أمكن لهذا التنظيم أن يصبح فجأة قوة عظمى، لديها القدرة على مجابهة كل جيوش المنطقة؟! والسؤال المتكرر: كيف يستطيع التنظيم التنقل بقطاعاته وآلياته في صحراء مكشوفة ولا يتعرض لأي قصف (حتى من الروس)؟

من المؤكد أن داعش تلقت دعما مباشرا من جهة ما (أو أكثر من جهة)، ثم تُركت لتوليد ديناميتها الخاصة بها بما يخدم الجهات التي أسستها، دون أن يعني ذلك أنها ستظل تابعة لها، فقد تنقلب على مؤسسيها.. ومن المؤكد أيضا أن الدول الفاعلة والمتصارعة خلقت

مناخا من الفوضى، ووظفت نتائجه لمصلحتها، وفي خضم هذه الفوضى خُلقت "داعش"، واشتغلت كل الدول على توظيفها، كلٌ لصالح سياساته وحسب أولوياته. ولكن، كيف أمكن أن تتلاقى هذه الدول المتصارعة والمتنافسة عند نقطة واحدة (أي تشكيل تنظيم داعش) ثم تتظاهر جميعها بأنها تحاربه، حربا لا هوادة فيها!

للوصول إلى الحقيقة نحتاج جهد استقصائي كبير، ومعلومات استخباراتية من مصادر موثوقة، وأغلب الذين تحدثوا عن "داعش"، استندوا إلى توقعات وتكهنات وتحليل لمجريات الأحداث، لذلك جميع وجهات النظر السابقة تحمل قدرا من الصواب.. صحيح أن معرفة حقيقة التنظيم مسألة مهمة، أي معرفة أصوله واتصالاته وهيكله التنظيمي ومصادر تمويله وأسلحته.. لكن هذه تبقى تفاصيل مقابل الجزء الأهم من الحقيقة، وهو مصادر فكرهم المتزمت وأصول أيديولوجيتهم المتشددة، لأن ذلك هو المفتاح الصحيح لمحاربة التنظيم، والقضاء على هذه الظاهرة التي أول ما أضرت، أضرت بالإسلام ذاته..

توضيحا لهذه النقطة، كتب "محمد أبو رمان"، الباحث والمتخصص في الحركات الجهادية، في مقالته على الغد الأردنية: "لم يأتِ تنظيم "داعش" في الفتاوى والأحكام الفقهية التي يتبناها بجديد خارج المدونة الفقهية الإسلامية. ولو عدنا إلى كتاب العمدة المعتمد لدى التنظيم، لمؤلفه أبي عبدالله المهاجر، شيخ أبي مصعب الزرقاوي، كتاب "من فقه الجهاد" (أو "فقه الدماء" كما يطلق عليه)، سنجد أنه من الغلاف إلى الغلاف لا يخرج عن كلام أئمة المذاهب الفقهية والعلماء الكبار في التاريخ الإسلامي، بالرغم من

أن الكتاب يطفح بالدم والتكفير واستباحة المدنيين والأبرياء، والتوسع في فتاوى القتل والذبح".

وبنظرة على بعض المناهج الدراسية لدى كثير من الدول العربية، بما فيها التي تدرس في الأزهر، وبتمحيص في المدونات الفقهية القديمة، سنجد الفكر الوهابي المتزمت حاضرا بكل قوة، وهو الفكر الذي تنهل منه داعش، وتستند إليه في تبرير ممارساتها.. والتي نجد شبيها لها في التراث الإسلامي نفسه.

لذلك، فإن التركيز على قضية "داعش" من الناحية الأمنية، والاجتهاد في تحديد علاقاتها مع أجهزة المخابرات الغربية، والحديث عن مؤامرات، وتكرار مقولة أن داعش لا تمثل الإسلام.. إنما هو التفاف على جوهر الموضوع، وتمويه على الجزء الأخطر منه.. خاصة وأن بعض المفاهيم الدينية، والفتاوى والأحكام الفقهية لدى أوساط عريضة من مجتمعاتنا، أصبحت تميل إلى الجانب المتشدد أكثر فأكثر خلال العقود الأخيرة، والفكر الديني/ السياسي لدى كثير من جماعات الإسلام السياسي لا يتعارض مع الفكر الداعشي، إلا في درجة التشدد والتوقيت والإمكانيات.

قد تنجح الضربات الأمنية بإلحاق أضرار فادحة في صفوف داعش، وقد تؤدي إلى هزيمتها عسكريا وتصفيتها تنظيميا كما حدث تقريبا مع تنظيم القاعدة، ولكن أفكار داعش ونهجها سيظل قائما، وستظل المنطقة تفرّخ الإرهابيين، وتنتج المزيد من الأحزمة الناسفة والمفخخات.. ولا سبيل للقضاء على الفكر الداعشي إلا بثورة فكرية، تجدد الفقه الإسلامي، وتنقيه من كل الشوائب التي علقت به في عصور الانحطاط..

# إدارة التوحش - البرنامج العملي لداعش

صدر عن مركز الدراسات والبحوث الإسلامية (وهو مركز وهمي) كتاب "إدارة التوحش"، دون الإشارة لسنة الإصدار ومكانه، ولكن يفهم من السياق أنه صدر في فترة نشاط القاعدة في أفغانستان قبيل الغزو الأمريكي.. الكتاب مثير وخطير وفي منتهى الصراحة، لدرجة تثير الاستغراب. وهو متوفر على "الإنترنت" بأكثر من 15 ألف رابط. ويقدَّر عدد النسخ المنزلة منه أكثر من 10 ملايين نسخة. يُقال أن القوات الأمريكية هي التي عثرت عليه في أفغانستان سنة 2004.. وقامت "وزارة الدفاع" بترجمته، ونشره على الإنترنت. وهو أمر يثير علامات الاستفهام. المهم أن الكتاب صدر قبيل انشقاق داعش عن تنظيم القاعدة.. وأهمية تحديد سنة إصدار الكتاب تكمن في تتبع الأحداث والعمليات التي نفذتها القاعدة وداعش فيما بعد، والتي جاءت تنفيذاً حرفياً لما جاء فيه.. أي أن داعش أعلنت في هذا الكتاب عن خطتها المستقبلية بشكل واضح وصريح.

المؤلف يدعى "أبو بكر الناجي"، وهو شخصية غامضة، قد يكون اسما مستعارا، وقد يكون الكتاب نتاج جهد جماعي، يقع الكتاب في 113 صفحة، يشرح الفكر الأيديولوجي للتنظيمات الجهادية، ويقدم بالشرح المفصل رؤية "القاعدة" في كيفية إدارة المناطق التي تسيطر عليها، وما تعتبره "واقع الأمة الإسلامية".. ويقدم الدليل الفكري والعملي لنسختها المطورة "داعش"؛ والتي لو تتبعنا عملياتها لوجدناها تطبيقا حرفيا لما جاء في الكتاب؛ لذلك يعتبره الباحثون البرنامج العملي لداعش، الذي يسير بهديه، وينهل منه معتقداته المتشددة.

في الوهلة الأولى، قد يظن القارئ أن "إدارة التوحش" يُقصد بها إدارة الجيوش الغازية (الكافرة) للدول العربية والإسلامية التي احتلتها، مثل أفغانستان والعراق وسورية، نظرا لهول الجرائم التي ارتكبتها هناك.. ولكن المفاجأة أن المقصود بها هو إدارة "الدولة الإسلامية" للمناطق التي تسيطر عليها، وطبعا بطريقة متوحشة.. حيث جاء فيه: "إدارة التوحش هي المرحلة القادمة التي ستمر بها الأمة، وتعد الأخطر، فإذا نجحنا في إدارة هذا التوحش ستكون تلك المرحلة -بإذن الله- هي المعبر لدولة الإسلام المنتظرة منذ سقوط الخلافة، وإذا أخفقنا -والعياذ بالله- لا يعني ذلك انتهاء الأمر؛ ولكن هذا الإخفاق سيؤدي لمزيد من التوحش".

ويفسر المؤلف مصطلح "إدارة التوحش" و"الفوضى المتوحشة"، بقوله: "لماذا أطلقنا عليها "إدارة التوحش"، ولم نطلق عليها "إدارة الفوضى"؟ ذلك لأنها ليست إدارة لشركة تجارية، أو مؤسسة تعمها الفوضى، أو جيران يعانون من الفوضى، ولكنها ستكون في وضع يشبه وضع أفغانستان قبل سيطرة طالبان؛ منطقة تخضع لقانون الغاب بصورته البدائية، يتعطش أهلها لمن يدير هذا التوحش، بل ويقبلون أن يدير هذا التوحش أي تنظيم، أخياراً كانوا أم أشراراً".

ويضيف شارحا: "مناطق التوحش يمكن أن تكون قرية، أو شارعا، أو حيا في مدينة". وهذا ما لمسناه في سوريا والعراق، حيث بدأ نشاط داعش بالسيطرة على شوارع، وأحياء وقرى، ثم اتسعت دائرة نشاطهم بسرعة خاطفة.

ويشير الكتاب إلى أن عملية اختيار المناطق للدخول إلى مرحلة "إدارة التوحش" اعتمدت على دراسات مرتبطة بالأحداث الجارية. فاستبعدت بعض المناطق، على أن

يتم ضمها لاحقا، وأدخلت السعودية ونيجيريا في المرحلة الأولى، ومن ثم أصبحت الدول المرشحة مبدئياً لتدخل في مجموعة المناطق الرئيسية هي: الأردن والمغرب وباكستان واليمن.

يشرح الكتاب معنى "إدارة التوحش"؛ وهو خَلق منطقة لا تخضع لسلطة وقوانين الدولة، لتعم فيها الفوضى والقتل والرعب والتوحش، أو الانتقال إلى مناطق تعرضت للفوضى بسبب حرب أهلية مثلا، وإدارتها بمنطق "إدارة التوحش"، حيث يضطر الناس لقبول حكم هذا التنظيم (بإدارته المتوحشة) بإعتبارها البديل الوحيد للفوضى والخراب.

وحسب هذه النظرية؛ فإن عناصر الأمن والجيش الكفؤة والمدربة سيتم توفيرها بالدرجة الأولى لحماية كبار الشخصيات، والمرافق الحكومية والاقتصادية، والبعثات الأجنبية والسفارات والمطارات.. ما يخلق جيوبا أمنية رخوة في مناطق معينة، يتسلل إليها التنظيم، ويحكم سيطرته عليها (مناطق إدارة التوحش)، وهذه المناطق قد تكون حياً في مدينة، أو قرى صغيرة.. لكنها ستكون منصة انطلاق للتمدد إلى مناطق أخرى أوسع وأهم.. حيث يؤدى هذا الوضع، إلى المزيد من التدهور، مُسبباً المزيد من الانسحابات لقوات النظام، وهو ما يترتب عليه مزيدا من التوحش، وهكذا. تماما كما حدث في العراق وسورية؛ حيث بدأ تنظيم داعش في الفلوجة والرمادي.. ثم امتدت رقعته من الموصل إلى الرقة.

يصف المؤلف المراحل الثلاث التي يتبعها تنظيم داعش للوصول لأهدافه العليا؛ وهي مرحلة شوكة النكاية والإنهاك، ثم مرحلة إدارة التوحش، وأخيرا مرحلة شوكة التمكين، وهي مرحلة قيام الدولة.

"في مرحلة النكاية والإنهاك يكون التركيز على أهداف بعيدة، في الأطراف، أو في المناطق الشعبية التي لا توجد فيها قوات عسكرية، أو يكون وجودها بأعداد قليلة وبقيادة ضعيفة، وذلك لأن الدولة تضع الأكفاء لحماية الأهداف الاقتصادية، ولحماية الرؤساء والملوك، وبالتالي تكون هذه القوات سهلة المهاجمة والحصول على ما في أيديها من سلاح، وستشاهد الجماهير كيف يفر الجند لا يلوون على شيء، ومن هنا يبدأ التوحش والفوضى، وتبدأ هذه المناطق تعاني من عدم الأمان".

أي أن هدف هذه المرحلة هو "إنهاك قوات العدو والأنظمة العميلة لها، وتشتيت جهودها، ومنعها من التقاط أنفاسها بعمليات وإن كانت صغيرة الحجم، إلا أن انتشارها وتصاعدها سيكون له تأثير على المدى البعيد".

أما مرحلة إدارة التوحش فتقوم على "إظهار الشدة المفرطة إزاء الأعداء؛ بالذبح، وقتل المئات، والرجم، والرمي من مرتفعات شاهقة، والحرق، والإذابة بالحوامض.. وتصوير هذه العمليات بمهارة فنية، وبثها على أوسع الطرق، وإظهار مشاهد الأشلاء والدماء والرؤوس المقطوعة".. والهدف حسب المؤلف، هو أن "يفكر العدو ألف مرة قبل أن يهاجمنا"، أو لتسهيل احتلال المناطق من خلال بث الرعب والخوف في نفوس الأهالي، وكل ذلك في إطار الحرب النفسية.

ولتطبيق هذه النظرية، يضع المؤلف خطتين: الأولى، "تنويع وتوسيع ضربات النكاية في العدو الصليبي في كل بقاع العالم، بحيث يحدث تشتيت لجهود حلف العدو، ومن ثم استنزافه، فمثلاً: إذا ضُرب منتجع سياحي في إندونيسيا، سيتم تأمين جميع المنتجعات السياحية في جميع دول العالم، وبالتالي شغل قوات إضافية وزيادة كبيرة في الإنفاق، وإذا ضُرب بنك ربوي في تركيا سيتم تأمين جميع البنوك في جميع البلاد ويزداد الاستنزاف، وإذا ضُربت مصلحة بترولية في عدن ستوجه الحراسات المكثفة إلى كل شركات البترول وناقلاتها وخطوط أنابيبها لحمايتها وزيادة الاستنزاف، وإذا تم تصفية اثنين من الكتّاب المرتدِّين في عملية متزامنة ببلدين مختلفين فسيستوجب ذلك عليهم تأمين آلاف الكتّاب في مختلف بلدان العالم.. وهكذا تنويع وتوسيع لدائرة الأهداف التي تنفذها مجموعات صغيرة ومنفصلة، مع تكرار نوع الهدف".

أي أنه وفقا للبرنامج العملي لإستراتيجية داعش؛ يقوم التنظيم بدراسة الدول التي يوجد فيها مناطق رخوة، أو يُمكن إنشاء مناطق رخوة متوحشة فيها، ثم يبدأ بضرب الدولة في أماكن مُعينة عديدة، وإن كانت ليست ضربات قوية ولكن استمرارها يمنع الدولة من التقاط أنفاسها، فمثلاً، ضرب كنيسة يجعل الدولة تصرف جهودها لحماية بقية الكنائس، أَي إجبارها على إنفاق مزيد من الجهود والأموال، ثم إختيار يوم لضرب البنوك، فتقوم الدولة بتأمين حراسات للبنوك الأخرى، وهكذا تخصص يوم لضرب الجوامع، ويوم للجسور، ويوم للمرافق السياحية، إلى أن يتم استنزاف الدولة. والخطير أن هذه الهجمات تحتاج مجموعات صغيرة، أو أفراد، ما يصعّب المهمة على أجهزة الأمن. وحسب الكتاب، فإن مجموع نتائج تلك الأعمال الصغيرة سيؤدي للإنتصار الكبير،

حيث تُنهك الدولة تدريجياً إقتصاديا وسياسيا وأمنيا.. يُساند هذه العمليات حرب إعلامية تُزعزع ثقة الدولة بنفسها وثقة شعبها بها، وترفع من معنويات أفراد التنظيم وتجعله يكسب عناصر جديدة، وخاصة من فئة الشباب..

والخطة الثانية، التي يقترحها المؤلف تتمثل في تشتيت قوى الأنظمة الحاكمة في العالم العربي، بإجبارها على توزيع قوى الأمن لديها بحيث تصبح أولوياتها حماية الشخصيات للعائلات المالكة والأجهزة الرئاسية، ثم حماية الأجانب، ثم تأمين المرافق الاقتصادية، والسياحية.

بعد سيطرة التنظيم على "مناطق التوحش"، يأتي دوره لترويض هذه "الفوضى المتوحشة"، أي مرحلة إدارة التوحش، من خلال إدارة هذه المناطق لتحقيق عدة أمور، أهمها: فرض الأمن الداخلي، وتأمين منطقة التوحش من غارات "الأعداء"، وإقامة "القضاء الشرعي" في مناطق سيطرتها، ورفع المستوى الإيماني والكفاءة القتالية لشباب مناطق التوحش، وإنشاء المجتمع المقاتل بكل فئاته وأفراده عن طريق التدريب الميداني..

السعودية والأردن ومصر ما تزال حسب رؤية داعش في مرحلة شوكة الإنهاك، أي مرحلة إشغال الدولة وإنهاكها، ولو تتبعنا مجريات الأحداث في تلك الدول، والعمليات الإرهابية التي تعرضت إليها سنجد تطبيقا حرفيا لخطة داعش في إدارة التوحش.. في الأردن مثلا، استهدفت العمليات الإرهابية فنادق ومرافق سياحية ومراكز أمنية في عمان وإربد والكرك ومخيم البقعة والركبان وغيرها، أي في الشمال والجنوب والوسط، بهدف تشتيت جهود الدولة.. قد ينظر البعض لتلك العمليات على

أنها صغيرة، ولا تشكل تهديدا جديا للأردن، وهذا صحيح، لكنها عمليات تأتي في سياق إستراتيجية طويلة الأمد يتبعها داعش، تعتمد على مراكمة الإنجازات الصغيرة، وصولا للهدف الأكبر.

وقد كشفت أحداث قلعة الكرك والفتوى الأخيرة بتكفير المجتمع الأردني التغيير الذي طرأ على العقيدة القتالية لداعش بانتقالها من حالة استهداف الجيش والأجهزة الأمنية إلى استهداف المدنيين، فوفقاً لنظرية "إدارة التوحش" فإن الأردن يعتبر ولاية في دولة الخلافة، وعليه فإن هدم منظومته الأمنية والسياسية والاجتماعية هدف قائم بحد ذاته، لإثارة الفوضى وإشغال القوات الأمنية وصولا لانفراط العقد الاجتماعي كما حصل في سوريا والعراق، تمهيدا لمرحلة تفكك وإنهيار الدولة، وإنشاء حالة التوحش التي تسمح للتنظيم بالتمدد فيها. ومع أن داعش لا تميز بين عسكري ومدني، بيد أن فتواها الأخيرة تعني بوضوح الانتقال من مرحلة تكفير الأجهزة الأمنية والجيش والنظام إلى مرحلة تكفير المجتمع الأردني ككل.

في مصر، تمكنت التنظيمات المتشددة من خلق مناطق هشة أمنيا، وتحويلها إلى منطقة "إدارة التوحش"، بالذات في سيناء، ولأنها لم تصل إلى المرحلة الثانية (السيطرة الكاملة على المنطقة)، فهي تلجأ إلى أسلوب استنزاف الدولة المصرية (المرحلة الأولى)، من خلال عمليات إرهابية متنوعة من حيث الأهداف والوسائل والأماكن، تارة تضرب كنيسة في القاهرة، ثم تضرب أنبوب الغاز في سيناء، أو تهاجم مركزا أمنيا في الصعيد، أو تضرب أهدافا على حدود ليبيا، ثم تعود لضرب أهداف في المدن الكبرى.. وهكذا، حتى تظل الدولة في حالة إنهاك دائمة، فتُستنزف قدراتها، وتتشتت جهودها، وتشغل

قواتها في أماكن متفرقة.. إلى أن يصل التنظيم لمرحلة "إدارة التوحش" في أكثر منطقة رخوة أمنيا، وهي سيناء.. ولها في ذلك إلى جانب أهدافها الأساسية، أهدافا سياسية أخرى تتعلق بمنع مصر من استعادة مكانتها ودورها على الصعيدين الإقليمي والدولي، ومنعها من تحقيق الأمن الداخلي اللازم لأي عملية تنمية أو تطوير، فضلا عن كون سيناء مرشحة لسلخها عن مصر، وتقديم جزء منها كوطن بديل للفلسطينيين..

يقدم كتاب إدارة التوحش شرحا وافيا للأسس الأيديولوجية للتنظيمات الجهادية، ويمثل نقلة نوعية في الخطاب السلفي المتشدد، والذي يمثله تنظيم داعش، ويكشف عن الجانب المهم في انشقاق داعش عن القاعدة، وهو تغيير أولوياتها؛ حيث باتت أولوية داعش العدو القريب (الحكومات وأجهزتها الأمنية، المرتدين، الشيعة، الأقليات، والسُنّة المعارضين)، في حين كانت أولوية القاعدة هي العدو البعيد (أمريكا والدول الصليبية)، فلذلك نجد أن القاعدة ضربت أمريكا أولا، بينما اعتبرت داعش أن إقامة دولة الخلافة أهم من محاربة أمريكا والصليبيين.

الكتاب خطير، لأنه بمثابة "دستور الدولة الإسلامية المستقبلية" كما هو الحال في دولة داعش، ولأنه نموذج للخطاب الإسلامي الجهادي المتطور بكل معانيه الفكرية، والعسكرية والسياسية؛ الذي يعتمد على الحركة أكثر من الفكر، وعلى الفعل العسكري أكثر من الفعل السياسي، وعلى المستقبل أكثر من الماضي. ويثير الكتاب التساؤلات أكثر مما يقدم إجابات، أهمها: هل هذا الخطاب الذي تتبناه السلفية الجهادية يمثل فكراً إسلامياً أصيلاً؟ أم أنه فكر دخيل؟

في النهاية لا يرى المؤلف إمكانية البقاء للدولة الإسلامية؛ فهي في نظره لا تستطيع تحقيق شعارها "باقية وتتمدد"، ولكنه يرى أن إزالتها لا تعني تحقيق الأمن والسلام. ويتساءل إلى أين سيذهب آلاف المجاهدين؟ وماذا سنفعل بهم؟ فإذا كان مع "بن لادن" في "تورا بورا" حوالي ألف مجاهد؛ فإن للبغدادي عشرات الألوف، والقاعدة تقول إن كل "مجاهد" ينتج مِئة في عشر سنين. فهل هذا يعني أن الموجة القادمة سيكون فيها ملايين الجهاديين!

# تقييم وحصاد أولي لجماعات الإسلام السياسي

في الزمن القريب، وتحديداً قبل صعود حركات الإسلام السياسي، كان الناس أكثر تدينا، وأصدق، وقلوبهم أنظف، وأقرب إلى الله.. كانوا متدينين بالفطرة السليمة، التي لا تعرف التعصب والكراهية، وقد فهموا الإسلام بمعزل عن الطائفية والأيديولوجية والعمل الحزبي، وأخذوا منه الروح السمحة والسمات الحضارية المنفتحة، وعاشوا أبعاده الإيمانية وقسماته الروحية. كانت الجماهير واعية ولا تحتاج إلى من يرشدها إلى طريق الحق، كانت صالحة ونقية من تلقاء نفسها، وأكثر تسامحاً وانفتاحاً على الغير، متعايشة فيما بينها على المحبة والإخاء، ولم تعرف صراع الأديان والطوائف؛ كان المسلم يبرُّ جارَه المسيحي، والسنّي يصاهر الشيعي، والمتدين يصادق العلماني، ولم يكن أحد (تقريبا) يدعي احتكار الحقيقة، وأنه الوصي على البشر، وظِلّ الله في أرضه.. كان الفن والثقافة حاضرين بقوة، وذائقة الناس أرفع وأكثر إنسانية، وحرياتها الشخصية أوسع رحابة، وسلوكها أكثر احتراما، كما كانت الحركات الاجتماعية والسياسية تناضل للتعبير عن نفسها، وانتزاع حقوقها دون أي تعارض بين ما هو ديني وما هو وطني.

وفي مجال الكفاح التحرري، كان التدين والوطنية صنوان؛ وقد تمكّن القادة الوطنيون أمثال الحاج "أمين الحسيني"، و"عز الدين القسام"، و"عبد القادر الحسيني"، ومن قبلهم الأمير "عبد القادر الجزائري"، و"عبد الكريم الخطابي" و"عمر المختار" وغيرهم، تمكّنوا من الجمع بين المعاني الروحية والوطنية في آن معاً، فدمجوا في شخصياتهم بين القيادتين السياسية والدينية، وجعلوا من الخطاب الديني (غير الحزبي وغير المؤدلج) عنصرا مكملا وداعما للخطاب الوطني القومي، دون أن يطغى عليه،

ووظفوا العاطفة الدينية للتعبئة الوطنية والنفير العام، دون أن يستغلوا الدين لأغراض السلطة والسياسة.

بالتأكيد لم تكن الصورة على هذه الدرجة من المثالية؛ فقد كانت تبرز الكثير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية، كما شهدت تلك الحقبة الكثير من النكسات والهزائم.. إلا أنه ورغم وذلك كانت الأمور أفضل، وكان بوسع المجتمعات العربية أن تتقدم للأحسن.. وأن تتحرر من تخلفها، وأن تشق طريقها نحو المستقبل.. ولكنها بدلا من ذلك، نكصت وتراجعت للوراء.

وإزاء هذا الإخفاق، تقدمت حركات الإسلام السياسي لتملأ الفراغ، ولتجيب على الأسئلة التي عجزت عنها الأنظمة القومية والأحزاب اليسارية. وعلى مدى العقود التالية خاضت تلك الجماعات صراعا مريرا مع الأنظمة، وتمكنت من فرض حضورها، ومن التوسع والانتشار، بل ومن استلام السلطة في أكثر من منطقة. ولكن النتائج التي جاءت بعد ذلك كانت مخيبة للآمال؛ بل أن الأمور ازدادت سوءاً!

اليوم، يكون قد مضى قرابة التسعة عقود على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين (أولى الحركات الإسلامية وأكبرها، تأسست عام 1928)، أما الجماعات الأخرى (وأكثرها انبثقت عنها)، فقد مضى على أقدمها نحو ستة عقود، وهي الآن تزيد عن الثلاثين حزبا وحركة، إضافة إلى عشرات الجماعات الصغيرة والمسلحة.. فما الذي أنجزته تلك الجماعات؟ وهل نجحت في حل المشكلات التي وعدت بحلها؟ أم أنها نجحت فقط في إثبات وجودها، والانتصار لأيديولوجياتها؟ وكيف نفسر تكاثر حركات الإسلام السياسي على هذا النحو، لدرجة أنه صار يصعب التمييز بينها، فإضافة للأحزاب

الإسلامية القديمة (الإخوان، حزب التحرير، جبهة الإنقاذ الإسلامية، حزب النهضة التونسي..) برز في العقد الماضي عشرات التنظيمات، مثلا: الجماعة الإسلامية، الجماعة السلفية، حركة التوحيد، عصبة النور، الأنصار، جند الشام، فتح الإسلام، فتح الشام، جماعة الضنية، كتائب أكناف بيت المقدس، العهدة العمرية، جبهة النصرة، حركة أحرار الشام، لواء الأمة الواحدة، لواء الإسلام، لواء شام الرسول، كتائب شباب الهدى، كتائب عز الدين زنكي، الرابطة الإسلامية، سيوف الحق، وسيوف الإسلام، وأنصار جند الله، وحزب الله الفلسطيني، وجيش الإسلام، داعش...!! وهذه كلها حركات سنية، يُضاف إليها الحركات الشيعية مثل حزل الله اللبناني، وحزب الله العراقي، عصائب أهل الحق، كتائب أبي الفضل العباس، الحشد الشعبي..

لا يخفى على أحد أنه منذ عقود عديدة، وأحوال المنطقة العربية تتقهقر، وتهوي إلى قاع لا يبدو له قرار. صحيح أن الجميع يتحمل مسؤولية ذلك؛ الأحزاب العلمانية التي أخفقت، الأنظمة المستبدة، والنخب الفاسدة، سلبية الجماهير، لكن رغم الفشل، وحتى بوجود كل ذلك القهر والفساد؛ إلا أن الأوضاع كانت قبل الصعود الثاني للإسلام السياسي في سياق ما سمي بالربيع العربي، كانت ولو بشكل نسبي أفضل، فعلى الأقل كان هناك دولة، ونظام، ومجتمع... اليوم انفرط العقد، وخسر المواطن كل شيء حتى أمنه الشخصي وكرامته. ولا نحتاج أي جهد لشرح مدى الانحطاط والتخلف والفوضى التي وصلت إليه المجتمعات العربية والإسلامية، فتكفي نشرة أخبار واحدة لنسمع ونرى ما لم يخطر على بال الشيطان، من أعمال القتل والتخريب، والتفجيرات الانتحارية، وحز الرقاب، وحلقات التعذيب والجلد والرجم، خاصة في المناطق التي

ابتليت بالجماعات "الجهادية"، أو التي يسيطر عليها "الشبيحة" وأعوان النظم الاستبدادية..

وحتى لا نقع في فخ التعميم، يمكن القول أن جماعات الإسلام السياسي ليست كلها على شاكلة واحدة؛ فكما أسلفنا، هناك جماعات توصف بالمعتدلة والعقلانية والمنفتحة، وهناك الجماعات المتزمتة والمتشددة، والتي تسمي نفسها "السلفية الجهادية"، وأبرزها تنظيم القاعدة، جبهة النصرة، داعش، وغيرها العشرات من "عسكر طيبة" شرقا، وحتى "بوكو حرام" غربا.

في كل منطقة تنهار فيها الدولة (بعد أن ينخرها الفساد)، تظهر تلك الجماعات على الفور، لتعيث في الأرض فسادا، ناشرةً الفوضى والتخريب، وبأشد أساليب البطش والعنف؛ في أفغانستان، منطقة القبائل على الحدود الباكستانية، الصومال، العراق، سورية، مالي، ليبيا، اليمن... وأيضا في مناطق الاضطرابات وذات التنوع الإثني، وفي جيوب الفقر والعشوائيات وعلى هوامش الحواضر والمدن المكتظة بأزماتها... وبحجة تطبيق الشريعة، تبدأ بمحاربة كل القيم المدنية والحضارية، والتعدي على كل أشكال الجمال، وتخريب أي شيء يحمل مضمونا إنسانيا، وهدم المعالم الأثرية والمعمارية، وارتكاب المجازر والجرائم.. وقد أضافت "داعش" السبي والغنائم وإعادة زمن الرق.. كل ذلك باسم الله، والله منها براء..

وقد بات واضحا أن العديد من تلك الجماعات الإرهابية ما هي إلا أداة تُستخدَم لتقسيم المنطقة طائفيا وإثنيا، ورسم سايكس بيكو جديد.. فليس غريبا أنها تتنقل من منطقة لأخرى بكل سهولة، بأفرادها وأسلحتها وعتادها، وليس غريبا أنها صارت من

القوة بحيث تناطح أقوى الجيوش، وتحتل المدن.. فكل التسهيلات مقدمة لها؛ طالما أنها لا تقترب من إسرائيل.

ولكن، إذا كان تنظيم القاعدة وغيره من التنظيمات التكفيرية المتطرفة التي تسمي نفسها تنظيمات جهادية صنيعة المخابرات الأمريكية، أوجدتها لأغراض محددة، وما زالت تتحكم في عملياتها وتسيرها وفق سياسة أمريكية لا تحيد عنها أبدا؛ فإن الأمر ليس بهذه البساطة، بل هو في غاية التعقيد، حيث أن الأفكار المتطرفة التي يتبناها التنظيم لا تقل خطورة عن ممارسته، لأنها هي التي أوجدتها؛ وعلينا قبل إدانة العنف الذي تمارسه تلك التنظيمات أن ندين أيديولوجياتها القائمة على التعصب والكراهية، سيما وأنها تنسبها للإسلام.

ثمة ملاحظة أخرى ينبغي الإشارة إليها، خاصة بالأحزاب السياسية الإسلامية الموصوفة بالاعتدال، والتي تعمل في مجال السياسة، وتتعلق بآليات عملها ومرونة تفكيرها؛ إلا وهي ظاهرة توطين الأحزاب الإسلامية؛ أي تحولها إلى أحزاب محلية شيئا فشيئا.

قبل ما سمي بثورات الربيع العربي بمدة طويلة، كانت الحركات الإسلامية تحثُّ الخطى نحو تحولها إلى أحزاب وطنية محلية؛ مبتعدةً بذلك ولو قليلا عن خطابها التقليدي، دون أن تتخلى عن شعاراتها الأممية والعقائدية، ومع مرور الوقت أخذت الفجوة تتسع بين تلك الشعارات وبين الممارسات الفعلية؛ فمهما كانت صياغاتها النظرية بليغة ومحكمة، وسواء كانت تلك الأحزاب في المعارضة أم في الحكم، فإنها ستُصدم مع الحقائق المادية على أرض الواقع (الجماهير واحتياجاتها، السياسة الدولية ومقتضياتها، الحكم

ومتطلباته، الاقتصاد، التنمية... إلخ)، وستجد نفسها مضطرة للتعامل معها بمنطلقات وأدوات مادية واقعية.

جماعة الإخوان المسلمين في الأردن مثلاً تحولت إلى "جبهة العمل الإسلامي"، وصارت تمارس السياسة كأي حزب أردني آخر. في فلسطين نمت الفكرة الوطنية والاعتراف بالخصوصية الفلسطينية لدى الإخوان المسلمين تدريجيا، وتُرجمت بتأسيس "حماس"، في لبنان كان واضحا أن "حزب الله" ظل منشغلا في القضايا الداخلية وفي أدق تفصيلاتها، حتى أن مبرر حمله للسلاح - كما كان يصرح - هو تحرير "مزارع شبعا" اللبنانية.

بعد الربيع العربي، وبعد أن وُضِعت على المحك، قدمت جماعة الإخوان المسلمين في مصر التي فازت في الانتخابات، أولى التنازلات بتعهدها احترام الاتفاقيات الدولية، وبشكل خاص اتفاقيات كامب ديفيد، ثم أعادت إفتتاح سفارة مصر في تل أبيب، ثم بعثت برسائل تطمين للغرب تؤكد سعيها لبناء دولة القانون، وترسيخ المجتمع المدني، وتمسكها بالديمقراطية، وبالشرعية الدولية، بصرف النظر عن مدى صدقية نواياها. الكاتب "عبد القادر أنيس"، أشار في مقالته على "الحوار المتمدن" إلى أن هذه الأحزاب وعلى ما يبدو أيقنت أن المواجهة مع الغرب لن تكون أيديولوجية، أو بلاغية، بل ستكون سياسية، اقتصادية ودبلوماسية، وأنَّ بعضها اختار المصالحة مع الغرب بدلا من التصادم معه. كما حصل في مصر وتونس، وكما صرحت جماعة الإخوان المسلمين في سورية، حين تعهدت بالمشاركة في دولة مدنية ديمقراطية بعد الإطاحة بالنظام، وأنها لا تنوي تأسيس دولة إسلامية.

على المستوى الداخلي، أشار "أنيس" إلى أن هذه الأحزاب أدركت أنها لن تكون إزاء جدل فقهي نظري، يخضع لمبدأ الحجية ويعتمد على فصاحة اللغة، بل إزاء الواقعي والحيوي والمتحرك، والذي لا يرحم. وأن الاهتمام لا بد أن ينصب على مسائل محلية مثل البطالة، ظروف المعيشة للمواطنين، نسب التضخم، أرقام التنمية البشرية، جلب الاستثمارات الأجنبية، حتى لو كانت متيقنة من عجز برامجها وشعاراتها على مواجهة هذا الواقع؛ إلا أنها لا تجد مناصا من طمأنه شعوبها ببعض الشعارات "العصرية".

باستثناء بعض القيادات التقليدية التي لم تستوعب الدرس جيدا، وما زالت توزع الفتاوى بكل الاتجاهات، كما لو أنها خارج العصر، سنجد أن معظم أحزاب الإسلام السياسي العربية أرادت أن تستلهم تجربة حزب العدالة والتنمية التركي بزعامة "أردوغان"؛ خاصة بعد النجاح الواضح الذي حققه في بلده؛ في مصر، أطلق الإخوان المسلمون على حزبهم اسم حزب العدالة والحرية، في المغرب حزب العدالة والتنمية، وفي ليبيا حزب التنمية والإصلاح. كما لو أن غياب كلمة "إسلامي" من تسمية الأحزاب واستبدالها بمصطلحات عصرية مثل التنمية والعدالة، ليس مجرد صدفة بحتة، بل هو من ضرورات العصر، وتعبيرا عن رغبة في تغيير الواجهة، ودليلا على تراجع الأيديولوجي النظري لصالح الوطني العملي. حتى أن جماعة الإخوان المسلمين في الأردن وفي أثناء الحملة الانتخابية للبرلمان (أكتوبر 2016)، لم تطرح شعارها التقليدي "الإسلام هو الحل"، واستبدلته بشعارات أكثر عملية..

بعض هذه الأحزاب غيرت تحالفاتها وخطابها متناسيةً فتاواها وتصريحاتها السابقة بشأنها، ولعل تحالف "حماس" مع النظام السوري، قبل الأزمة السورية وفي بداياتها، هو

ترجمة لهذه التحولات، حيث لم يمنع خلاف النظام البعثي مع الإخوان المسلمين في سوريا، ووجود قانون يقضي بإعدام أي عضو من الإخوان استمرار هذا التحالف، وأيضا تصريح "خالد مشعل" بأنه يقبل بدولة فلسطينية على أراض 67، ثم تأكيد ذلك في وثيقة حماس الأخيرة (أيار 2017)، وهذا بحد ذاته شكل من العلمانية السياسية، والبرغماتية الوطنية. وأيضا ما حصل في العراق، بعد سقوط نظام "صدام حسين"، حيث انحرط الإخوان المسلمين في النظام الجديد (طارق الهاشمي كان نائبا للرئيس)، تماما كما فعلت الأحزاب الإسلامية "الشيعية"، التي هيمنت على النظام.

وفي دراسة لي، نُشرت في كتاب "منصات الميديا الجديدة والعنف المقدس" (مركز المسبار)، تابعت عشر صفحات للإخوان المسلمين على موقع "فيسبوك"، تصدرها الجماعة في أكثر من بلد عربي، تبين لي أن القضية المركزية لجميع المواقع الإخوانية كانت اعتقال الرئيس السابق "مرسي"، وعدا ذلك، كان ينصبُّ تركيز كل موقع بدرجة كبيرة على القضايا المحلية لذلك البلد، لدرجة أني لاحظت غياب القضايا الكلية التي تخص برنامج الإخوان العالمي، بما في ذلك القضية الفلسطينية.

ربما يكون اهتمام أي حزب إسلامي بالشؤون الداخلية للقُطر الذي يقيم فيه مسألة طبيعية ومشروعة، بل وحتمية، وضرورية، وهذا يكشف وهن وزيف الشعارات الأيديولوجية التي يرفعها ذلك الحزب، خاصة حين يتشابه طرحه مع الأحزاب الأخرى (العلمانية أو القومية وغيرها) في معالجة القضايا اليومية وهموم البلد، أو حين يكون جوهر ومضمون برنامجه سياسي وبرغماتي وواقعي لا يختلف عن غيره، وكل ما في الأمر أنه أضاف كلمة إسلامي، أو أنه خلط الشؤون الدينية بالسياسية. ومن الجدير

بالذكر، أن بعض الأحزاب الإسلامية (مثل حزب التحرير) ما زالت ترفض الإعتراف بأي خصوصية وطنية، أو بأية حدود سياسية، وهذا موضوع آخر.

وهذه التحولات حملت معها أيضا معانٍ سياسية، لها علاقة بخدمة بعض هذه الأحزاب لتوجهات خارجية، ولتنفيذ مشاريع أكبر وأخطر، وبترتيب الخارطة السياسية للإقليم لصالح قوى خارجية. ولتبديد الالتباس، وإزالة التناقض الظاهر بين البعد "الدولي العالمي" لمشروع الإسلام السياسي العابر للقارات والحدود، وبين البعد "الوطني المحلي" للجماعات الإسلامية الساعية للسلطة، لا بد من التأكيد على أن الانخراط في الهم الوطني لأي حزب إسلامي لا يعني تخليه عن تحالفاته مع غيره من الأحزاب لتحقيق المشروع العالمي الذي يصنّف العالم إلى فسطاطين (فسطاط الحق وفسطاط الباطل)، على الأقل على المستوى النظري، وهذا يكشف عن وهن هذا الطرح وتهافته أمام حقائق العصر، ويؤكد على أن من يتحمل تبعات هذا المشروع (العالمي) ومن يدفع أثمانه هم الشعوب المغلوب على أمرها، والأحزاب الإسلامية الصغيرة، والقيادات المغامرة، الذين تم تضليلهم من قبل من هم أعلى منهم شأنا ومرتبة. أي أولئك الذين لا يتورعون عن توريط غيرهم في حروب صغيرة – لكنها مدمرة – لا مصلحة لهم فيها.

وأخيرا، تجدر الإشارة للتحول الدراماتيكي الذي أصاب حزب النهضة التونسي، والذي تمثل في الإعلان عن نفسه ليس من ضمن الإسلام السياسي؛ ففي حوار نشرته جريدة "اللوموند" الفرنسية (أيار 2016)، أعلن "راشد الغنوشي" مؤسس حركة النهضة الإسلامية التونسية أن حركته "ستخرج من الإسلام السياسي، وستتحول إلى حزب مدني، يفصل الدعوي عن السياسي". وفي لقائه أكد "الغنوشي" بأن "حركة

النهضة حزب سياسي، ديمقراطي مدني، له مرجعية قيم حضارية مُسْلمة وحداثية". وأضاف: "نخرج من الإسلام السياسي لندخل في الديمقراطية المُسْلمة. نحن مسلمون ديمقراطيون، ولا نعرّف أنفسنا بأننا جزء من الإسلام السياسي. ونتجه للتحول نحو حزب يختص في الأنشطة السياسية، بحيث يكون النشاط الديني مستقلا تماما عن النشاط السياسي". مضيفاً: "هذا أمر جيد للسياسيين؛ لأنهم لن يكونوا مستقبلا متهمين بتوظيف الدين لغايات سياسية. وهو جيد أيضا للدين حتى لا يكون رهين السياسة وموظفا من قبل السياسيين". وقال أيضا: "إن مفهوم الإسلام السياسي شوهته القاعدة وداعش". وفي رسالة وجهها للإخوان، قال: "طريقكم خاطئ وجلَبَ الويلات للمنطقة".[188]

بشكل عام، يمكن القول أن لحركات الإسلام السياسي موقفين متناقضين من قيم الديمقراطية والمدنية؛ الأول يرفض نظم الديمقراطية والعلمانية والدولة المدنية وكل ما ينشأ عنها من انتخابات ودساتير رفضا مبدئيا قاطعا، ويعتبرها بضاعة غربية كافرة، لا يجوز التعامل بها. وهذا الموقف يتبناه حزب التحرير، وتقريبا جميع الحركات "الجهادية" المنبثقة عن القاعدة، خاصة جبهة النصرة وداعش وعشرات التنظيمات التي ظهرت مؤخرا في سوريا والعراق..

الموقف الثاني يقبل بالديمقراطية والدولة المدنية وما ينشأ عنهما من أنظمة وأحكام. ويتبناه بشكل أساسي جماعة الإخوان المسلمين، والأحزاب المنبثقة عنها. مثلا أعلن "زكي بني إرشيد" القيادي الإخواني الأردني أنه يؤيد الدولة المدنية، بينما عبر الشيخ "همام سعيد" عن رفضه للدولة المدنية، متمسكا بأن منهج الدولة الوحيد هو الشريعة

[188] راشد الغنوشي، الصفحة الرسمية، وفيها نص المقابلة، 21-5-2016. http://cutt.us/B7ZWf

الإسلامية، ومعتبرا ان دعوات الدولة المدنية غربية وليست من الإسلام في شيء .[189]وقد سبق للجماعة أن شاركت في الانتخابات البرلمانية (والرئاسية) في عديد من الدول، بدءأ من الشيخ البنا نفسه، حتى أن الحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر (جناح الشيخ إبراهيم صرصور) شاركت في انتخابات الكنيست ذاتها.. كما شاركت حماس في انتخابات السلطة تحت مظلة أوسلو..

البعض يتهم الحركات الإسلامية بالمراوغة وعدم الصدق بشأن الديمقراطية والانتخابات، وأنها تستخدمها لمرة واحدة فقط، وبعد وصولها للسلطة تمتنع عنها كليا، وتصبح في نظرها من الموبقات.. أي أن موافقتها عليها هي فقط للاستهلاك الإعلامي، ولتجنب ردود الفعل الدولية، أو لتسويق نفسها في منظومة الشرعية الدولية، ولمحاولة الإندماج في النظام العالمي... بيد أن حركة النهضة أثبتت العكس، فقد تخلت عن السلطة طواعية في تونس، بعد أن استلمتها بالانتخابات، وكانت قد أقامت شراكة في الحكم مع بقية الأحزاب الوطنية التونسية، ثم تعاملت مع نتائج الانتخابات الأخيرة بروح ديمقراطية حقيقية.. وربما كان موقفها العقلاني والمرن والمسؤول هو الذي جنَّب تونس ويلات الدمار والحرب الأهلية، كما حدث في جارتها ليبيا مثلا، وبقية بلدان الربيع العربي التي افتتحت تونس ثوراتها في العام 2011.

محللين تونسيين (منهم خولة العشي مثلا) رأوا أن توجهات "الغنوشي" كانت لغايات سياسية وانتخابية ودعائية، دافعها تأكيد تخلّص الحزب من عُقدة شبهة التوجه الديني

[189] الدولة المدنية" تشق بيت الأخوان المسلمين من الداخل، صحيفة أخبار البلد، -http://www.albaladnews.net/more 162184-1

المنغلق، وإظهار مسلك الإعتدال والإنفتاح والتسامح، بهدف طمأنة الرأي العام، المحلي والدولي، وأنها أتت تحت ضغط موجة الإحتجاجات الشعبية.

البعض ربط تحولات "الغنوشي" بما حدث في مصر، وخشيته من نقل موجة المظاهرات لتونس، وتكرار تدخل الجيش لجانب الحراك الشعبي، فتخلي عن الحكم لصالح حكومة التكنوقراط، متجنبا بذلك تصاعد موجة الإحتجاجات الشعبية وإمكانية تحولها إلى انقلاب دموي، ثم تخلى عن مطلبه باعتماد الشريعة الإسلامية مصدراً أساسياً للدستور، وفي محاولة منه للظهور بمظهر راعي الحقوق والحريات؛ دعا لعدم تجريم المثلية الجنسية في الأماكن الخاصة. لكن تحولات "الغنوشي" لم تقتصر عند هذا الحد، فقد صوَّت نواب النهضة لمنع بند في الدستور ينص على تجريم التطبيع مع إسرائيل.

# نماذج لبعض الحركات الإسلامية

تشهد العديد من البلدان الإسلامية صراعات داخلية طاحنة وحروباً أهلية مدمرة، لم يجنِ أهلها من ورائها إلا الموت والفقر والتخلف، ولم يشفِ غليل أمراء الحروب في تلك البلدان مشاهد الدماء والضحايا والخوف النازف من عيون الأطفال، فراحوا يهتفون باسم الله مع كل ضحية يذبحونها على "الطريقة الإسلامية"! ويكبرون مع كل مجزرة يرتكبونها لإشباع غرائزهم البدائية.

ويمكن فهم الأسباب والدوافع الحقيقية لتلك الحروب على أنها صراعات قبلية في مناطق تتحكم العقلية القبلية في بناها الاجتماعية والسياسية وحتى في مرافق الدولة، أو أنها حرب بالوكالة لأطراف خارجية ولكن تغذيها عقليات طائفية متعصبة ومجموعات من المنتفعين، أو أنها نتيجة توفر عوامل داخلية أخرى عادة ما تغذي نزعة الحرب في المناطق المهملة كشعور القبائل والأقليات بالتهميش والتمييز العنصري والظلم الاجتماعي، أو نتيجة انسداد الآفاق في وجه الشباب وانعدام الفرص لحياة كريمة ورؤيتهم للمستقبل بصورة قاتمة، أو لملء الفراغ الذي خلفه انكسار وتعثر المشاريع الوطنية والتحررية والتقدمية، أو هي لجوء الدولة لحماية مصالحها وفرض سيادتها على أراضيها، ولكن بالعنف والقمع السلطوي.. ولكن ما لا يمكن فهمه هو زج الدين في لب الصراع، وخلط ما هو ديني مع ما هو سياسي، وإحاطة ما هو دنيوي بهالات من القداسة، وإدعاء الكل باحتكار الصواب وامتلاك الشرعية المطلقة من السماء، سيّما وأن جميع المتصارعين ينتمون إلى نفس الدين!

في اليمن مثلا تدور معارك طاحنة بين القوات الحكومية (مدعومة من السعودية) وقبائل "الحوثيين"، وكلا الطرفين يكبّران ويهللان مع كل قذيفة مدفع أو صلية رشاش، حتى لو انتهت في صدر طفل أو في فناء دار!! وفي العراق يفجر بعض متعصبي الشيعة مساجد السنة، ثم يقتل بعض متعصبي السنة كل من قاده حظه العاثر ليشتري من سوق شعبي في مناطق للشيعة، ثم تهاجم عصابات المهدي قوات البدريين، أو يتحالف الطرفان ليفتكان بالصدريين، وهم جميعا من نفس الطائفة!

في السودان ومنذ أن صار النميري "الرئيس المؤمن"، بداية سبعينيات القرن الماضي، وحتى عهد "الخليفة" البشير، منذ نهاية الثمانينات وحتى الآن، خاض النظام حربا شعواء ضد الإنفصاليين في الجنوب، وكانت ماكينة الإعلام تصف "جون جارانغ" وأتباعه بأبشع التهم وتصنفهم مع الخونة والمارقين، وبعد سنين طويلة من الصراع الدامي الذي أهلك الحرث والنسل تحالف العدوّان، وصار "المارق" "نائبا" للرئيس "المؤمن" ثم ما لبث إعلاميو النظام حتى تكيفوا مع العهد الجديد، ولم تكن هذه مأساة البلاد الوحيدة، فقبل أن تهدأ طبول حرب الجنوب دقت طبولٌ أخرى في الغرب، وهذه المرة من دارفور.

في دارفور قُتل عشرات الآلاف من السكان، وهُجر أكثر من مليون إلى دول الجوار، نتيجة صراع عقيم استفادت منه الأطراف الخارجية فقط، بينما خسر النظام سمعته ومصداقيته في العالم، رغم كل الشعارات البراقة التي حاول تسويقها، ورغم محاولاته

الخثيثة لتصوير حربه على إنها دفاعا عن الإسلام، علما بأن جميع سكان الإقليم مسلمون سنّة![190]

في لبنان خاض "حزب الله" مغامرته (2006) بعد أن تعمد إستفزاز إسرائيل بهدف جرها إلى حرب توقع أن تكون "محدودة" تعيد ترتيب أوراق المنطقة كما تشتهي مرجعيات الحزب العابرة للحدود، ولكن النتائج كانت كارثية حيث سقط آلاف الضحايا من المدنيين العزل، وحل بالبلاد خرابٌ غير مسبوق في بنيته التحتية، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها اعترف السيد "نصر الله" بأنه أخطأ بالحساب، وأنه لو كان يعرف النهايات لما أقدم على البدايات! ومع ذلك عد ذلك نصرا إلهيا!! ثم أعادت حماس نفس السيناريو بعد أقل من ثلاثة سنوات ولكن دون أن تستفيد من اعتراف قائد الحزب بخطئه، فجرّت القطاع إلى ثلاثة حروب مدمرة أتت على ما كان لديه من بقايا حياة ومن مقومات صمود، وفي اعتراف مشابه صرح "مشعل" أن كل هذا الدمار مجرد "أذى عابر" وأن المقاومة لم يمسها سوء، فخسارة آلاف الشهداء ليست مهمة! بل أن السيد "هنية" أعلن بأنه مستعد لقبول فناء غزة عن بكرة أبيها وغير مستعد أن تسقط حكومته العتيدة! وأيضا تم احتساب كل الخسائر كنصر إلهي مجلجل!!

وفي مصر خاضت الجماعات الإسلامية في حقبة التسعينات حربا شرسة ضد النظام راح ضحيتها مئات من ضباط الجيش وأفراده ومئات من المدنيين العزل ومئات من السياح الأجانب، إضافة إلى مقتل واعتقال الآلاف منهم، فضلا عن خسائر اقتصادية واجتماعية لا تقدر. وبعد كل هذا أعادت قيادات الجماعة قراءة الإسلام من جديد،

190 صور الأقمار الصناعية تؤكد تدمير قرى في دارفور، تقرير لهيومان رايتس ووتش، 13-7-2013. موقع منظمة هيومان رايتس ووتش الرسمي. https://www.hrw.org/ar/news/2013/06/18/250118

لتكتشف أنها كانت مخطأة، وأن الرئيس الذي قتلته احتسبته في عداد الشهداء، وأنه يتوجب نبذ العنف الداخلي، وحل القضايا الشائكة بالحوار.. على كل حال، الإعتراف بالذنب فضيلة. (الرئيس السابق مرسي قلد السيدة جيهان السادات وساما، شاكرا لها أفضال زوجها ومواقفه الوطنية) ثم تواصلت الحرب على يد أنصار بيت المقدس، التي حولت سيناء إلى منطقة فوضى أمنية.

وحين تمكن الإخوان المسلمون من الوصول لسدة الرئاسة عن طريق الانتخابات، وحكموا مصر بالفعل لمدة عام كامل، لم يحدثوا أي اختراق، ولم يحققوا الإنجازات التي وعدوا بها، بل تدهورت الأوضاع لدرجة أن الجماهير شعرت بأن مصر تضيع، فقاموا بثورة شعبية خرج فيها الملايين يطالبون بإنهاء حكم المرشد.

وفي منتصف تسعينات القرن الماضي وبعد أن تنكر النظام لنتائج الانتخابات التي فاز بها الإسلاميون، اجتاحت الجزائر موجة عنف لا يشبهها في التاريخ إلا دمار قرطاجة على يد الرومان، وكان المهاجمون يجتاحون القرى النائية ويقتلون أهلها وأطفالها وشيوخها ويسبون نسائها مستخدمين الفؤوس والمعاول والحراب، في مشاهد عنف بدائي تترفع عنه وحوش البراري، وبعد كل مذبحة كان تفوح روائح فساد النظام والجيش، وتُسمع صرخات المتعصبين الإسلاميين وهم يكبّرون ويهللون مزهوين بنصرهم المبين على جموع من المدنيين العزل.

وتصل الملهاة ذروتها عند الحديث عن الصومال، وللعلم، فالصومال يشهد حربا أهلية مستمرة منذ الإطاحة بِ"زياد بري" عام 1991، وهو حاليا مثالا يُضرب في الفوضى والتخلف، ومؤخرا صوت البرلمان بالإجماع على قانون لتطبيق الشريعة الإسلامية في

هذا البلد الذي ينعم بالخيرات! لتصبح لديه حكومة إسلامية بناء على طلب متمردين إسلاميين معارضين للنظام، ولكن المشكلة ليست في وقوع قسم كبير من الصومال خارج سيطرة المؤسسات الممثلة بالبرلمان والحكومة (الصومال الشمالي)، بل هي في عدم رضا المتمردين الإسلاميين الذي يسيطرون على وسط الصومال وجنوبه على طريقة تطبيق الشريعة، أو عدم اقتناعهم بمستوى إيمان الحكومة! وفي النتيجة ورغم أن الطرفين يدعيان تطبيق الشريعة، إلا أن العمليات القتالية بينهما متواصلة وتجرُّ على البلاد مزيدا من الخراب والدمار!

ولم تكتفِ محاكم التفتيش بمشاهد البؤس والظلم الذي يلف البلاد، ولا بصور الجوع والحرمان الذي أنهك العباد، وأفواج المشردين الهائمين على وجوههم في الصحارى القاحلة، وعصابات القرصنة والتدخل الأجنبي وانعدام الأمن والنظام.. فبدأوا بقطع الأيادي والأرجل والجَلد والرجم بالصخور.. كما حدث للطفلة البريئة "عائشة إبراهيم دوهولو" (13 عاما) التي رُجمت حتى الموت في "كيسمايو" في 27-10-2008، أمام الآلاف دون محاكمة ودون التعرض للجناة الحقيقيين كونهم من "المجاهدين"!

في نيجيريا وبعد 10 سنوات على تطبيق الشريعة الإسلامية في ولايات الشمال، تراجعت حماسة المنادين بها، وتصاعدت حدة الاتهامات المنددة بانتهازية الطبقة السياسية التي تزعم أنها تطبق الشريعة، بعد أن تأكد الناس من كذب المتاجرين بالدين، وبعد أن رأوا الخراب والخواء في تجربة بائسة تعمدت بالدم والجماجم تمخضت عن حرب أهلية مدمرة، فقد جاءت الدعوات لتطبيق الشريعة آنذاك متزامنة مع عودة

الديموقراطية إلى نيجيريا في ختام ديكتاتورية عسكرية استمرت 15 عاما، ففي تلك الفترة كان الناس يطالبون بتطبيق الشريعة بهدف وضع حد للظلم والفساد والفوضى، ثم تبين أن بعض المتنفعين من النخب السياسية استفادوا من الموجة الديمقراطية وركبوها لتحقيق مآربهم الشخصية، وفي النهاية لم يتغير شيء، بل وتفاقم الفساد أكثر!

في الباكستان وبعد حرب ضروس بين الحكومة والطالبان وقع الرئيس "زرداي" على قانون تطبيق الشريعة الاسلامية في "وادي سوات"، (14-4-2009)وذلك بعد إلحاح البرلمان للمصادقة على القانون للوفاء بمتطلبات اتفاق سلام توصلت إليه الحكومة المحلية مع حركة طالبان باكستان، يقضي بوقف الحرب بين الجانبين مقابل تطبيق الشريعة الإسلامية، ومع هذا، لم يؤدي تطبيق الشريعة من قبل الحكومة ولا من قبل الطالبان نفسها إلى وقف نزيف الموت في الإقليم المضطرب، ولم يؤوي جموع المهجَّرين الفارين من المعارك، ولم يطعم آلاف البطون الجائعة التي تفترش الصحراء وتلتحف بردها القارص في واحدة من أقل مناطق العالم أمنا وأكثرها شقاء.[191]

والمأساة الكبرى تتجلى في أفغانستان، فبعد سنوات طويلة من "الجهاد" جاءت جماعة الطالبان وقررت أن المجاهدين ليسو مجاهدين! وأنه يتوجب قتالهم وكنس البلاد من فلولهم، فدخلت البلاد مرة ثانية في حرب أهلية لم تترك وراءها منزلا خلا من قذيفة أو عائلة خلت من قتيل أو معاق، ورغم قساوة الظروف التي يعيشها الناس هناك، ورغم القهر والقحط والرعب الجماعي، إلا أن الطالبان أصرت على تقديم أنموذج مختلف

---

[191] زرداي يوقع قانون تطبيق الشريعة في "وادي سوات"، BBC، 14-4-2009.

http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/world_news/newsid_7997000/7997454.stm

وفريد من نوعه في الحكم "الإسلامي"، صار هذا الأنموذج قرينا لكل ما يُقال وما يُكتب عن الإستبداد والقمع والتخلف والقهر الاجتماعي بأبشع صوره.

أما الأنموذج الذي قدمته "داعش" في المنطقة التي سيطرت عليها في العراق وسوريا، فهو الأسوأ على الإطلاق، وقد فاق بوحشيته وتخلفه كل ما سبق من نماذج بائسة، حتى أنه شكل صدمة لأنصار الجماعات الأصولية المتشددة.

وما تقدم مجرد أمثلة من الواقع على نماذج بائسة قدمتها بعض حركات الإسلام السياسي (وهي بالتأكيد لا تمثل الإسلام)، نماذج أقل ما يُقال عنها أنها فاشلة وأنها جرّت على البلاد والعباد الويلات والمصائب وحرمت المجتمعات من فرص التقدم والتطور، بل وحتى من فرص الحياة بأبسط صورها، فقد وصلت الإمور ببعض الجماعات أن صورت الإسلام كدين حرب وعقيدة قتال قادرة على جعل أي شخص أن يضع حزاما ناسفا على خصره، ثم يتجه إلى سوق يعج بالمارة لقتل أكبر عدد ممكن منهم، فيتحوّل الناس في نظره إلى مجرد أعداء ينبغي سحقهم! وبذلك تمكنت تلك القناعات الأيديولوجية الغريبة من تجريد الإنسان من مشاعر الشفقة والرحمة، وتحويله إلى أداة للقتل!

هذه النماذج التي مثلتها محاكم التفتيش الصومالية والطالبان الأفغانية والسلفية الجهادية والقاعدة وداعش وغيرها والتي أعطت لنفسها سلطات التشريع والقضاء والتنفيذ، فصار كل واحد منهم مفتيا وحاكما وشرطيا، وحتى النماذج الأرقى نسبيا والأقرب إلى روح العصر والواقع كنموذج الإخوان المسلمين وما تفرع عنهم من جماعات وأحزاب، معظمها تقريبا جعلت تطبيق الشريعة الإسلامية وسيلتها للظفر بالسلطة وللتحكم

بالعباد، وحتى لو افترضنا حسن النوايا فهي جعلت تطبيق الشريعة أهم من الإنسان، وتناست أن الناس الذين ستطبق الشريعة عليهم جائعون، وبالكاد يجدون الخبز والدواء، ويعيشون في بيئات ينعدم فيها الأمن والنظام، في بيوت متهالكة لا تقيهم بردا ولا تمنع عنهم حرا، ولا تحميهم من رصاص المتقاتلين وبطشهم، وأن كل نظرياتهم عن تطبيق الشريعة وممارساتهم لها لم تزد هؤلاء إلا فقرا وتخلفا، ولم تورثهم إلا الجهل والحقد.

وقد فشلت هذه النماذج لأنها اختزلت الإسلام العظيم بكل معانيه الرائعة ومقاصده السامية ومراميه النبيلة وتجربته الرائدة.. اختزلته في نظام عقوبات ينتهك كرامة الإنسان ويتعارض مع أبسط حقوقه، وجعلت منه مجرد شكليات تتعلق بالمظهر فقط، دون أن تقدم إجابة واحدة حقيقية على الأسئلة التي تحاصر الإنسان المقهور في هذا الزمن العصيب.

فشلت لأنها ركزت على الأمور السطحية والهامشية وتغافلت عن القضايا الكبرى والمصيرية التي تواجه الأمة، وهذا السقوط في شراك الوهم وصغائر الأمور قادها نحو مزيد من الضياع والتشتت، وفشلت لأنها لجأت للعنف والحروب بدلا من التنمية والتقدم، فالحرب أينما حلت يحل معها البؤس والعذاب والشقاء، ليس على جبهات القتال وحسب، بل وفي حياة الناس المباشرة وفي مستقبلهم، وبشكل خاص في المناطق التي تشهد صراعات داخلية وحروبا أهلية، ولا يقتصر هذا الأمر على البلدان الإسلامية، إذ أن الحروب بلا أخلاق مهما ادعى القائمين عليها، وهي لا تجر وراءها إلا الخراب والدمار والويلات خاصة للناس المدنيين الأبرياء.

وبهذا المعنى فإن النتيجة المتوقعة من تجارب تلك الحركات الإسلامية هي عزل دور الإسلام عن العالم الخارجي، وحبسه في كهف النصوص المتعالية على الواقع، وحرمانه من فرصة التفاعل الحي مع القضايا الإنسانية الكبرى، وبالتالي تعطيل أي دور حقيقي للمسلمين في تطور الحياة الإنسانية، وتعطيل فرصة أن يكون لهم إسهام حضاري وعلمي فعال؛ فالعالم اليوم يواجه تحديات كبيرة وخطيرة وليس من بينها الحجاب والإختلاط، والحركات الإسلامية ستكون عاجزة عن الإنخراط في المشروع الأممي والإنساني، لأن أدوات المساهمة والتفاعل غير متوفرة لديها؛ فمثلا لا تحتاج البشرية لنصوص شرعية لمواجهة الإحتباس الحراري، أو إيقاف التصحر، أو لسد ثقب الأوزون، أو إيجاد البدائل عن مصادر الطاقة المستنـزفة، أو لعلاج أوبئة وأمراض العصر، أو إيجاد الحلول الناجعة للإنفجار السكاني وحل أزمات السير والسكن والبطالة وغلاء الأسعار، أو وقف سباق التسلح ودرء التهديد النووي، أو لإطعام مليارات الإفواه الجائعة، أو لتطوير تقنيات الاتصالات وعلوم الفلك.. وغيرها من القضايا التي تهدد مصير الكوكب برمته وتضع مستقبل البشرية على المحك.

وهذا الفصام بين الحركات الإسلامية والواقع الموضوعي جاء كنتيجة حتمية لحبس الروح والعقل والإبداع في قمقم النص، فالشخصية الإسلامية عموما، ومنذ أن دخلت الأمة عصور الإنحطاط الثقافي والجمود الفكري فقدت طلاقتها وروحها الخلاقة وقدرتها على الإبداع والمبادرة، وصارت أسيرة النص وتتبع نهج المحاكاة والتقليد، وصار النص عندها "تابو مقدس" لا يجوز المساس به، الأمر الذي حوله إلى هيكل بلا مضمون وجسد بلا روح، لأنه فقد قدرته على التفاعل الحي بالبيئة المحيطة وفقد قدرته

على التطور والتجديد، حتى اتسعت الفجوة بينه وبين الواقع لدرجة اصبح من المتعذر ردمها.

وحسب أدبيات حزب التحرير؛ فإن النماذج التي ذكرناها ليست نماذج إسلامية، ولا تمثل الإسلام، إذ أن الدولة الإسلامية الصحيحة (حسب حزب التحرير) هي الدولة التي تحمل الإسلام عقيدة ورسالة، وتطبقه في الداخل، وتحمله إلى الآخرين في الخارج، التي تحكم بالإسلام بشكل كامل وليس جزئي، أو متدرج، ويكون قانون العقوبات فيها مستمد من الشريعة الإسلامية فقط، وتطبق الإسلام في النظام الاقتصادي، والاجتماعي، وفي علاقات الدولة الخارجية مع الدول الأخرى، أي من خلال تحكيم الإسلام في المعاهدات التي تعقدها مع الدول الأخرى، ولا تنخرط في منظمات عالمية تخالف الإسلام أو تحاربه (الأمم المتحدة وغيرها).

وبما أن النماذج المذكورة لا تنطبق عليها كل هذه الشروط؛ بالتالي فإنها لا تحكم بالإسلام، أو أن حكمها ناقصاً ومشوهاً ومبتوراً، وحتى حماس لا يمكن اعتبار حكمها في غزة حكماً إسلامياً..

في الواقع، لا خلاف على أن النماذج المذكورة لا تطبق جميع تلك الشروط، ولا حتى أغلبها؛ ما يعني أنها حسب (حزب التحرير) نماذج غير إسلامية.. ولكن تلك النماذج خرجت من بيئة إسلامية، خرجت باسم الاسلام، ونسبت نفسها إليه، وزعمت أنها تمثله، وتطبقه، وكانت في ممارساتها وفكرها تستند إلى فهمها الخاص للإسلام.. وهذا يعيدنا إلى السؤال الكبير: من الذي يمثل الإسلام حقا؟ ومن يملك حق الإدعاء بأنه هو صورة الإسلام الصحيحة النقية؟! طالما أن جميع الفرق والتيارات والأحزاب

والطوائف والمذاهب والحركات.. كل منها يدعي أنه يمثل صحيح الإسلام، وما عداه باطل، أو مشوه، أو منقوص على أقل تقدير..

هذا السؤال، باعتقادي لن نجد له إجابة واحدة.. والسبب ببساطة أن الإسلام جاء للبشر، والبشر (وليس الملائكة) هم من سيحملوه.. والبشرية بطبيعتها قائمة على الاختلاف، والتنوع، والتعددية، وعلى الصراع والتنافس، والبشر منذ بدء الخليقة وهم في مسار تطوري لا يعرف التوقف.. والتطور لا يعرف الوقوف عن نصوص جامدة..

النص بحد ذاته ليس في موضع اتهام. وليس هو المشكلة، لكن المشكلة تحدث عندما يفقد النص ديناميكية التطور، ويفقد قدرته على التكيف، ويصبح النص في معزل عن مصالح الناس.

من المفترض أن يتساوق النص ويتناسب مع مصلحة الإنسان، وأن يتطور مع تطوره.. والإسلام الذي نزل على محمد (ص) هو دين الرحمة والعدل والتقدم، والشريعة كما وردت في القرآن الكريم تعني المنهج والطريق، وبالتالي فهي شريعة تطور وتقدم دائمين، لأنها منهاج وسبيل مستمر على مدى الأزمان، وشريعة الرحمة الربانية تعني التيسير على الناس ورعاية مصالحهم وفهم الظروف المحيطة بهم وعدم التضييق عليهم، والإسلام الذي كرم الإنسان وأعلى من قيمته، وجعل حياته أعز عند الله من "البيت العتيق"، لا بد وأن ينتصر هذا الدين العظيم للإنسان على جمود النص، وخلاف ذلك يعني أن يصبح النص هو الرب المعبود، والإنسان بلا قيمة، وهذا ما يفسر فشل الحركات الإسلامية في بناء نموذج حياة يواكب العصر ويحترم الإنسان، ويفسر أسباب تخلف المناطق المنكوبة بحكمِ عقلياتٍ منغلقة مسكونة بالخرافة.

# الخلاصة

وكما أشرنا في المقدمة، بأن أمريكا تقتات على الإرهاب وتحتاج هذه الحرب مثل حاجتها للنفط، وتعتبر أن حربها المزعومة على الإرهاب هي مبرر وجودها ورسالتها الأخلاقية للعالم، وهي حجّتها أمام دافع الضرائب، وشعارها أمام الناخب الأمريكي، وبدون خصم قوي (نظريا في الإعلام وفي عقول الناس فقط) تصبح المواجهة سخيفة ولا معنى لها، وبالتالي إذا لم يكن هذا الخصم موجود أصلا، فلا بد من إيجاده، وإذا كان ضعيفا فلا بد من تضخيمه.

وقد أدى الربط الجائر بين الإرهاب والإسلام إلى تشويه صورة العرب والمسلمين بشكل عام في أذهان العالم، بل وإلى تشويه الإسلام نفسه، وقد زاد من حدة هذا التشويه التصريحات الجوفاء التي يطلقها أمراء الحرب في البلاد المنكوبة بالإرهاب، سواء على شاشات الفضائيات أم على مواقع الإنترنت، وهذا التشويه ترك آثارا بالغة السوء على الإنسان العربي، سواء في معاملته في دول الغرب، خاصة في المطارات ونقاط التفتيش والمدارس والجامعات.. أو في نظرته لواقعه وحيرته مما يجري، وتخبطه وضياعه بين مفاهيم الجهاد والإرهاب، وبين المقاومة والعنف.

واليوم فإن الإرهاب يُعد من أكبر التحديات التي تواجه المجتمع العربي، ومن أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور حالة الإنسان العربي والإساءة إليه، والإساءة لصورة المقاومة والنضال الوطني عامة، ففي الجزائر مثلا أدت الصور المرعبة للمذابح الفظيعة التي أقترفتها جماعات إرهابية موتورة تدعي الإسلام إلى فقدان تعاطف العالم مع جبهة الإنقاذ، حينما تمت مصادرة نتائج الانتخابات التي فازت بها آنذاك. وفي مصر أدت

التفجيرات العشوائية واستهداف السواح إلى التشويش على المعارضة السياسية ضد النظام، وفي العراق أدت تفجيرات القاعدة وأعمال التطهير العرقي الطائفي إلى تشويه صورة المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكي، وفي سورية أدت أعمال العنف إلى إخراج الثورة السورية عن مسارها الشعبي المطالب الحرية، وتحويلها إلى حرب أهلية عقيمة، وفي فلسطين أدت العمليات التفجيرية التي راح ضحيتها مدنيين إلى تشويه الصورة النقية للنضال الفلسطيني العادل والمشروع، وحتى في أفغانستان فقد أدى التداخل بين الحرب الأهلية ومقاومة الإحتلال الروسي إلى تشويه الصورة في المشهد الأفغاني.

وإذا كان المسلمون يتعرضون للقمع والإرهاب في عدد من الدول، مثل بورما وأفريقيا الوسطى والبوسنة والهرسك، وغيرها، وهي أحداث مؤسفة، بل وجرائم بشعة ومدانة؛ إلا أن أعمال العنف لا تستهدف المسلمين وحدهم؛ وهي وأن كانت تمارَس بحقهم على أيدي "الكفرة" و"الصليبيين" كما يروج البعض، إلا أن أشد أعمال العنف والاضطهاد بحق المسلمين، إنما تأتي من قبل المسلمين أنفسهم، وأبشع الجرائم تلك التي يمارسونها بحق بعضهم البعض! فقد حصدت موجات العنف الطائفي أرواح مئات الآلاف من المدنيين الأبرياء في الصراع الدائر بين السنّة والشيعة، وبين الطوائف الأخرى، كما قضى الآلاف من جراء الإقتتال بين الجماعات الإسلامية المتشددة نفسها، فضلا عمن قُتل وشُرد من القصف بالبراميل المتفجرة بطائرات الأنظمة وجيوشها، خاصة في العراق وسورية؛ وإلى جانب الخسائر البشرية الفادحة فإن جميع المساجد والحسينيات تقريبا دُمرت بأيدي مسلمة متوضئة، ولكن من طائفة أخرى!

إذن، عمليات تشويه المقاومة وربطها بالإرهاب وإن كانت تتم على يد الإعلام الأمريكي والإسرائيلي، إلا أن الأطراف الداخلية وبممارساتها تسهم في هذا الاتجاه، وتفيده بأكثر مما كان يحلم.

وأخيراً، يمكننا القول أن ما يُسمى بالصحوة الإسلامية والتي حملت بين طياتها أفكار التطرف والعنف قد برزت وانتشرت بعد فشل كل من الخيار القومي والإشتراكي، وانكفاء الإسلام العقلاني المعتدل، ومحاصرة حركات التحرر في العالم أجمع، والتي ترافقت مع أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية أدت إلى حالة تدهور وانهيار مستمرين على مختلف المجالات، مع تفشي البطالة، وتدني مستوى الذوق الإنساني، إلى جانب الاختناقات والكبت الجنسي وأزمات المجتمع وارتفاع تكاليف الحياة.. وبالتالي إيصال الفرد في بعض الحالات إلى مرحلة انعدام الأمل، ودفعه نحو التطرف أو السلبية، وهذا بطبيعة الحال سينتج عنه شعور بالإحباط العام وإحساس بالفراغ الروحي، ومن البديهي أن هذا الفراغ الناجم عن هذه السلسلة من الإخفاقات والهزائم المتتالية يستدعي بالضرورة إيجاد البديل.. البديل الذي يعد بالحل ويمـنّي الروح.

وقد كان لإنتشار المحطات الفضائية الدينية دورا مكملا في هذا السياق، إذ تتبارى هذه المحطات فيما بينها على استقطاب المشاهدين من خلال مقدمي برامج – ممثلون بارعون – يلبسون لباس الدين ويقدمون ثقافة سطحية تعمق من الذهنية الغيبية وذهنية التحريم، وترتكز على الفلسفة المثالية، وتقدم وجهة نظر الأنظمة الرسمية، التي طالما ركبت الموجة وتساوقت مع التيار.

ويمكننا القول أيضاً أن النسبة العظمى من أعضاء الجماعات الاسلامية هم من الطبقات الدنيا في المجتمع، المحرومة من أبسط حقوقها الطبيعية، والتي نشأت في بيئة القهر والحرمان والتخلف، وسحقتها ظروف مجافية بالغة القسوة، شملت كل مناحي حياتها، حتى التلوث البيئي والأمراض وسوء التغذية، مما يعني أن حركة الجماعات الإسلامية هي في جوهرها حركة احتجاج اجتماعية سياسية اقتصادية في مواجهة الظلم الاجتماعي والتمايز الطبقي وفساد الطبقة الحاكمة والهزائم السياسية، ولكنها وسَمَت نفسها بميسم ديني، ولبست ثوب الإسلام، لأن الثقافة الدينية حسب ما توصلت إليه من قناعة هي الأقرب منالا، والأسهل وصولا، والأكثر محاكاةً للعاطفة الدينية عند العامة، والمنسجمة مع ظروف تنشئتهم وتتناسب مع مستويات ثقافتهم، والتي يجدون فيها العزاء والسلوى والجنة الموعودة، ولكن ما أسهم بانتشارها ونجاحها هو تقاطعها مع مصالح حيوية لمراكز قوى داخلية وأخرى خارجية، لها حسابات سياسية خاصة بها، ولكنها استخدمت تلك الفئات في مخططاتها المشبوهة.

لذلك، فإن فهم السياقات التاريخية التي أنجبت ظاهرة الإسلام السياسي مسألة بالغة الأهمية؛ فهي مفتاح الحل، وبدايته الصحيحة، والذي هو فتح حوار عميق معها، بروح إيجابية، وإشراكها في السلطة ضمن مؤسسات الدولة والمجتمع، وتجفيف الأسباب الاجتماعية التي ساهمت ببروزها، أي بجملة واحدة إقامة نظام ديمقراطي منفتح، تتحقق فيه العدالة الاجتماعية والمساواة والحرية، بحيث لا تعود هناك فئات مهمشة، وشرائح مظلومة، وشبان محبطون.

وتبقى الحقيقة أن كل أعمال القتل والتفجير الموجهة ضد المدنيين، هي أعمال جبانة يمارسها أناس جبناء بمعنى الكلمة، لأنهم لا يواجهون أعدائهم بل يغدرون بهم، ولا يتركون أي فرصة للتكافؤ العسكري أو المعنوي بينهم وبين ضحاياهم، وهم غالبا ما يختارون الأبرياء هدفا سهلا لإنتصاراتهم الرخيصة، لأنهم معادون للإنسانية في أقدس معانيها، ويضربون نقطة ضعفها المتمثلة بالأطفال والنساء والشيوخ.

والخلاصة أن أفكار التطرف والعنف ليست موجودة في الأيديولوجيا الدينية وحسب، فهي موجودة فعليا لدى الحركات الإسلامية والمسيحية واليهودية على حد سواء، وهي أيضا موجودة ومورست فعلا عند الشيوعيين والرأسماليين والعلمانيين والثوريين، وكل الطغاة والمستبدين.. ولم يعجز أي منهم عن اجتراح النصوص والمبررات التي تجيز له القتل والإرهاب.. ولا يتسع المجال هنا لاستعراض الأمثلة.

كما يمكننا القول بكل ثقة، بأن أفكار العنف والتطرف والتشدد التي تتشدق بها الجماعات الإسلاموية الأصولية ليست من الإسلام الحقيقي بشيء، ولا تمت له بصلة، ولو استعرضنا بشكل سريع اختلاف الجماعات الإسلاموية في شكلها ومضمونها على امتداد العالم الإسلامي، وعلى مدار التاريخ، لتوصلنا إلى حقيقة بسيطة ومدهشة ودامغة في آن واحد: وهي إن الإسلامويين كانوا دوما يشبهون بلدانهم في بنيانها ونمط حياتها ومستوياتها الفكرية والاقتصادية، بل وفي شوارعها وأزقتها ونوعية حكامها، وهذا ليس غريبا، إذ أن تنوع البيئات سيؤدي إلى تنوع فهم الأفكار وكيفية التعامل معها، فإذا كانت الإفكار متاحة للجميع فإن الفرق يكمن في اختلاف بناء هذه الأفكار وترتيبها، فالخوارج مثلا نشأوا في فترة الإضطربات والقلاقل التي عصفت بالمجتمع أيام الصراع

الدموي بين علي والأمويين، أما الشعراء والفلاسفة والمخترعين وعلماء الكلام فقد ظهروا في البصرة وبغداد في أوج التقدم الحضاري للدولة العباسية، وفي عصرنا الراهن لاحظنا كيف أنتج الفقر والتخلف في أفغانستان حركة طالبان، وكيف أنتج الإزدهار والتطور في ماليزيا وتركيا حكومات ديموقراطية منفتحة على العالم، وكيف تأثر "شكري مصطفى" بقريته التي تمتهن التهريب والخروج على القانون فأنتج فكرا خوارجيا متطرفا، وكيف خرجت من عشوائيات القاهرة في إمبابة الإفكار العشوائية لعدد من منظري الجماعات الجهادية، على عكس ما يطرحه مفكرين متنورين في جامعات مصر المختلفة، وكيف خرجت من أزقة غزة الضيقة المكتظة المزدحمة نماذج عنيفة للإسلام السياسي تختلف عما تنتجه مدن الضفة الأكثر رحابة منها، وهكذا، أي أن ثبات العقيدة الإسلامية بحد ذاته لم يحل دون تنوع سلوك المسلمين، الذي هو في المحصلة نتاج للمجتمع وسُبل عيشه، بمعنى أن البيئة كانت تلعب دوما دورا حاسما في إنتاج الفكر الديني تزمتاً أو انفتاحاً.

واليوم، فإن كل من تجد هذه الأفكار المتطرفة صدى في نفسيته المضطربة، أو من يراها في مرآة روحه الصدئة، أو يجد لها قبولا في عقله المريض، وتعبيرا عن شخصيته الموتورة والمكبوتة والمأزومة، وكل من يبحث عن الشهرة والمغامرة، وأراد أن يعوض عن نقصهِ بصورة الملك المتوج، ولا فرق عنده إن تُوّج على كومة من الجماجم، وكل من افترسته أوهام الانتقام والنصر السهل.. أيٍ من هؤلاء، سيصبح إرهابيا بكل سهولة بغض النظر عن بيئته الاجتماعية، خاصة وأن أمراء الإرهاب متوفرون في كل حي ونادي في زمن الأمركة والعولمة والفضاءات المفتوحة.

# خاتمة مفتوحة

"جلس مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وقد أحاطت به جيوش العباسيين، وعلى رأسه خادم قائم، فقال مروان لبعض من يخاطبه: ألا ترى ما نحن فيه؟ لهفي على أيدٍ ما ذكرت، ونعمٍ ما شكرت، ودولةٍ ما نُصرت، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين: من تَرَكَ القليل حتى يكثر، والصغير حتى يكبر، والخفي حتى يظهر، وأخّر فعل اليوم إلى الغد، حلَّ به هذا.. وأكثر، فقال له مروان: هذا القول أشدُّ عليّ من فقد الخلافة."[192]

مع بداية الثمانينات بدأت جماعات الإسلام السياسي بالصعود وبشكل لافت، وذلك كنتيجة طبيعية وكرَد فعل متوقع على أمرين: **الأول**: فشل النخب السياسية التي كانت تمثل الاتجاه الوطني والقومي التقدمي، وتَعَثُّر مشاريعها التي وعدت الجماهير بها، **والثاني** إستشراء الفساد في مؤسسات الأنظمة العربية على كافة المستويات، وسياساتها التابعة والخاضعة للهيمنة الأمريكية التي تركت أسوأ الآثار على واقع المجتمع، ولأن الطبيعة لا تقبل الفراغ، فقد جاءت هذه القوى لتسد هذا الفراغ، أي أنها لم تأتِ لإنقاذ المشروع الوطني المتعثر، أو لاستكماله، أو التعاون معه، بل أنها طرحت نفسها كبديل جذري لكل ما هو قائم، وكمشروع متكامل لا يحتمل الشراكة ولا يحتاجها أصلا، وبالتالي فإن الإسلام السياسي يسعى لنسف تجربة القوى التقدمية على اختلاف مسمياتها، ثم وراثتها، وعلى هذا الأساس دأب يُمنّي الجماهير المسحوقة بالمدينة الفاضلة على الأرض، وبالفردوس الأعلى في السماء.

[192] منقولة عن البداية والنهاية، لإبن كثير، ج10، ص10، دار الكتب العلمية، القاهرة.

وقد تضخمت قوى الإسلام السياسي وباتت تملك مؤسسات اقتصادية عملاقة، تمثلت في شركات توظيف الأموال والبنوك الإسلامية، بالإضافة إلى العديد من المشاريع الإنتاجية والأنشطة التجارية، وقد وصل رأس مال هذه المؤسسات أرقاما فلكية غير مسبوقة، إلى جانب الجمعيات الخيرية ورياض الأطفال والمدارس والكليات ولجان الزكاة والمستوصفات والمستشفيات، كما أنها لم تغفل الجانب الإعلامي، فباتت تملك محطات تلفزيونية فضائية، وإذاعات ودور نشر وصحف ومجلات، ومواقع على الشبكة العنكبوتية، كما تغلغلت في مؤسسات المجتمع المختلفة كالبلديات والنقابات ومؤسسات الدولة، وفي سلك القضاء والشرطة، وطبعا في البرلمانات، وحتى في الحكومات.

بمعنى أن أحزاب الإسلام السياسي ليست ظاهرة عرضية بسيطة في النظام السياسي العربي، بل هي بشكل أو بآخر باتت تمثل دولة موازية، أو حكومة ظل، ولها أتباع من الجماهير العريضة، وميزة هذه القوى أنها تنظيمات حزبية متماسكة ومنظمة، فيها نظام التراتبية والإنضباط والطاعة العمياء، وقد استطاعت أن تفرض قوانينها وتعليماتها بمنتهى الصرامة في العديد من الأحياء والحواري والقرى والمناطق المختلفة في أكثر من بلد عربي، بينما تقف السلطة عاجزة عن التصدي لها، أو محاسبتها.

ولكن هذا الإنتشار والشمولية لا تعني أنها نجحت في وضع الحلول لكافة القضايا التي واجهتها في مختلف الميادين التي اخترقتها، فهي تعمل في ظل الدولة - التي تحاربها وتكفرها – وتستفيد من خدماتها وبنيتها التحتية ومن اقتصادها ومن علاقاتها، والأهم من هذا كله أنها تستفيد من أي هامش من الحرية والديمقراطية في البلد الذي تعمل فيه،

ولا تتورع عن استخدام الديمقراطية نفسها - التي تعدها من أنظمة الكفر – كسلّم للصعود للسلطة، ولكن باتجاه واحد، فبعد أن تصل لما تريد، لن تتردد في حرق هذا السلم حتى لا تستخدمه قوى أخرى.

وفي الحالات التي تتسلم فيها السلطة ستجد نفسها مضطرة للإنقلاب على مبادئها والتهرب من شعاراتها، حيث أن آليات عملها في ظل الدولة كقوى معارضة تختلف كل الاختلاف عن آليات عملها في حال كانت على رأس السلطة، لأن مواجهة العالم الخارجي والتعامل معه يتطلب الاستجابة والتناغم مع نظام هذا العالم، ومن ناحية ثانية فإن الخطابات الرنانة والشعارات البراقة التي كانت تمثل عماد خطابها السياسي لا تفيدها بشئ في مجال حل مشاكل المجتمع المتفاقمة والمتزايدة يوم بعد يوم، كالإسكان والمواصلات والعلاج والتنقل والاتصالات والفقر والبطالة والتضخم والركود والغلاء والصناعة والتطور التكنولوجي والبحث العلمي.. إلخ، وبالتالي ستجد نفسها منغمسة في معالجة مثل هذه القضايا بأساليب وأدوات لا تختلف بشيء عما تفعله الدول الأخرى التي تتهمها بالكفر، وربما بل ومن المؤكد أن تلك الدول متقدمة أكثر منها ومتفوقة عليها في كيفية التعامل مع الإنسان واحتياجاته ومشاكله.

إذن، نتوصل في النهاية إلى نتيجة بسيطة ولكنها حاسمة، ومفادها أن جميع أحزاب الإسلام السياسي بغض النظر عن شعاراتها إنما تسعى للسلطة، وهذا حق مشروع لها، ولكن ليس من حقها الإدعاء بأنها ليست أحزابا دنيوية، يقودها بشر من طبيعتهم الخطأ والصواب، وأنها أحزاب إلهية تستمد شرعيتها من لدن الله سبحانه، وبالتالي فإن كل ما هو سواها باطل وكافر.

وكما قال المرحوم "فرج فودة" في كتابه "النذير" (1989): "وإذا كانت المواجهة مع الجماعات الأصولية المتطرفة والبرنامج السياسي الذي تمثله قد وصلت أوجها، وبلغت قمتها، فلابد لهذه المواجهة أن تنتهي، فإما أن يراجع هذا التيار نفسه ويصحح مساره – فَعَل هذا تنظيم الجهاد في مصر بشكل نسبي – وبالتالي تنعقد المصالحة التاريخية بين المشروعين على أرضية تبادل المصالح المشتركة، وإما أن يبقى هذا التيار في غِيِّهِ ويتمادى في بطشه، وبالتالي ينتهي بالإنكسار. فالغرور الذي تملّك بعض قيادات ورموز هذا التيار، والإحساس بالقوة والتلذذ بالبطش والسيطرة، لا بد أن يبطش بهم أنفسهم في نهاية المطاف، فجرائم التفجير العشوائي والقتل والإغتيال والتهديد والوعيد وحرق المسارح ودور السينما ومحلات الفيديو ومقاهي الإنترنت وتحريم الموسيقى وتجريم الفنون وفرض رؤاهم بالبلطات والمعاول والقنابل وكاتم الصوت، ومشاهد الخطف والذبح.. كل ذلك سينقلب وبالاً عليهم، فها هم يصطدمون بمشاعر الناس ورغباتهم الإنسانية المشروعة، وها هم يهدّدون أمن المجتمعات، ويعتدون على حق الإنسان الطبيعي في العيش الكريم الحر الآمن، وبذلك فهم يحصدون كراهية الشعب ونفور الناس ومعاداة المثقفين، ويتحولون إلى شياطين بعد أن عاشوا زمنا ظن الناس بأنهم ملائكة".

وفي النهاية لا يصح إلا الصحيح، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا مَا يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ﴾.

﴿رَبَّنَا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلى الّذينَ مِنْ قَبْلِنا رَبّنَا وَلا تُحَمِّلْنا مَا لا طاقَةَ لَنا بِهْ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنا وَارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلى الْقَومِ الكَافِرينْ﴾. صدق الله العظيم.

**تم بحمد الله**

# المراجع

## الكتب


- أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والتوزيع، ط 6 دمشق.
- أدونيس، الكتاب الخطاب الحجاب، دار الآداب، بيروت، ط1، 2009.
- أيمن الظواهري، الحصاد المر، الفجر للإعلام، ط2، 2007.
- برهان غليون، المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012.
- بوعلي ياسين، الثالوث المحرم، ط6، دار كنوز الأدب 1996، دمشق.
- جمال البنا، الجهاد، دار الفكر الإسلامي، 2002، القاهرة.
- حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع.
- حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية والإسلامية، جزء2، دار الفارابي، ط1، بيروت، 2002.
- خالد الحسن، الأزمة اللبنانية- محاولات للفهم، دار الكرمل، ط1، 1987، عمان.
- خالد الحسن، أمريكا وإسرائيل-إسرائيل مشروع استعماري، منشورات دار الكرمل، عمان، 1985.
- خالد محمد خالد، مواطنون لا رعايا، مكتبة المثنى، ط6، بغداد، 1958.
- خليل عبد الكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، دار مصر المحروسة، ط1، القاهرة، 2004.
- دان براون، شيفرة دافنشي، الدار العربية للعلوم، ط1، بيروت، 2004.

- رضوان أحمد الشيبانى، الحركات الأصولية الإسلامية في العالم العربي، دراسة تحليلية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2006.
- زياد أبو عمرو، المجتمع المدني في فلسطين، المؤسسة الفلسطينية لدراسات الديموقراطية، رام الله.
- زياد سلامه، الشيخ حسن البنا، دار البيارق، عمان، 2001.
- سمير نعيم أحمد، المحددات الاقتصادية والاجتماعية للتطرف الديني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1990.
- صلاح عبد العاطي، العلمانية والأصولية في المجتمع العربي، م رام الله لدراسات حقوق الإنسان، ط،1 2008.
- علي الوردي، مهزلة العقل البشري، دار كونان للنشر، ط1، لندن، 1996.
- علي الوردي، وعاظ السلاطين، دار كوفان، ط1، لندن، 1996.
- عماد سلمان، الوطن العالمي الإنساني، ط1، دار الفارابي، بيروت، 2013.
- فرج فودة، الحقيقة الغائبة، ط1 مطابع المستقبل بالفجالة، مصر، 1985.
- فهد القحطاني، الإسلام والوثنية السعودية، منظمة الثورة الإسلامية في الجزيرة العربية، ط1، 1985.
- كامل النجار، قراءة منهجية للإسلام، تالة للنشر، طرابلس – ليبيا، ط1، 2005.
- محمد جمال باروت، يثرب الجديدة، رياض الريس للنشر، 1994.
- محمد سعيد العشماوي، جوهر الإسلام، مكتبة مدبولي، ط4، القاهرة، 1996.

- محمد سليمان الدجاني، الوسطية من النظرية إلى التطبيق، ط1، منشورات الوسطية، القدس، 2008.
- محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، الأهالي للتوزيع، دمشق، ط1، 2000.
- محمد عمارة، تيارات الفكر الإسلامي، دار الوحدة، القاهرة، 1985.
- محمد محفوظ، الذين ظلموا، رياض الريس للكتب، 1988.
- منصات الميديا الجديدة والعنف المقدس، مجموعة باحثين، مركز المسبار للدراسات والبحوث، الإمارات العربية المتحدة، آذار 2015.
- نوال السعداوي، المرأة والجنس، دار الطليعة، ط1، بغداد، 1975.
- هيلينا كوبان، لبنان 400 سنة من الطائفية، منشورات هاي لايت، لندن، ط1، 1985.

**الجرائد والمجلات:**

- أبو محمد المقدسي، كشف النقاب عن شريعة الغاب، مجلة أقلام الثقافية.
- أبو محمد المقدسي، ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين، مجلة أقلام الثقافية.
- إحصاء لأعداد المقاتلين الأجانب في العراق وسورية، تقرير قناة الجزيرة، 25-3-2016. http://cutt.us/vQWsX
- أحمد عبد الحسين، من هو الطائفي وما هي الطائفية، شبكة العراق الثقافية، 20-11-2004.

http://www.iraqcenter.net/vb/showthread.php?t=10129

- أدبيات حزب التحرير، كتاب الحرية، الديموقراطية. www.hizb-ut-tahrir.info/ar
- إيمان القويفلي، أساطير جهيمان في السعودية، العربي الجديد، 5-5-2017. http://cutt.us/KItln
- بيسان عدوان- بانوراما عربية، البلقنة الفلسطينية.. خطوات نحو بدائل للحركة الوطنية، الحركات السلفية في غزة. 25-2-2011.
- تركي الحمد، المجتمع السعودي يتخلص من آثار جهيمان، مجلة المجلة، 21-11-2009، http://cutt.us/2V0bt
- تسجيل صوتي للبلتاجي، تلفزيون On Live، https://www.youtube.com/watch?v=Flng2f0NdCw
- تقرير أخبار العرب، موقع صدق الإخباري، https://www.sdeg.org/7041
- جميل حمداوي، الحركات الإسلامية وسلاح التكفير، مجلة المثقف. http://almothaqaf.com/index.php/derasat/81564.html
- حسن خضر، 1979 مرة سابعة، جريدة الأيام، 19-12-2017.
- حسن خضر، 1979 مرة سابعة، جريدة الأيام، 19-12-2017.
- حسن خضر، نقطة ضوء، جريدة الأيام، 11-9-2007.
- حسن خضر، نقطة ضوء، جريدة الأيام، 24-11-2009.
- حسن خضر، نقطة ضوء، جريدة الأيام، 11-9-2007.
- حسين الموزاني، عن الحرب الطائفية في العراق، موقع قنطرة، https://ar.qantara.de/content/hsyn-lmwzny-n-lhrb-ltyfy-fy-lrq

- الدولة المدنية" تشق بيت الأخوان المسلمين من الداخل، صحيفة أخبار البلد، http://www.albaladnews.net/more-162184-1
- راشد الغنوشي، الصفحة الرسمية، وفيها نص المقابلة، 21-5-2016. http://cutt.us/B7ZWf
- رباب كمال، إزدراء الأديان، أم ازدراء العقول، أخبار، 18-10-2015. www.dotmsr.com/details/382175
- سامي لبيب، داعش الوجه الحقيقي للإسلام، الحوار المتمدن، العدد 4533، 4-8-2014. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=426889
- سامي لبيب، لماذا يؤمنون وكيف يعتقدون؟ الحوار المتمدن، العدد 3121، 10-9-2010.
- سعادة الخطيب، الإسلام السياسي بين الأيديولوجيا والبراغماتية، أوراق فلسطينية العدد 2، صيف 2008.
- سعود عبدالرحمن المقحم، الفرق بين الخوارج الأولين والمعاصرين، جريدة الرياض، العدد 14648، آب 2008.
- سلطان العامر، هل كانت حادثة جهيمان نقطة فاصلة في تاريخ المملكة، مفازة، 19-5-2012. http://cutt.us/RLEjR
- سيد القني، هل الإسلام سبب تخلف المسلمين؟ الحوار المتمدن، العدد 4719، 13-2-2015. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=223936

- صبحي منذر ياغي، التنظيمات الأصولية في المخيمات الفلسطينية. الخيام. http://khiyam.com/news/article.php?articleID=237
- الشيخ علي البغدادي، الطائفة بين مفهومي الانتماء والتمييز، جريدة الصباح، 17-5-2003
- طارق حجي، دانات رمضانية، الحوار المتمدن، العدد 3466، 24-8-2011. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=272658
- عامان على الأزمة السورية، ملف خاص من إعداد التلفزيون الألماني DW، http://www.dw.de/ 26.02.2013
- عامر دكة، نشوء وتطور داعش، المصدر، 16-8-2014. http://cutt.us/O4wRj
- عبد الحكيم الفيتوري، الحوار المتمدن، العدد 2443، 23-10-2008.
- عبد الحميد الأنصاري، الحركات الإسلامية وتفكيك الدول، جريدة الأيام الفلسطينية العدد 4618، 23-11-2008، نقلا عن صحيفة الإتحاد.
- عبد الرحمن أبو الفتوح، أسرار احتلال الحرم المكي، ساسة بوست، 26-4-2015، http://cutt.us/2V0bt
- عبد الغني سلامه، الدور المتنامي للفقهاء، جريدة الأيام، 24-10-2016.
- عبد الغني سلامه، جذور العنف في التراث الأصولي، مجلة فلسطينيات العدد الرابع خريف 2007، رام الله.
- عبد الغني سلامه، فلسطين بين الرواية الدينية والرواية التاريخية، مجلة فلسطينيات، العدد5، شتاء 2008. رام الله.

- عبد القادر قدوري، الطائفية وتفتيت الوحدة الوطنية، جريدة طريق الشعب، العدد 99، 8-1-2008.
- علاء أبو صالح/ عضو المكتب الإعلامي لحزب التحرير، تطبيق الشريعة، الموقع الرسمي لحزب التحرير.
- علاء الأسواني، قواعد تكفير الأدباء، جريدة الدستور، 20-10-2008.
- علي أبو الخير، فتاوى فقه التكفير/ جريدة كل العراق، 6-8-2008.
- علي محمد فخرو، رئيس مجلس أمناء مركز البحرين للدراسات، عن الطائفية، صحيفة الوسط، http://www.alwasatnews.com//writers/writer-235.html.
- فؤاد خليل، الطائفة انتظام مؤسسي لا كيان مستقل، جريدة الأخبار، 24-11-2006.
- فالح عبد الجبار، استشراء العنف الأصولي، جريدة الحياة، 24-7-2005.
- فايز سارة، الطائفية في سوريا، جريدة الشرق الأوسط، 15 يناير 2012، العدد 12101.
- فهد البياري، هل هزمت أم كلثوم جهيمان، العربي الجديد، 5-10-2017. http://cutt.us/66UvL
- مأمون سويدان، الانقلاب العسكري في غزة بين الدين والسياسة، أوراق فلسطينية، العدد 2، صيف 2008.
- محاضرة مسجلة للاستاذ أحمد عصيد بعنوان: " لماذا تخلف المسلمون؟ https://www.youtube.com/watch?v=-xkwonKvdEA

- محمد أبو علان، شبكة أمين الإعلامية، تقرير الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان – ديوان المظالم، يناير 2010، http://blog.amin.org
- محمد محفوظ، العبور نحو المختلف، مجلة تسامح، العدد 23، ديسمبر 2008.
- محمد السيد سعيد، تعريف الطائفية، جريدة الأهرام، 21-2-2005 العدد 43176.
- محمد الشافعي، الشرق الأوسط، العدد 9670، 20 أيار 2005.
- مشاري الذايدي، الشرق الأوسط، العدد 9019، 8 آب 2003.
- المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير، www.hizb-ut-tahrir.info/ar/
- نظام المهداوي، الإخوان أول نسخة من داعش، قناة العالم، 5-7-2017. http://cutt.us/teuce
- نظرية عش الدبابير، رابطة العلماء السوريين، 18-1-2016. http://islamsyria.com/site/show_articles/7740
- نيويورك تايمز، 26-9-2016. http://www.nytimes.com/interactive/2016/09/26/world/middleeast/arabic-language-saudi-arabia-islam.html
- هارون زيلين، تعرف على أنصار الشريعة في بلدك، معهد واشنطن، 21-9-2012. http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/know-your-ansar-al-sharia
- هالة مصطفى، «جماعات العنف السياسي في مصر» الحياة، الأعداد 10761، 10762.

- هل قدمت الأديان بمساهمات مفيدة للحضارة، برتراند راسل، ترجمة: مازن كم الماز، الحوار المتمدن، العدد: 3483 – 2011 / 9 / 11
- وليد رجا الكردي، الطائفية، مدونات أمين، شبكة الإنترنت للإعلام العربي، 11-11-2010.
http://www.amin.org/articles.php?t=opinion&id=12372
- وليد يوسف عطو، الجنس والكبت الجنسي، الحوار المتمدن، العدد 4491، 23-6-2014.
- ياسين الحاج صالح، هل من سبيل لإبطال المخاتلة الطائفية؟ الحياة، 4-11-2006.
- يزيد صايغ، ثلاثة سنوات من حكم حماس في غزة، تقرير صادر عن مركز كراون لدراسات الشرق الأوسط – جامعة برانديز، ترجمة مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات – بيروت، أيار 2010.

المشروع الوطني التقدمي يقف اليوم على النقيض المباشر في مواجهة قوى رجعية ترتبط بالماضي أكثر من إرتباطها بالحاضر، وهي تمثل مشروع أممي يتجاوز حدود الجغرافيا والقارات، ويقوم فكر هذا المشروع على مبدأ الولاء والبراء ومعاداة كل ما لا يشبهها، والتصادم مع كل من يختلف معها، وقوى هذا المشروع تعمل تحت جنح الليل وفي الزوايا المظلمة وتتفنن في صناعة الجهل وبث ثقافة الموت، وتستغل الدين وتتخبأ تحت عباءته، وقد ألحقت أفدح الخسائر بمشروع التحرر الوطني، وألحقت الكثير من التشويه بثقافة الأمة وأفسدت روحها وفكرها وأضرت بسمعتها وبسمعة دينها الحنيف، وقد آن الأوان لكشفها وتعريتها ونزع قناعها الزائف.

في ظل ثقافة الموت يدب اليأس محل الأمل وتموت الرغبة وتضمحل قيمة الحياة، لأنها باتت بلا جدوى، ومن هنا على المرء أن يستعجل الموت للخلاص من جحيم الدنيا وخطايا البشر، وبالتالي فإن قيمة الحياة ستتساوى مع الموت، بعد كل هذا يجب أن لا نستغرب من تكاثر أعداد الإنتحاريين الذين تسول لهم نفسهم سهولة الموت وسهولة قتل الآخرين.

كل ما يجري على الساحة لا يمكن وصفه بالإستقطاب السياسي، أو تصنيفه ضمن معركة الخير والشر، بل أن كل ما هو موجود عبارة عن عمائم سوداء وأخرى بيضاء، وبكل ألوان الطوائف، ومن ورائها يصطف طوابير من القتلة.